موسم صيد فى بيروت

وقصص أخرى

المجلس الأعلى للثقافة



المشروع القومي للترجمة

525

تأليف : دنيس جونسون - ديفز

ترجمة : نادية رفعت

مراجعة : محمد المخزنجى

اهداءات ٢٠٠٤
مجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

المشروع القومى للترجمة

موسم صيد فى بيروت

وقصص أخرى

تألـيـف : دنيس جونسون - ديڤيز

ترجمة : نادية رفعت

مراجعة : محمد المخزنجى



المشروع القومى للترجمة

إشراف : **جابر عصفور**

- العدد : ٥٢٥
- موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى
- دنيس جونسون ديڤيز
- نادية رفعت
- محمد المخزنجى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

هذه ترجمة للمجموعة القصصية :

Open Season in Beirut

And Other Stories

تأليف : **Denys Johnson - Davies**

الناشر : **Quartet Books 1999**

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel. : 7352396. **Fax :** 7358084.

تقــديم

دينيس جـونسـون ديڤيز البريطاني المولود في كندا ، والذي عاش طفولته في أفريقيا ومعظم عمره في العالم العربي - خاصة مصر - قال عنه المفكر إدوارد سـعـيد «إنه رائد ترجمـة الأدب العـربي الحـديث إلى الإنجليـزية» ، وهذا ليس إلا جزءًا من عالم دينيس جـونسـون الواسـع ، فهذا الرجل الذي يتجاوز الآن الثمانين من العمر بذهن شديد الصفاء لم تكن ترجمته لنماذج عديدة من الأدب العربي ومشاركته في ترجمة ثلاثة أجزاء كبيرة من الأحـاديث النبوية وكتاب عن الطعام للغزالي وتأليف مجموعات من قصص الأطفال المستندة إلى الرؤية الإسلامية والمعطيات العـربيـة ككتـاب «جـزيرة الحـيـوانـات» ... لم يكن ذلك كله إلا انعكاسـا لبـعض من روحـه التي يسـتكمل الإشـارة إلى بعـضـهـا الآخـر عبـر هذه المجموعة القصصية «موسم صيد في بيروت» التي صدرت بالإنجليزية في لندن عن دار «كوارتت» تحت عنوان «مصير سجين» .

وهذه المجـموعـة ذات الانسـيـاب السـردي الهادئ ، والدرامـا غيـر المولعة بالصخب ، والحبكات الناعمـة الذكية ، إنما ترسم صورة لعالم مـجـهـول لدينا برغم قربـه المدهش منا ، فنـحن نعـرف أن الإمـبـراطورية الاسـتـعـمـارية البـريطانيـة عندمـا غـربت عنـهـا الشـمـس ، تركت عـالم المتـسـعـمـرات - بعـد التـحـرُّر - ممزق الأوصـال على خـرائط مـزروعـة

بالألغام ، ومنذورة للحروب الأهلية والحدودية وآلام الشعوب . أما الذى لا نعرفه وتقودنا هذه القصص إلى معرفته فهو ذلك العالم الداخلى لفئة من أبناءالإمبراطورية الآفلة نفسها ، قادتهم قلوبهم وأحاسيسهم إلى الجانب الآخر المجروح بسكين هذه الإمبراطورية ؛ فلم يختاروا الحياة فقط على هذه الأرض المجروحة ، بل عشقوها وحلموا بالذوبان بين أهلها ، لكن نصيبهم من إرث الإمبراطورية الراحلة كان خرائط أخرى ملتبسة فى دواخلهم ، معذّبة بالحيرة بين عالمين ، ومثقلة بالشجن ، وهو عند دينيس جونسون شجن عذب وموجع فى آن ، يطلعنا عبر عذوبته وإيجاعه ليس فقط على صورة من يمثلهم الكاتب ، بل على صورتنا كما يراها هؤلاء ، وهذه الرؤية المزدوجة هى مناط أهمية هذه المجموعة من القصص .

محمد المخزنجى

(١)

الحـــلم

دفع جيمس مورفى أجرة التاكسى بجوار السفارة البريطانية، ثم عبر زحام المرور القادم من ناحية الكورنيش ، ونزل الدرجات الأربع إلى داخل محل البقالة. بعد أن اشترى زجاجة من زيت الزيتون ذى اللون الأخضر الغامق ، والتى تحمل علامة "إكسترا فيرجن " الفاخرة ، وعلبة من بسكوت الشكولاتة – المنتج فى هولندا عملاً بالنصيحة الشخصية لصاحب البقالة ، عاد أدراجه مخلفًا السفارة وراءه ، واجتاز بصعوبة حركة المرور الكثيفة التى كانت تمر فى طريقها بأهم الفنادق الفخمة فى العاصمة .

كان حر الصيف قد بدأ لتوه. وفى صباح هذا اليوم قرر أنه حان الوقت لكى يرتدى نظارته السوداء ، وقبعته الـ "بنما"، وخلق ذلك لديه إحساسًا بالخجل ؛ حيث شعر أنه أشبه بسائح ، هو الذى عاش فى القاهرة ما يقرب من نصف قرن .

سلَكَ طريقه داخل متاهة شوارع جاردن سيتى . وقف البواب النوبى عند عبوره البوابة الحديدية واجتيازه للحديقة المتربة نحو المدخل

الرئيسى. وبعد دخوله إلى جو أكثر برودة وصعوده طابقين من السلالم مسح العرق عن جبهته. وصل إلى باب شقته وهو يلهث ، ويشعر بدوار خفيف. وبدلاً من البحث عن مفاتيحه قرع جرس الباب. فتحه فوراً الطباخ "عبد الغفار" الذى كان يعمل أيضًا كخادم .

"حر جداً دكتور" قال عبد الغفار وهو يمنح سيده لقب الدكتوراه الذى يُمنح فى مصر لكثيرين .أومأ سيده بالموافقة ، ثم أعطاه المشتريات ودخل فوراً إلى الحمام. فتح حنفية المياه الباردة ، وغسل وجهه وشعره الأبيض الخفيف. خلع حذاءه المترب فى غرفة النوم ، ولبس الشبشب ، ثم استقر فى غرفة المعيشة ومعه جريدة "الإيجبشين جازيت" وخطابان كانا قد سلما للمدرسة فى الصباح ولم يقرأهما بعد .

ظهرت هيئة عبد الغفار النحيلة وراء الباب الزجاجى المؤدى إلى غرفة الطعام. وضع على المائدة صينية بها زجاجة بيرة "ستلا " تلمع رقبتها بحبات المياه المثلجة ، وكوبًا طويلاً ، وطبقًا من الفول السودانى المحمص .

"تعمل حساب حالاً دكتور؟ " سأل عبد الغفار.

كلاهما – السيد والخادم – كانا يتحادثان فيما بينهما بلغة تطورت عبر سنوات طويلة هى خليط من الرطانة الإنجليزية المبسطة ، وبعض الكلمات العربية التى تلفظ بطريقة خاطئة. كان يقول لنفسه إنه من السخف لرجل تعليم ، رجل عاش معظم حياته فى مصر، رجل لديه

استثمارات مالية في مدرسة لغات ، أن يفشل في التعبير عن نفسه بلغة البلاد. عُذره – وهو العذر الذي كان يقدمه دائمًا عندما يأتي ذكر تعلم اللغات الأجنبية في أي حوار – هو أنه على الإنسان . إما أن يجتهد جديًا لتعلم اللغة بشكل صحيح – أي القراءة والكتابة وما إلى ذلك – أو أن يتركها وشأنها .

"بعدين أبدول جفار" رد عليه مشيرًا إلى أنه سيقوم بعمل الحسابات فيما بعد. لم يبذل أي جهد في نطق الـ "غ" في اسم خادمه عملاً بمبدئه في "ترك اللغة وشأنها".

"أوكي دكتور" قال عبد الغفار وانصرف إلى المطبخ.

قال لنفسه – وهو يصب البيرة بحرص ، ومثلما كان يقول لنفسه عند كل موعد غداء – إنه مهما كان تناول زجاجة البيرة لطيفًا قبل الغذاء – وخاصة في فصل الصيف ، ويؤدي دائمًا إلى النوم ساعة أو أكثر بعد الظهر ، والاستيقاظ بطعم في الفم ظل يذكره بالأيام التي كان فيها مدخنًا، إلا أنه يجب حصر احتساء الكحول في فترة ما بعد غروب الشمس مثلما اكتشف المستعمرون البريطانيون الأوائل .

نظر إلى رأس الصفحة الأولى من الجريدة ، وتأكد أن اليوم هو الخميس ؛ وهو اليوم الذي يجيء فيه صديقه القبطي نبيل، مرتين في الشهر للشرب وللعشاء ولعب الشطرنج. لم يكن قد اتفق مع عبد الغفار على مكونات العشاء ، ولكنه كان متأكداً أن طباخه لم ينس موضوع العشاء مثلما نسيه هو .

"أبدول جفار!" قال مناديًا فظهر الرجل بشكل شبه فورى وهو يمسح يده بفوطة صحون. كان أحيانًا يتساءل إذا كان عبد الغفار يستطيع قراءة أفكاره. "مستر نبيل ييجى عشا" أبلغه جيمس مورفى، وأومأ عبد الغفار برأسه مسلمًا بذلك. "ماذا تطبخ أبدول جفار؟"

"سمك فى فرن" رد عبد الغفار. "بلطى كويس كتير، سمك جديد جدًا". البلطى – كما كان يعرف جيمس مورفى – هو سمك نيلى ، كان عبد الغفار يعده بشكل لذيذ المذاق فى الفرن مع شرائح البطاطس والبصل والطماطم. كان يعرف أيضًا أن كلمة "جديد" معناها "طازج".

" والحلو أبدول جفار"؟ كانت ذخيرة عبد الغفار من الحلويات محدودة. "الكراميل كسترد "؟ قال مقترحًا.

أجاب عبد الغفار موافقًا: "كراميلى كستر"

"و الطبق الأول؟"

"كوكتيل الجمبرى؟"

"كويس كويس" رد جيمس مورفى. كان هناك قانون غير مكتوب مفاده أن قائمة الطعام المقترحة غير قابلة للمناقشة.

التفت جيمس مورفى إلى بريده ، كان قد بدأ فى فتح أحد الخطابين الاثنين اللذين يحملان طوابع بريد أيرلندية عندما تذكر ضرورة أن يضع زجاجة نبيذ أبيض فى الثلاجة ؛ فالنبيذ الأبيض

المصرى من الصعب شربه إلا إذا تم إخفاء مذاقه عن طريق التبريد الشديد. وضع الخطاب جانبًا، وأخذ زجاجة "كليوباترا" من الدولاب ، ووضعها بجوار زجاجات بيرة "ستلا "فى الرف السفلى من الثلاجة. لم يكن من المحبين للنبيذ المصرى ، ولكن ضيفه القبطى كان يتذوقه. أما النبيذ الأجنبى فكان : إما غير متوافر أو باهظ الثمن، كما أنه – ويا للأسف – لم يعد لديه اتصالات داخل السفارة تتيح له فرصة الحصول من حين إلى آخر على زجاجة غير خاضعة للرسوم الجمركية.

مر على المطبخ ، وأبلغ عبد الغفار أنه وضع زجاجة نبيذ فى الثلاجة ، وأكد عليه بعدم فتحها إلا بعد تقديم الطبق الأول من وجبة العشاء. وجد طباخه أثناء عملية تقطيع البصل واقفًا بجوار طاولة المطبخ وهو يرتدى نظارة الشمس القديمة لسيده ذات الإطار المكسور ، ورفع عبد الغفار النظارة للحظات فى أثناء توجيه الكلام إليه.

كان من السهل التعرف فورًا على خط اليد المكتوب على الخطابين. على واحد منهما كانت الخربشة المتعرجة لجاره فى القرية بمنطقة"كيلى" – والتى كان يمتلك فيها كوخًا صغيرًا – مايكل موريارتى الذى كان يعيش مع أخيه التوأم وأخته الأصغر منه ، فى كوخ مماثل تمامًا لكوخه ، ولكن على مسافة أبعد فى الشارع نفسه، كان قد تولى منذ البداية مسئولية الإشراف على بيته، وكان كل عام يعترض بإصرار صادق على تقبل أية هدية مالية مقابل خدماته. مهمة مايكل الإشرافية كانت تشتمل على إشعال النار للتدفئة فى الطابق العلوى والطابق السفلى عندما تشتد برودة الجو – وهو ما كان يحدث فى أغلب الأحيان – وإدخال

رجل الكهرباء لقراءة عداد النور، ووضع سم الفئران ، كما كان يكتب خطابين أو ثلاثة سنوياً إلى "رجل دبلن فى القاهرة، مصر" - كما كان يسميه نصف مازح - حيث كان يبلغه بوضع الكوخ ، وحالة الطقس ، وأية إشاعات محلية يرى أنها قد تهمه. فى الخطاب الحالى قال إن الطقس كان سيئًا للغاية، لكن الكوخ صمد جيداً أمامه ، باستثناء فقدان بعض القرميد الذى قام باستبداله... الحصاد هذا العام لا يبدو مبشراً ، ولكن إذا تحسن الجو - بمشيئة الله - خلال الصيف سيتاح لهم جمع التبن... "بادى" كان يعانى من ظهره وذهب إلى "ترالى" للعلاج ، لكن صحة السيدة سوليفان ، التى تعيش على مسافة أبعد فى الوادى وتمتلك فندقًا صغيراً كانت فى تحسن - شكراً لله - وجاءت ابنة أختها من "أنيس" لتساعدها. لقد أخرج المركب من الماء ، وسيقوم بطلائها عندما يتوافر له الوقت. يبدو أن اليومين القادمين سيشهدان طقسًا رائعًا . هل يريد طلاء الجزء الداخلى بنفس اللون الرمادى إذا كان اللون نفسه متوافراً لدى المتجر ؟

حالة صيد السمك كانت سيئة للغاية ، ولا يتذكر وقتًا شهد مثل هذه الحالة من قبل. الجميع يتطلعون لرؤيته قريبًا فى صحة جيدة - إن شاء الله - كان قد أحضر رجلاً لفحص وإصلاح المضخة ، كما وضع بعض الجير فى البئر.

كانت خطابات مايكل تثلج صدره ، وتذكره بأنه عبر البحار ، فى بلد يختلف تمامًا عن مصر أكثر من أى بلد آخر ؛ حيث كان يوجد العقار الوحيد الذى يمتلكه ، هذا الكوخ الذى اشتراه فى حالة خراب ،

ونجح فى إنقاذه من تغلغل نباتات القراص والعليق واللبلاب. لحسن حظه كان سكان المنطقة قد بدأوا يفضلون السكنى فى البيوت ذات الطابق الواحد المبنية حديثًا ؛ ولذلك نجح فى شراء الكوخ ، وقطعة من الأرض مقابل عدة مئات من الجنيهات. كانت خطابات مايكل تذكره أن فى هذا الجزء المنعزل المعرض للرياح والمبهر من "رينج أوف كيرى" كان له أصدقاء يعتبرونه واحدًا منهم ؛ فحقيقة كونه أصلاً من العاصمة "دبلن" لا يعطيه هذا الحق ؛ فالقادم من "دبلن" يعتبر أجنبيًا مثله مثل الألمان والهولنديين ؛ الذين بنوا لأنفسهم منازل شبيهة بالثكنات فى هذه المنطقة.

كان الخطاب الآخر من أخته فى "كورك"؛ وهى تصغره فى العمر، وكانت قد ترملت منذ سنوات عديدة ، وانتقلت منذ فترة وجيزة من "دبلن" للعيش بالقرب من ابنتها وأحفادها .

كان فى كل صيف يمضى معها عدة أيام قبل أن يستكمل رحلته إلى منطقة "كيرى". جاء خطابها ردًا على خطابه الأخير لها ، والذى أشار فيه – ولأول مرة – إلى حيرته حول استمرار العيش فى القاهرة ، وعمّا إذا كان قد حان الوقت لكى يستقر فى أيرلندا. رغم تقديرها لحبه للقاهرة بعد كل الأعوام التى أمضاها فيها، إلا أنها أصرت أن لكل إنسان موطنًا واحدًا فقط، وفى حالته فإن موطنه هو كوخه فى منطقة "كيرى" ، فليس كافيًا – كما أكدت له – أن يكون قد أمضى معظم حياته فى مصر. ملاحظتها ذكرته بأنه سيظل فى القاهرة دائمًا كسائح ، وفى النهاية هو أيرلندى ، ومن الصواب أن يعود لجذوره. وإذا اتخذ

منطقة "كيرى" كمستقر له فليس هناك ما يمنعه فى الأوقات التى يسوء فيها الطقس ، ويفتقد فيها الشمس أن يقوم برحلة إلى مكان مثل إسبانيا. وهناك العديد من الناس الآن يذهبون فى إجازاتهم إلى أماكن مثل إسبانيا وقبرص .

الخطابان ملآه بالحنين لنعومة لهجة سكان "كيرى" ، وعظمة المناظر الطبيعة ؛ فكيف لا يكون سوى غريب فى بلد يتحدث فيه الناس بأصوات مرتفعة أقرب إلى الشجار ، وبلغة لا يفهمها؟، والقاهرة كيف نشأ حبه وتعلقه بهذه المدينة التى تقع عظمتها فى الماضى ، ولا يميزها الآن سوى التلوث وتآكل مرافقها؟

أصبحت القاهرة موطنه نتيجة مصادفة تاريخية ؛ فأزمة السويس التى قلبت حياة العديد من الناس رأساً على عقب لم تمس حياته ، ولكن حددت مسارها المستقبلى. كان قد تخرج من كلية "ترينيتى" فى "دبلن" وبعد أن عمل بالتدريس لمدة عامين فى مدرسة إعدادية فى مقاطعة "كنت" انتقل إلى القاهرة فى سن الرابعة والعشرين ، وتعاقد مع الحكومة المصرية للتدريس لمدة عامين. وبالفعل أمضى عامين غير مريحين فى مدرسة إعدادية فى أسيوط ، ثم وافق على الخدمة عامين آخرين شريطة أن يتم نقله إلى القاهرة. وما إن تحقق له ذلك حتى اندلعت الأزمة السياسية التى مزقت حياة العديدين من الأجانب ، وهددت سبل معيشتهم فى مصر. المدرسون الإنجليز الذين أصبحوا يعتبرون مصر موطناً لهم تسلموا تذاكر سفر باتجاه واحد إلى بريطانيا. توقع جيمس مورفى نفس المعاملة لكن السلطات المصرية ذكّرته بأنه

أيرلندى ، وأن مصر التى تشارك أيرلندا كراهيتها للإنجليز ستكون أكثر من سعيدة باستمرار بقائه. ونظراً لأن الكثير من الوظائف أصبحت شاغرة بشكل مفاجئ كانت الحكومة المصرية على استعداد لأن تعرض عليه وظيفة فى الجامعة. ورغم أن الأجر لم يختلف كثيراً عما كان يتقاضاه كمدرس ثانوى إلا أن ساعات العمل كانت أقل بكثير. فى هذه المرحلة بدأ ينظر إلى القاهرة ، وإلى عمله كمحاضر فى الجامعة باعتباره نظاماً ثابتاً لحياته أكثر فأكثر.

كان قد اتخذ لنفسه - مقابل مبلغ ضئيل للغاية - حق السكن فى شقة من الشقق ذات الإيجارات الثابتة فى حى جاردن سيتى ؛ وهو حى تقلصت فيه مساحة الحدائق عبر السنين ، ولكنه يقع بشكل ملائم فى قلب العاصمة سريعة النمو. خلال هذه الفترة عين عبد الغفار للعمل عنده ، وهو الخادم النوبى الذى تنقل من مسئول بالسفارة البريطانية إلى آخر مع انتهاء فترة خدمة كل منهم فى مصر .

سنوات الخمسينيات والستينيات كانت سنوات صعبة ؛ فقد فرض عبد الناصر على رعاياه المحبين للمتعة نمط حياة صارماً ومتقشفاً ، وفرض حظراً على استيراد ما يسمى بالسلع الكمالية ، والتى كانت تضم سلعاً يعتبرها أغلب الأوروبيين سلعاً أساسية. أصبحت حياة الأوروبيين الذين بقوا فى القاهرة بدون المطاعم والبارات التى يديرها اليونانيون والقبارصة والإيطاليون حياة رتيبة . فجأة أصبحت خدمات جيمس مورفى كمدرس لغة إنجليزية مطلوبة. كان أحد أهم تلاميذه ممن يدفعون بسخاء رائداً فى الجيش وثيق الصلة بحركة الضباط - والذى

وفر له إحساساً بالأمان خلال هذه الأوقات الملتبسة بالإضافة إلى مزايا أخرى مثل هدايا من العالم الخارجي ، والتى كانت تأتى فى أغلب الأحيان على شكل زجاجة سكوتش .

نظراً لأنه لم يكن مواطناً مصرياً استمتع جيمس مورفى بميزة السفر إلى الخارج كل عام ، والسماح له بأخذ مبالغ من المال كانت تكفيه خلال شهور إجازة الصيف، وخلال إحدى هذه الإجازات اشترى كوخه فى "كيرى".

عندما جاء السادات إلى السلطة حدث انفتاح مصر مرة أخرى للتأثير الأجنبى وتقلبات الرأسمالية ، فأصبحت الحياة أكثر سهولة ولكن أكثر غلاءً. لم يتغير الكثير فى حياته باستثناء أن عبد الغفار أصبح يعد له وجبات بها قدر أكبر من التنوع. خلال هذه السنوات الأولى لحكم السادات أقنعه صديق مصرى بالمجازفة بجزء من رأسماله ومشاركته فى تأسيس واحدة من أولى المدارس المخصصة للتعليم باللغة الإنجليزية. حققت المدرسة نجاحًا فورياً ، وفى عامها الثانى كان قد استقال من عمله فى الجامعة ليكرس كل اهتمامه لها. فجأة وجد نفسه يحقق دخلاً أكثر مما يحتاجه لتوفير متطلباته اليومية. لم يستمتع بهذه التجربة مثلما كان يتصور ؛ فقد انتزعت بشكل ما القوة المحركة أو الدافعة للحياة . لم يعد يعرف كيف ينفق دخله الإضافى باستثناء شراء محرك خارجى أكثر قوة لزورقه ، أو شراء قصبة صنارة جديدة مصنوعة من الفيبرجلاس ، أو إضافة جراج ومخزن إلى الكوخ. كان قد رفع أجر عبد الغفار وأعطاه مبلغًا من المال لكى يشترى لنفسه أرضًا فى قريته قرب أسوان حيث تعيش ابنته وزوجها.

كان جيمس مورفى قد تعدى الأربعين عندما دخل الحب والزواج حياته بشكل غير متوقع. كان قد تقبل فكرة أن يعيش وحيداً بقية حياته. ألا يوجد فى أيرلندا -كما كان يقول لنفسه -العديد من الرجال الذين يظلون وحيدين طوال حياتهم، يعملون فى مزرعتهم الصغيرة لكى يتوارثها من بعدهم أفراد آخرون من عائلاتهم. وألا توجد فتيات يضحين بشبابهن من أجل رعاية أب مسن أو أم مسنة. كان قد كوَّن علاقات فى القاهرة مع امرأتين أو ثلاث ، ولكن لم يتوافر القدر الكافى من الحماس فى أى من الجانبين لكى تتطور العلاقة إلى زواج. ومصر فى نهاية الأمر ليست بالبلد الذى تطمح فيه غالبية النساء الأجنبيات إلى تأسيس منزل ، كما أن هناك نقصًا فى عدد النساء الأجنبيات غير المتزوجات. ومع ذلك ظهرت فجأة فى حياته سيدة إنجليزية من "كورنوال" تعمل مدرسة فى مدرسة إعدادية للبنات ، وتكبره بثلاث سنوات ، وتلبى كافة متطلباته كزوجة ؛ فهى تمنحه رفقة طيبة ، ويشعر بالمتعة لمشاركتها فى فراش واحد ، كما أنها كانت تبذل مجهوداً لتتعلم صيد السمك ، ولم تشعر بالغثيان أو الخوف عندما تهب عاصفة فى البحيرة ، كما لم تحاول إصدار الأوامر لعبد الغفار ، ولكن لم يمض سوى عامين حتى أبحرت عن حياته بنفس الشكل المفاجئ الذى دخلته به ؛ إذ وضعت مراسيها وغادرت مغطاة بملاءة بيضاء فى مستشفى الأنجلو - أمريكان. كان من العبث بل من الوقاحة تجاه ذكراها أن يحاول تكرار تجربة بهذا الكمال. وتحت وطأة هذه الخسارة الفادحة وزَّع كل متعلقاتها الشخصية ، وعمل ألبوماً صغيراً للصور ، وعاد إلى حالة العزوبية مرة أخرى.

بكى عبد الغفار - الذى أحس بعدم أحقيته فى إعلان الحزن على زوجة سيده - فى عزلة المطبخ ، ليس من أجل المرأة التى شاركتهم الحياة لفترة وجيزة ، ولكن من أجل الحزن الذى أصبح يغلف سيده .

أحس بالارتباك إزاء ضرورة اتخاذ قرار حول رحيله عن مصر؛ وهو قرار ربما كان يجب أن يكون قد اتخذه منذ زمن بعيد حين تم استبعاد زملائه الإنجليز ، أو بعد ذلك - حين توفيت زوجته. كان يبدو أن حياته بها بدائل ضئيلة. ربما كانت أخته على حق ، وأن الوقت قد حان الآن بعد أن وصل سن الخامسة والستين ليصفى حصته فى مدرسة اللغات كى يمضى ما تبقى من حياته بين أهل بلده ، وفى منزل يمتلكه ، وفى قرية تتقبل وجوده واحداً من أبنائها .

بعد أن تناول غذاءً خفيفًا من الجبن والسلطة والبطيخ ، وأمامه رواية بوليسية مستندة على إبريق من المياه ظل تفكيره منشغلاً بالقرار الذى يجب أن يتخذه. عاد إلى غرفة المعيشة ليشرب فنجان القهوة التركى ، وبينما يأخذ أخر رشفة من الفنجان ، ويزيل بإصبعه مسحة البن على لسانه انتبه إلى وجود عبد الغفار واقفًا عند مدخل الباب .

"طبعًا ... ساعة حساب أبدول جفار" ثم أخذ كتاب الحسابات الأحمر والقلم الجاف ، وبدأ تدوين البنود وهى تملى عليه: ٢ قرنبيط ، ٨ بيض ، ١٢ شمام - وهكذا تتابعت البنود الواحد تلو الآخر بطول عمود كامل بما فيها اللبن واللحمة والسمك ، وحساب الغسالة والكبريت ، وما فهمه على أنه قماش للتنظيف ، ونوع من السوائل المطهرة يستخدمه عبد الغفار للمرحاض. وكالعادة امتدت

القائمة إلى ما لا نهاية مع حساب يصعب فهمه. وقد خطر بباله - مثلما خطر من قبل - عبثية هذا الروتين الإسبوعى، فكان لديه ثقة تامة فى أمانة عبد الغفار وبراعته فى الحساب ، لكن هذا الإجراء كان يتم كل يوم خميس على مدار أربعين عامًا ، وكان يعلم أن عبد الغفار يتوقع منه ذلك. تظاهر بأنه يجمع الحساب ثم نظر إلى عبد الغفار. "أربعة وستون جنيهًا وخمسة وعشرون قرشًا" ، قال عبد الغفار واتفقا على أنه مازال يتبقى لديه خمسة عشر جنيهًا ، وخمسة وسبعون قرشًا. أعطاه جيمس مورفى ستون جنيهًا إضافيين .

" آه و...يا أبدول جفار..."

لم يكن عبد الغفار قد تحرك: كأنه استشعر أن هناك شيئًا آخر لم يتم تناوله بعد.

"أبدول جفار ، أنا رجل عجوز ، أنت رجل عجوز..."

"نعم دكتور" رد عبد الغفار وهو يبتسم سعيداً بأنه هو وسيده قد نجحا فى الوصول إلى هذه المرحلة من العمر.

" كفاية شغل أبدول جفار أنت تعبان ، أنا تعبان. الآن وقت راحة".

رفع جيمس مورفى نظره في محاولة لاستشراف أى نوع من رد الفعل يلمح له ، أو يشير إليه بكيفية مواصلة الحديث.

"الراحة غير جيدة ، دكتور. الله خلق الإنسان للشغل".

"لا أبدول جفار ، أنا أرجع بلدى".

"للصيف دكتور، مثل كل صيف. أنت تذهب إنجلن، أنا أذهب قرية."

"لا أبدول جفار ، هذه المرة أنا أرحل بشكل دائم".

خوفًا ألا يفهم ما يريد قوله ، أو أن يساء فهمه أضاف. " للأبد. أنا أترك مصر".

اكتسى وجه عبد الغفار الطويل المليء بالتجاعيد بتعبيرات عدم التصديق.

"للأبد؟ كيف للأبد؟" قال سائلاً . "دكتور عنده مدرسة كبيرة، تلاميذ كثير".

هز جيمس مورفي رأسه، كان الأمر يبدو أصعب مما تصوره.

قال بحزم ، وهو يعود فى ارتباكه إلى استخدام اللغة الإنجليزية العادية. " أنا عائد إلى وطنى".

وأشار عبد الغفار أمامه إلى مساحة الأرضية من الحجرة ، التى كانت تفصل بينهما معقبًا. "هنا وطن".

"أنا ذاهب أيرلندا".

"إنجلن" صحح له عبد الغفار برفق ؛ حيث أن جيمس مورفى لم يكن قد بذل أى مجهود من قبل لكى يشرح الفارق بين البلدين .

"أنا أجد لك شغل آخر ، أو أنت تذهب تعيش مع ابنتك..." التفت إلى المائدة الجانبية ، وبدأ يعيد الخطابات فى مغلفاتها.

"عبد الغفار لا يريد شغل آخر، عبد الغفار لا يريد عيش مع ابنة" .
بدأت الدموع تملأ عينيه المحتقنتين ؛ وهو واقف يحاول التعبير عن رعبه من عدم استمرار حياته الراهنة.

قال فجأة في يأس: "أنت. أنا. نروح إنجلن".

هز جيمس مورفي رأسه ببطء من جانب إلى آخر كملاحظة لنفسه أكثر منها إجابة بالنفي للآخر.

"بعدين... نتكلم" قال وهو يضع نظارته كإشارة إلى انتهاء الحديث بينهما. تردد عبد الغفار للحظة ، ثم رفع الصينية وعليها فنجان القهوة وكوب الماء الذى لم يمس. بعدها بنصف ساعة سمع جيمس مورفى الباب الخلفى وهو يغلق ، وعرف أن طباخه قد ذهب إلى أحد المقاهى القريبة من القصر العينى - حيث يجتمع الخدم النوبيون الذين يعملون فى السفارات والفنادق .

لأنه كان يعلم أن عبد الغفار لن يعود قبل المساء بدأ ينزلق نحو النوم. استرخى فى الكرسى وهو يمد رجليه وفمه مفتوح قليلاً. أحياناً كان يحلم وخاصة عندما كان ينام عند الظهر. كان يندم لأنه نادراً ما يتذكر أحلامه، لكنه اليوم وهو يمسح اللعاب عن فمه التقط حلماً مثل فراشة ترف على زجاج النافذة ، ومرره إلى عقله اليقظ.

كان يصطاد فى البحيرة فى "كيرى". كان يوماً مشمساً ، يوم "صعب" كما يقول الصيادون عن فرص اصطياد السمك. كان يصيد بالسنارة على جانب من المركب ، ويستخدم سمك الطُعم الدوار

المفضض على الجانب الآخر في حين كان المحرك الخلفي يدور ببطء شديد لدرجة أنه تخوف من احتمال توقفه.

فجأة قفز الحجر الموضوع في أسفل المركب على خيط السنارة إلى الهواء، والتوت قصبة السنارة في شكل قوس مرتعش ، وسمع الصوت المثير لخيط الصيد وهو يُسحب إلى الخارج. أن تغمز سمكة عندما تكون وحيداً ، وتصيد بقصبتين في آن واحد ؛ هي عملية دقيقة تحتاج إلى براعة: فيجب أن تحول المحرك إلى السرعة المحايدة ، ثم تسحب الخيط الآخر بأقصى سرعة ممكنة ، وأنت تتمنى ألا تكون قد غمزت سمكة ثانية ، وأن تأمل أن تكون السمكة الأولى لا تزال موجودة عندما تعود لتبدأ في سحبها. بعد أن نجح في لف الخيط ورفعه نظر إلى أعلى ورأى عبد الغفار جالساً أمامه على الجانب الآخر وهو يرتدي جلبابه الأبيض وحزامه الأحمر وإحدى طواقيه البيض على شعره الأشيب الجعد. رآه وهو يمسك القصبة بيده اليمنى ويضع إصبع السبابة على الخيط حتى يستمر الضغط على السمكة ، ويتدبر أمره كأن لديه خبرة طويلة في صيد السمك بالسنارة بعد أن سيطر على السمكة أخذها ناحية مؤخرة المركب حتى تكون في اتجاه مجرى النهر ؛ وحتى لا تتشابك وتتعقد خيوط الصيد. سحبها تجاهه ورفع قمة السنارة إلى أعلى – وقد كانت ملتوية مثل عصا راعي الغنم – ثم رفع الشبكة في يده الأخرى ، ووضع متمهلاً السمكة فيها. كانت سمكة رائعة من نوع التروتة البحرية تزن ما بين ثلاثة ونصف إلى أربعة أرطال ، وكان قمل البحر مازال ملتصقاً بها.

انتهى الحلم وفتح عينيه على الضجيج المكتوم لحركة المرور عبر الكورنيش.

كان دائخًا ويلهث قليلاً، ربما من القلق الذى انتابه وهو يشاهد عبد الغفار يحاول الإمساك بالسمكة واحتمالات هروبها. بعد أن أصبح الحلم طليقًا تسلل من خلال نسيج عقله نحو النسيان.

لثوان قليلة استطاع أن يتذوق الحلم: لمعة سطح البحيرة تحت أشعة الشمس النادرة، وخرير المياه، وأحضان الجبال ؛ التى تنعكس عليها ظلال السحب الطافية. ابتسم لفكرة وجود عبد الغفار معه على البحيرة ، وذكره ذلك باقتراح الرجل بأن يرافقه إلى أيرلندا – كان هذا غير جائز بالطبع – فكيف سيتدبر أمره مع العواصف المتواصلة للأطلنطى وبرد الشتاء؟ مع من سيتحدث؟ أين القهوة التى سيجلس عليها فى ساعات الراحة؟

هل كانت أخته على حق عندما قالت إن العيش أغلب سنوات العمر فى بلد ما لا يعنى أنك أصبحت جزءًا منها ، أو أن تستبعد البلد الذى ولدت فيه ، ولكن أليس للمرء أن يختار؟ ليس هناك قانون ينص على ضرورة أن تنتهى من حيث بدأت. المسألة ببساطة هى أن تختار المكان الذى تفضل العيش فيه ، والذى قد يكون المكان الذى غرست فيه جذوراً جديدة . ولنكن واقعيين ، ماذا سيفعل بنفسه فى قرية معزولة فى أقصى نقطة فى "رنج أوف كيرى" بعد انتهاء موسم صيد السمك فى أكتوبر؟

إذا أحس أنه يريد أن يمضى وقتًا أكثر فى كوخه ، فلماذا يعنى ذلك أن يدير ظهره لمصر؟ ماذا يمنعه من الذهاب إلى "كيرِى" مرتينِ فى السنة بدلاً من فترة الصيف فقط؟ وهو لديه من المال ما يكفى ثمن تذكرتين ذهاب وإياب خلال سنة واحدة. فبالإضافة إلى شهور الصيف يمكن أن يعود خلال شهرى مارس وإبريل ؛ وهى الفترة التى يقال إن صيد سمك التروت البحرى يكون جيداً فيها، وهل يعتبر الرغبة فى امتلاك الأفضل فى كلا العالمين مسألة لاأخلاقية؟

مرة ثانية دخلت هيئة عبد الغفار الطويلة. كان يشعر بوجوده إلى جواره ويسمع صوت الصينية وعليها براد الشاى والفنجان وإبريق اللبن وهى توضع على المائدة. انتظر حتى لم يعد يشعر بوجود الرجل فى الحجرة، ثم مدد جسمه وسمع ركبه وهى تطقطق تذكر وهو يصب فنجان الشاى أن عليه أن يبلغ عبد الغفار بعدوله عن رأيه.

دخل المطبخ ووجد عبد الغفار يصلى. كان يجلس على قدميه الحافيتين ، ويداه الكبيرتان ترتاحان على فخذيه ، فجأة انحنى جسده ولمست جبهته طرف سجادة الصلاة. شعر جيمس مورفى ؛ الذى نشأ تنشئة دينية محافظة بوخز الضمير لعدم ممارسته شعائر دينه.

فى غرفة المعيشة وقف يرشف الشاى ، ويرتب قطع الشطرنج استعداداً لمجىء صديقه. فى نفس الوقت ظل منصتًا لأية إشارة تدله على أن عبد الغفار عاد إلى واجباته الدنيوية ، فمن الإنصاف أن يخرجه من تعاسته ، ويبلغه أن شيئًا لن يتغير فى روتين حياتيهما .

(٢)

مصير سجين

مرر الشيخ منصور بن خالد بن عبد العظيم - حاكم واحدة من أصغر دول الخليج حبات مسبحته بين أصابعه وهو ينتظر القهوة. كرر قائد شرطته ، الذى كان جالسًا إلى يمينه فى المجلس الخصوصى الصغير المطل على البحر سؤاله حول صحة الحاكم ، ثم طمأن الحاكم أن صحته هو كانت - والحمد لله - بخير. كان ماكس بوينتر يعلم تمامًا سبب استدعائه في هذه الساعة المتأخرة، ولكن تقاليد المجلس كانت تقتضى اقتصار أى حديث قبل طقوس شرب القهوة على السؤال المتبادل حول الصحة.

سأل ماكس وهو يشعر بضرورة كسر الصمت فيما بينهما: "ووالد سموكم؟"

"الحمد لله ، الشيخ خالد بخير" رد الحاكم وهو ينظر إلى الباب المفتوح ويُسرع فى تمرير حبات المسبحة بين أصابعه " وابنك؟" قال الشيخ سائلاً .

"الحمد لله، هو فى صحة جيدة" رد ماكس رغم أنه لم يتلق من ابنه أية خطابات منذ أسبوعين.

شعر الرجلان بالارتياح عند رؤيتهما الحارس الذى يرتدى حزامًا عريضًا للكتف يوضع فيه الرصاص ، وهو يدخل من الباب حاملاً دلة القهوة في يده اليسرى ، وفنجانين صغيرين فى يده اليمنى. جرت التمثيلية الصامتة التى تكررت مرات عديدة بين الحاكم وقائد شرطته عندما لوح الحاكم بيده لتقديم فنجان القهوة لماكس ؛ والذى أشار بدوره للحارس أن يعطى الأولوية للحاكم. وكالعادة تراجع الحاكم وأخذ الفنجان الأول . اكتفى كلاهما بفنجان واحد ، وقاما بهز فنجان كل منهما كإشارة لعدم الرغبة فى ملئه ثانية ، ثم قاما بإعادته للحارس ؛ الذى قام بدوره من خلال حركة سريعة وأنيقة لمعصمه برمى التفل جانبًا على سجادة ثمينة من قُم ، قدمها ، تاجر كهدية لوالد الحاكم تعبيراً عن شكره لمعروف أسداه إليه.

عند ذهاب الحارس خاطب الشيخ منصور قائد شرطته قائلاً: "مستر ماكس، الأمر يتعلق بالموضوع الذى سبق أن ناقشناه".

عند بداية تعيينه فى وظيفته فى الإمارة وجد أن الحاكم لم يستطع نطق اسمه "بوينتر" وفضل مناداته بـ"بونتر"، ولأنه ضجر من هذا الاسم؛ اقترح ماكس على الحاكم أن يناديه باسمه "الشخصى" ماكس. وافق الحاكم على ذلك ؛ حيث وجد أن نطق هذا الاسم أسهل ، كما وجد نوعًا من المتعة فى تكرار الحرف الأول في اسمه مع الحرف الأول لكلمة "مستر".

كان ماكس يحمل احتراماً ومودّة للشيخ منصور العجوز. في الواقع لم يكن الحاكم الذى كان يبلغ من العمر سبعة وخمسين عاماً أو ما يقارب ذلك لا يزيد فى العمر عن قائد شرطته إلا بثلاثة أو أربعة أعوام ، لكن كان من الصعب على ماكس عدم التفكير فى "الرجل الكبير" إلا باعتباره أكبر منه فى السن والخبرة ، رغم أن الشيخ منصور لم يكن فى استطاعته النجاح فى امتحان أية مادة للمرحلة الثانوية ، إلا أنه كان منعماً منذ ولادته ، وكان قد اكتسب – خلال ثلاثين عاماً من الحكم الصعب، عقب خلع والده المفتون بالنساء وغير الكفء – دهاءً وعمقاً فى فهم أخيه الإنسان ، بما يعد مفخرة لميكافيلي مؤلف كتاب "الأمير" علاقته الممتازة مع والده العجوز الذى كان يعيش فى أبهة بقصر فى قرية مجاورة كانت دليلاً على قدرته على العيش فى انسجام مع شخص يمكن أن يحمل تجاهه ضغينة. فى الواقع، منذ ابتعاده عن المهمة الأزلية فى صد القبائل المتصارعة التى تجوب صحراء المشيخة، وعن محاولة تدبير احتياجات بلاده التى تفتقر للموارد النفطية، وجد الشيخ خالد – منذ أن تمت الإطاحة به – أن لديه فرصة أكبر لتكريس طاقته المتضائلة لتلبية رغبات زوجاته الأربع.

كما توقع ماكس، كان سبب استدعائه للقصر ذلك الشرطى العُمانى الذى كان يحتل غرفة فى القلعة البرتغالية القديمة المستخدمة كسجن فى المشيخة. كان الشاب ينتظر محاكمته بتهمة القتل. كانت عملية القتل قد تمت فى وضح النهار وأمام مجموعة من الشهود ؛ لذلك كانت نتيجة المحاكمة معروفة مسبقاً كذلك العقوبة ، وهى حتماً الإعدام. لم يكن على الحاكم سوى تحديد توقيت المحاكمة ، وأسلوب التنفيذ.

"نعم ، طال عمرك" قال ماكس وهو يقطع الصمت فيما بينهما .

" منذ الصباح وأنا أفكر فى أفضل طريقة للتعامل مع هذا الشاب الغبى الذى تسبب فى هذه المشاكل". لوح منصور بمسبحته تجاه ذبابة عنيدة ، ثم نادى على الحارس الذى كان جالسًا على كرسى خيزران بجوار مدخل الباب .

"اقتل هذه الذبابة،" أمره الحاكم ، وأسرع الحارس لإحضار مضرب الذباب.

"بقدر كرهنا لفكرة إجراء المحاكمة" ، أضاف الحاكم ، "إلا أننى لا أرى سبيلاً لمنعها. أخو القتيل جاءنى بعد أن تركتنى صباح اليوم ، وأصر على عرض الأمر على القاضى فوراً... ."

كف الحاكم عن الحديث ، وتابع جهود الحارس فى التخلص من الذبابة. أخيراً بعد أن فاض به .

أمر الحارس بإعطائه مضرب الذباب ، وقام بقتل الذبابة بضربة واحدة ، وأعاد المضرب للحارس الذى انسحب سريعًا.

"نحن نعلم جيدًا - مستر ماكس - النتائج التى قد تترتب على المحاكمة".

"بالتأكيد، سموكم". فى حديثه مع الحاكم كان ماكس يتبادل فى استخدام كلمة "سموكم" ، والعبارة التقليدية "طال عمرك". "القضاء سيجد السجين مذنبًا"

"و هل يمكن أن يكون هناك حكم آخر؟" سأل الحاكم. "و عندما يخير القاضي أسرة القتيل - وفقًا للشريعة - بين الدية أو الدم نحن نعلم جيداً ماذا سيكون ردهم" .

"نعم، طال عمرك،" رد ماكس وهو يومئ برأسه، ويتساءل متحيراً عن مغزى هذا اللف والدوران .

"أسرة القتيل" واصل الحاكم "ليست في حاجة إلى المال."

"وحتى إذا كانوا في حاجة إليه" أشار ماكس موضحاً "فالسجين ليس في مقدوره دفع الدية" .

"فعلاً" قال الحاكم : "و لذلك فالبديل الوحيد هو أن يدفع السجين حياته ثمناً لحماقته" .

"هذا صحيح، سموكم" قال ماكس موافقًا، رغم أنه لم يوافق الشيخ منصور تمامًا في إصراره على أن السجين الشاب تصرف بحماقة؛ فجريمة القتل تمت في واقع الأمر تحت ظروف استفزازية للغاية كما كان هناك عنصر الشرف ، وهو عنصر مهم جداً فيما يخص العرب .

"وأنت مستر ماكس، باعتبارك قائد الشرطة عليك أن تجهز الترتيبات الخاصة بعملية الإعدام ، التي ستتم بشكل أو بآخر، في مكان لم يعرف طوال فترة حياتي - والحمد الله - شيئًا كهذا. الأمر كله سيسبب لنا مشاكل كثيرة ، ويبعدنا عن القضايا البناءة والأكثر فائدة."

قال ماكس فى نفسه إن سموه يأخذ وقتًا طويلاً للوصول إلى الموضوع مما بدأ يثير قلقه. بعد أن أدرك أن الحاكم يحدق فيه بترقب رد مغمغمًا: " حقًا طال عمرك."

"الناس كما تعلم تستمتع بهذه المشاهد ، وربما يطالبوننى بتنفيذ عملية الإعدام بشكل علنى." كان يعرف قائد شرطته جيداً ، ولم يفاجأ عندما رأى ماكس يهز رأسه ببطء من جانب إلى أخر.

"أعلم أنك لن تستسيغ أمراً كهذا ؛ لهذا السبب فكرت كثيراً فى كيفية إنقاذ أنفسنا من ترتيب مثل هذا المشهد."

"لا أحتاج لتذكير سموكم أن الإعلام الأجنبى سيستمتع جداً بالكتابة عن تخلف العرب فى هذه الأمور."

نظر الحاكم بحدة. "أنا مدرك لذلك أيضًا. يبدو أن الغرب يتعاطف أكثر مع المجرمين عنه مع الضحايا ، ويريد أن نشاركهم وجهة نظرهم نفسها. العمانى قتل رجلاً آخر ويستحق الإعدام. هذا واضح تمامًا، لكنه من الواضح أيضًا أن المحاكمة وعملية الإعدام سيكونان مصدر حرج كبير. من الأفضل من وجهة نظر الجميع لو مات المتهم فى السجن."

"فى السجن؟" تساءل قائد الشرطة، بعد أن فشل فى استنتاج مغزى أفكار الحاكم.

"بيده،" أضاف الحاكم غاضباً لإصراره أن يكون أكثر وضوحاً.

"بيده؟" كرر ماكس وهو يزداد قلقًا.

حدّق الحاكم فى وجهه متظاهرًا بالدهشة. "أقصد - أن يبدو الأمر وكأنه مات بيده. أنت تفهم؟ وهو نائم. هذا الموت سيكون الأفضل للجميع، حتى للسجين نفسه، ألا توافق على ذلك؟"

سأل ماكس ببراءة: "بدون محاكمة، سموكم؟"

"طبعًا بدون محاكمة!" انفجر الحاكم وهو يزداد ضيقًا من البلادة الذهنية الواضحة لقائد الشرطة. "إذا مات السجين لن تكون هناك حاجة لإجراء محاكمة، أو عملية إعدام. الأمر سيكون قد خرج من أيدينا."

دون انتظار أية تعليقات أخرى صفق الحاكم بيده ، وظهر الحارس فورًا وهو يحمل تجهيزات تقديم القهوة .

قال الحاكم قبل أن يعيد فنجانه: "فى نومه" وانتظر حتى خرج الحارس من الغرفة ثم أضاف: "الرجل ليس من هنا ، ولن يكون هناك من يتشكك فى كيفية وفاته. بحلول ظهر الغد يكون قد تم دفنه ونسيانه." رتب الأمر مع رجالك." ثم أضاف الشيخ منصور بعد أن رأى نظرة القلق على وجه ماكس : "يجب أن تتذكر أن المصير المحتوم بشكل أو بآخر لهذا الرجل هو الموت ؛ لأنه قتل رجلاً آخر" .

قام الحاكم واقفًا بقامته المهيبة ، وأنفه المعقوف، وعينيه الثاقبتين، رجل كان مجرد وجوده يستدعى طاعة الآخرين . مد يده مصافحًا ، وابتسمت شفتاه الرفيعتان وهو يودع قائد الشرطة .

* * *

زيد العماني ؛ وهو مجند حديث فى شرطة المشيخة، كان قد أنهى حياته المهنية القصيرة بعد أن أطلق الرصاص على أحد زملائه من رجال الشرطة برتبة رقيب ؛ وهو واحد من بين أربعة يحملون هذه الرتبة نفسها في قوة الشرطة. كان زيد قد أمضى جانبًا كبيراً من وقته، والجزء الأكبر من راتبه الشهرى فى الانتفاع بخدمات فتاة شابة؛ كانت قد أنجبت طفلاً سفاحًا ثم هربت من قريتها فى اليمن ، واتخذت الدعارة مهنة لها - باعتبارها المهنة الوحيدة المتاحة أمامها - بعد أن أصبح متيمًا بها وجد زيد أن السبيل الوحيد لكى يستحوذ عليها لنفسه هو الزواج. عاش الاثنان في سعادة لعدة أشهر دون أن تشعر الفتاة بأى إغراء للعودة إلى مهنتها السابقة. ولكن يبدو أن رقيبًا فى الشرطة يدعى بخيت - وهو رجل محلى كان ممن اشترى - فيما مضى - وصالها، بدأ يعير زوجها الشاب بعلاقته السابقة بالفتاة. ثم فى أحد الأيام وأثناء خدمة الشرطى الشاب فى السوق تعرض لملاحظة بذيئة من الرقيب ، فما كان منه إلا أن أطلق عليه الرصاص مرتين فى الصدر ، ثم جرى إلى مخفر الشرطة ليسلم نفسه. منذ البداية كان واضحًا لماكس أن هذا الحادث سيكون واحداً ضمن الحوادث المنفرة - التى رصعت حياته المهنية كشرطى، بدءًا بعمله فى فلسطين ، ثم البحرين ، وأخيراً مع الشيخ منصور. كان الموضوع أكثر إيلامًا له بسبب إعجابه بهذا الشاب؛ الذى تميز بتفوقه من حيث الذكاء والتعليم عن غيره من المجندين الجدد ؛ ولذلك كان قد اختاره دون غيره للترقية. والآن، بعد الأيام التى أمضاها الرجل فى السجن، تعرف ماكس عليه اكثر من خلال زياراته اليومية له. رغم اعتياده على قدرية العرب إلا أن رباطة الجأش ، التى

واجـه بها زيد مستقبله المظلم أثارت إعجابه وتعاطـفه. عـندما سـأل زيد خـلال زيـارته الأولـى له إذا كـان يريد شـيـئًا ، طلب السـجين مصـحفًا. شرح له أنه بالطبع لديه مصحفًا في بيته ، ولكنه فضل أن يشتري له ماكس مصحفًا آخر ؛ وهو ما كـان يعكس - في واقع الأمر - رغبته في ألا يتم أي نوع من الاتـصـال مع زوجته. عندما اشتري ماكس مصـحفًا له من السوق حاول السجين دفع ثمنه ، ولكـن مـاكس أصر أن يـعتبره هدية. الطلب الآخر الذي طلبه زيد هـو أن يحضـر له الخطابات التي تأتي له عن طريق مخفر الشرطة ؛ لأنه كـان ينتظر خطابًا من والده. عندمـا سأله ماكس إذا كان قد كتب لأسرته ليخبرها بما حدث اعترف زيد، وهو يبتسم ابتسامة ممرورة ويهز رأسه، بأنه لم يستطع حتي الآن أن يقدم على ذلك.

أصبح واضحًا لماكس أن السجين كان يعتز بزيارته اليومية له ، والتي كانت تتغير مواعيدها. كانت التعليمات بخصوص زيد تحظر أية زيارات ، أو أي اختلاط بالسجناء الآخرين؛ لذلك كانت الفترات المسموح له فيها بالرياضة تقتصر على الأوقات التي يذهب فيها سائر نزلاء القلعة للعمل في بساتين النخيل المملوكة لوالد الحاكم. في اليوم التالي أحضر مـاكس له خطابًا عليه طابع بريد عُماني. انشرح وجه زيد الأسمر حليق الشـعر ، وقبل الكتـابة على الظرف "أبي،" قـال مـوضـحًا ورأى مـاكس الدموع في عينيه. كان قد وضع الخطاب جانبًا ولأن ماكس كـان يعلم مدى أهمية الخطاب له ؛ طلب منه أن يفتحه ويقرأه. "إن شاء الله،" رد زيد وهو يبتسم، "سيكون هناك وقت بعد ذهابك." في هذه اللحظة سـأله

ماكس إن كان يريد رؤية زوجته ؛ حيث أن الحاكم لم يعط أى أوامر تمنع ذلك. رد زيد فوراً بحركة حادة إلى أعلى من رأسه. "إذا كان هناك أى راتب لى أعطه لها. إن شاء الله ستجد رجلاً آخر ، وتعيش فى سلام مع الله - فهو القدير الغفور".

هذا هو الرجل الذى كان الشيخ منصور يطلب من قائد شرطته أن يتخلص منه بشكل لا يسبب الإحراج لأحد.

* * *

عند عودته إلى بيته من القصر صب ماكس لنفسه كوبًا من الويسكى. كان قد تم استدعاؤه للقصر عقب تناوله العشاء مباشرة. لم يكن من عادته الشرب بعد العشاء ، ولكن اليوم كان - فى رأيه - يومًا استثنائيًا . فليس كل يوم يتم فيه الإيعاز لقائد شرطة أن يتخلص بدم بارد من إنسان ما. كان قد قام بمهام كريهة عديدة طوال حياته كرجل شرطة ؛ مثل : تنظيم عملية انتشال ستٍ وعشرين جثة فى أكياس بلاستيك من حطام طائرة ظلت مبعثرة طوال يومين فى الصحراء فى قيظ الصيف ، أو الاشتراك - وفقا لحكم قاض - فى إعدام إرهابى (أو وطنى) فى فلسطين. أما هذا الأمر فكان مختلفاً.

فكر ماكس وهو يشرب الويسكى فى المهمة التى كان مدعواً لإنجازها. كانت تحتوى على عنصرين يجعلان من الصعب عليه قبولها. أولاً - كان قد أحس بنوع من الود تجاه السجين ، وكان يشعر أنه قام بفعلته نتيجة استفزاز كبير. العنصر الثانى - أنه تم عرض الأمر عليه

دون أن يسجل كتابة ، أو دون قرار رسمي ؛ باعتبار أنه سيكون ملائمًا للجميع أن يموت السجين وهو في الحبس . وبعيداً عن الجانب الأخلاقي - رغم أن ماكس كان شرطيًا صاحب ضمير- كان المطلوب منه أن ينحي القانون جانبًا . في حالة طرح أسئلة ، ماذا سيكون رده عليها؟ هل يقول إنه كان يعمل وفقًا لتعليمات الحاكم؟ هذا النوع من الدفاع كان يحمل معنىً كريهًا بالنسبة لشخص - وإن لم يكن كبيراً في السن لدرجة مشاركته في الحرب ضد ألمانيا النازية - إلا أنه قرأ عن الرجال الذين برروا الأعمال غير الشرعية التي ارتكبوها ؛ باعتبارها تمت وفقًا لأوامر آخرين. كان في استطاعته بالطبع أن يوكل أحد رجاله - بعد أن يعده بالمكافأة أو الترقية - بأن يغمد خنجراً في قلب السجين وهو نائم حتى يظل بعيداً عن الفعلة نفسها. لكن تدريبه علمه أن المهام الكريهة هي التي يجب القيام بها شخصيًا، أما المهام الأخرى فيمكن إنابة آخرين للقيام بها .

دخل ماكس المطبخ ، ووضع قطعتين من البسكويت وشريحة من جبن الشيدر على طبق ، ثم حمله إلى غرفة المعيشة. زود كوبه بالويسكي ، وأضاف بعض الصودا. من ناحية أخرى، قال لنفسه - لم يكن هناك شخص آخر للقيام بدور محامي الشيطان ، ولذلك كان عليه أن يقوم هو بهذا الدور - ظروف الحياة في المشيخة مختلفة تمامًا عن تلك الظروف في أماكن أخرى ، ولذلك فالمعايير تختلف أيضا، ففي ظل الشريعة يمكن أن تقطع يد رجل متهم بالسرقة ، أو أن يُرجم بتهمة الزنى. كان سعيداً أن الشيخ منصور احتفظ بهذه العقوبات بغرض

الردع دون تطبيقها فعليًا. حتى العقوبات بالسجن كانت نادرًا ما يتم الحكم بها، والأجانب المتهمون بسوء السلوك كان يتم شحنهم إلى بلادهم الأصلية. "لماذا نطعم مجرميهم؟" كان الشيخ منصور يعقب ، وكانت هناك حجة أخرى أيضًا - كان الحاكم قد أشار لها ، وهو يدرك أنها ستؤثر على قائد الشرطة - وهى أن السجين سيتم تجنيبه معاناة إجراءات المحاكمة ثم الإعدام. ألن يفضل السجين نفسه، إذا أتيحت له فرصة الاختيار، مجرى الأحداث نفسه الذى اقترحه الحاكم؟ بل أليست هناك طريقة يتاح فيها للسجين بأن يختار بنفسه بديلاً ، الانتحار؟

نظر ماكس لساعته بضع ثوان طويلة ، وفوجئ أن الساعة أصبحت الحادية عشر إلا عشرين دقيقة فقط. السجين يكون قد أتم صلاته الأخيرة، وساعة الاستيقاظ فى السجن كانت مبكرة. فى هذه الساعة إذن من المؤكد أن السجين فى نوم عميق. قام واقفًا، ودخل غرفة النوم ، وأخذ كاتم الصوت من مكانه فى قاع الدرج حيث ظل راقدًا لسنوات طويلة.

عاد إلى غرفة المعيشة ، وثبت كاتم الصوت فى المسدس ، ثم وضع المسدس فى جيب سترته القطنية.

ركن السيارة اللاند- روفر تحت الحوائط الطينية الطويلة للمبنى الذى بدأ حياته كإحدى القلاع التى بناها "البوقرقى" البرتغالى، ثم مشى باتجاه البوابة الخشبية المصفحة بالحديد. نهض الحارس واقفًا على قدميه لصق الدكة التى كان جالسًا عليها مع رجل آخر، وأوقف الأغنية

المصرية الشعبية الرائجة ، التى كانت تصدر من الراديو الترانزيستور الموجود بجواره. بعد أن أدى التحية خبط على البوابة ، وأبلغ زميله عن حضور القائد .

حدق ماكس من خلال الضوء الخافت إلى الرجل الذى فتح البوابة وتعرف على عبد الودود، الرجل السمين والمرح الذى جاء من زنجبار وقبل شاكراً الخدمة فى قوة الشرطة المحلية بعد عدة سنوات من العمل الشاق على ظهر المراكب ، التى كانت تجوب البحار بين الخليج والساحل الشرقى لأفريقيا.

"أعطنى مفتاح غرفة السجين."

سلم عبد الودود المفتاح له ، واستعد لمرافقة القائد. "لا، ابق هنا – لن أتأخر طويلاً".

كان زيد موضوعًا فى زنزانة صغيرة فى الطرف الأخير من القلعة ؛ فى حين كان باقى السجناء – وعددهم الآن يبلغ حوالى العشرة – يحتلون غرفة كبيرة تفتح مباشرة على الفناء الرئيسى ، والذى كان زيد يمضى فيه الفترات المخصصة للرياضة.

وقف ماكس لبرهة فى المكان المفتوح ، ورفع نظره إلى القمر الذى قارب البدر ، والذى كان يلقى بظلاله على الأعمدة الخشبية التى اصطفت بامتداد الجانب البعيد من الفناء . تردد عند باب الغرفة ، ثم أدخل المفتاح بدون صوت ودخل. فتح الباب على مصراعيه ورأى من خلال الضوء القادم من الشباك الصغير ذى القضبان هيئة رجل أمامه

وهو يصلى ووجهه متجهًا ناحية القبلة ، كان زيد راكعًا ، ويديه على فخذيه. أنهى صلاته سريعًا ورفع يديه بالدعاء ثم مسح على وجهه.

"أهذا أنت، صاحب؟"

"المفروض أن تكون نائمًا الآن،" قال له ماكس ذلك وأغلق الباب . اجتاز الفناء مرة أخرى وهو يسير عائدًا ناحية البوابة ، واستنشق هواء الليل – الذى أحس فجأة أن رئتيه تواقتان إليه. وضع يده على المسدس – الذى أحس بثقله فى جيبه.

"كان السجين يصلى،" قال لعبد الودود. تذكر من دراسته للإسلام أن الأتقياء كانوا يؤدون صلوات إضافية ليلاً زيادة عن صلوات الفروض الخمسة . لا شك أن ظروف زيد دفعته للإكثار من الصلاة.

سأل عبد الودود: "هل هناك ما أقوم به؟"

بغت ماكس للحظات من السؤال ، ثم تماسك ورد قائلاً: "ليس هناك ما تقوم به الآن عبد الودود."

فى الخارج انتفض الحارس واقفًا ، وكان يبدو أن الرجل الجالس بجواره يشيح بوجهه جانبًا.

بعد أن ألقى ماكس عليهما التحية اتجه إلى سيارة اللاند-روفر وقادها عائدًا إلى منزله.

* * *

رغم أن ماكس كان مرهقًا إلا أنه كان يعلم أن النوم سيراوغه. فهناك الكثير الذى لم يحسم بعد ويحتاج إلى تفكير. شعر مثلما لم يشعر من قبل طوال سنوات خدمته لدى الشيخ منصور بأنه عند مفترق طرق. كان مصدر قلقه الوحيد من قبل هو حتمية تقاعده يومًا ما من وظيفة يستمتع بها ، وأصبحت تمثل بالنسبة له نمط حياة. لم يكن لديه بيتًا فى إنجلترا باستثناء منزل شقيقته ؛ حيث كان ابنه يمضى إجازاته من المدرسة الداخلية ؛ فأم الولد التى تزوجها زواجًا قصيراً وغير مرض كانت قد ماتت منذ زمن طويل. كان ماكس يعود إلى إنجلترا خلال أشهر الصيف ، ويذهب هو والولد فى إجازة: إما مع بعض زملاء المدرسة فى رحلة بحرية فى نهر "سيفرن" ، أو للصيد فى إسكتلندا ، أو فقط مجرد البقاء مع أخته فى منزلها الصغير. أما مؤخراً فقد أصبح الولد بعد أن كبُر يلحق بأبيه فى المشيخة لقضاء عيد الميلاد ، وكانا يذهبان معا للصيد على أحد مراكب الحاكم ، أو يظلان حتى الفجر عند بركة ماء انتظاراً لطيور القطا. كانت حياة موحشة - كما كان يقول لنفسه - ولكن هكذا أصبحت دون أن يظهر أبداً أى بديل لها.

والآن، هل كان مستعداً للتخلى عن كل هذا ، وتقديم استقالته؟ من أين سيجد المال للإنفاق على تعليم ابنه باهظ التكاليف؟

هل كانت الأمور ستتغير إذا كان قد وجد السجين نائمًا عندما زاره؟ هل كان فى استطاعته حينذاك أن يضع المسدس على رأسه؟ كان قد وجد استحالة فى أن يفعل ذلك والرجل يصلى ؛ فرغم أنه لم يكن متدينًا كان يحمل قدراً من الاحترام للمتدينين.

نظر إلى ساعته ، ووجد أنها تجاوزت منتصف الليل. أيقن وهو يخرج المسدس من جيبه ويضعه في الدرج أنه لن يستخدمه هذه الليلة ، أو في أي وقت آخر. كانت البدائل المتاحة أمامه محصورة في تقديم استقالته ، أو عمل الترتيبات اللازمة لإعدام السجين بشكل رسمي .

سمع وهو يجتاز الغرفة لإطفاء النور في غرفة المعيشة صوت نقر على النافذة . أطفأ النور ، وسار بهدوء في اتجاه الصوت . رأى – وهو يحدق في ظلام الليل – الشرطي الذي كان يقوم بخدمة الحراسة الليلية في منزله ، وفي صحبته أحد حراس الحاكم.

"صاحب،" قال الشرطي معتذراً، "رأيت أن النور لديكم لازال موقداً وسموه..."

"الحاكم يريدك،" تدخل الحارس. "هو لا يزال جالساً".

"اذهب وأخبره أنني قادم".

أغلق ماكس النافذة ، وجلس لثوان طويلة في الظلام. لم يسبق أن استدعاه الحاكم في مثل هذه الساعة المتأخرة من قبل. أحس أن الحاكم تم إخباره بما حدث – أو بما لم يحدث – خلال زيارته للسجن، تذكر الرجل الذي كان جالساً مع الحارس عند بوابة القلعة. ألم ير هذا الوجه من قبل في القصر من بين الحراس الأجلاف المرتدين للأحزمة العريضة للكتف التي يوضع فيها الرصاص؟

كان الحاكم في مجلسه الخصوصي الصغير المطل على البحر. نظراً لتأخر الساعة تنازل الحاكم ، ولبس الغُترة بدون العقال. أعطى

ذلك للحاكم مظهراً أقل رسمية وأقل حدة: كان هناك شيء يكاد يكون خيراً في الوجه ذي اللحية ، الذي كان يبدو الآن أكثر طولاً وأكثر زهداً. شعر ماكس بالحزن والحاكم ينهض على قدميه وهما يتصافحان. تم تحضير طقوس فنجان القهوة فوراً ، وتم شربها في عجلة.

" والسجين، مستر ماكس؟" سأل الحاكم بابتسامة ملتوية، "هل نجحت في تنفيذ ما اتفقنا عليه؟"

"لا سموكم،" رد ماكس باقتضاب. " مع كل احترامي أعطيت لنفسي حرية أخذ كلامكم باعتباره اقتراحاً وليس أمراً ، حيث شعرت أنه ربما يكون من الأفضل أن تأخذ العدالة مجراها."

"ربما وجدت أنه ليست لديك الرغبة في القيام بهذه المهمة؟" قال الحاكم معبراً عن رأيه ، وهو يلقي نظرة جانبية سريعة على قائد الشرطة. عندما رأى أن ماكس ظل صامتاً استمر قائلاً

"لو أنك نفذت ما ناقشناه سوياً لكانت الأمور أصبحت أكثر سهولة، ولما كان هناك داع للقائنا في هذه الساعة المتأخرة. لكنني أحسست أن الأمر ربما لا يلقى قبولاً لديك فأنت - مثلي - رجل يحاول تفادي العنف." نظر سريعاً إلى ماكس بفضول ، ثم بدأ يبحث في الثنايا الكبيرة الفضفاضة لعباءته. كان يبحث فقط عن مسبحته ، وبعد أن وجدها أكمل دورة تسبيح بأكملها دون أن يتكلم، ثم حدّق من النافذة في الظلام قبل أن يعلق بشكل عرضي "أفكر في إمكانية السماح للسجين بالهرب. يمكنه حينذاك أن يعود إلى بلده ، ويقرر الله أين ومتى يموت."

"كما يرى سموكم "، رد ماكس وهو يأمل أن تكون نبرة صوته عارضة أيضًا. كان لا يكاد يصدق أذنيه ، ولكنه حرص – من خلال الخبرة – على ألا يقفز إلى أية استنتاجات.

"ولكن هل سيصدق الناس هذا، سموكم؟" وجد نفسه يقول معترضًا .

أظهر الحاكم أنه يحاول إخفاء ابتسامة، ثم مرر أصابعه فى لحيته ، التى يغزوها المشيب. "هل سجننا يتمتع بحراسة لا تسمح لأحد أن يهرب منه؟ هل الحراس بهذا القدر من اليقظة؟ أعتقد أن عبد الودود ينام بعمق أكثر من السجناء المفترض أن يحرسهم؟ أليسوا قابلين للرشوة؟"

رد ماكس." من المعروف أن السجين ليس إلا شرطيًا بسيطًا لا يملك المال".

"ألم يستقبل أى زوار؟"

"لا، طال عمرك. ظننت أنه من الأفضل بالنسبة له عدم الاتصال بالعالم الخارجى."

"ولا أية خطابات؟"

"تلقى خطابًا من والده فى عمان منذ بضعة أيام،" اعترف ماكس.

"وهل فتحته قبل أن تسلمه له؟"

هز ماكس رأسه بالنفى. "ربما كان يجب على أن أفعل ذلك."

"ألم يكن من الممكن أن يحتوى الخطاب على نقود؟ لحد علمنا والد السجين قد يكون تاجراً ثرياً فى مسقط." ابتسم الحاكم لماكس منتصراً بعد أن أكد وجهة نظره. "أنا أحاول فقط أن أبين أن الهروب من القلعة ليس مستحيلاً."

رد ماكس بإيماءة من رأسه.

"وإذا قررنا أن نسمح له بالهرب ، فعلينا أن نقدم على خطوة إضافية لمساعدته فى الهرب" كان الحاكم يبتسم ابتسامة واسعة ، ومن الواضح أنه كان مستمتعاً للغاية.

سأل ماكس "و كيف سيكون ذلك، سموكم؟"

"بالذهاب إلى السجن قبل طلوع النهار ، وإخراج السجين معك."

"والحراس؟"سأل ماكس – وهو غير مصدق – رافضاً قبول فحوى ما يقوله الحاكم.

هز الشيخ منصور رأسه ببطء من جانب إلى آخر كأنه فجأة وجد نفسه أمام شخص أبله يصر على عدم الفهم.

" وكيف كنت تعتقد – فى حالة موت السجين فى زنزانته–أنك ستقنع حراسك ليس فقط بالسكوت على الموضوع ، ولكن بتهريب الجثة ودفنها سراً؟"

تفرس ماكس ، الذى كان غير قادر على الرد على سؤال الحاكم الافتراضى فى عيون الشيخ منصور المحدقة.

"كل ما هو مطلوب الآن هو ألا يتكلم الحراس. هناك طرق لتشجيع الرجال على السكوت ، وطرق أخرى لإثنائهم عن فتح أفواههم." دس الشيخ منصور يده تحت الوسادة التى بجانبه ، وأخرج ظرفين ، وبين لماكس أن بهما نقوداً . "مبلغ صغير ، ولكنه يمثل بالنسبة لهؤلاء الرجال مرتب عدة أشهر. قل لهم – على ما أعتقد هناك شخص يدعى أحمد خارج البوابة ، وعبد الودود العجوز فى الداخل – قل لهم إن هذه الأموال منى شخصيًا ، وأنها ثمن لسكوتهم." لعق لسانى المظروفين . ثم أغلقهما بضربه من قبضته قبل أن يسلمهما لماكس. كان يزين ظهرى المظروفين شارة الحاكم على شكل خنجر مزخرف يمر عبر هلال وكلمات "مكتب الحاكم". "قل لهم إن الأموال منى شخصيًا ، وإن عقاب عدم طاعتى سيكون سريعًا ومؤلمًا."

"نعم، سموكم،" قال ماكس وهو يطوى الظرفين ويضعهما فى الجيب الجانبى – حيث كان قد وضع المسدس من قبل.

وكأنه قد أتم كل ما يريده جلس الحاكم إلى الوراء وحدّق فى ماكس. "ألست راضياً؟" سأله بابتسامة متسائلة.

"طبعًا، طال عمرك، ولكنك لم توضح لى كيف سيهرب السجين، فقط إننى سأذهب إلى السجن وأخرجه منه."

"لا تقلق. لقد رتبت كل شىء،" طمأنه الشيخ منصور. "طالما تم ضمان صمت الحراس يمكنك الذهاب إلى السجن قبل الفجر –" وأخرج من جيب داخلى ساعة معدنية كبيرة بسلسلة ونظر إليها . "نعم أعتقد

أنه لا جـدوى الآن من أن تنام ، ولكن غـداً يمكنك النوم طوال النهـار. اذهب إلى السجن قبل الفجر بقليل. خذ السـجين مـعك فى سيـارتك ، واتركه فى مكان ما فى إحدى حوارى السوق. يمكنه أن يجد طريقه من هناك إلى المرسى فى الميناء . لن يكون هناك أحـد فى هذه السـاعـة من الصباح. ابلغه أن كل الترتيبات قد تم اتخاذها لكى يعود إلى بلده. عند المرسى سيجد مركبًا عمانيًا متجهة إلى "سحار". ستبحر مباشرة بعد أن يركب على متنها. تكاليف سفره مدفوعة. سيتم إنزاله فى ميناء عُمانى ، ومن ثمه سيكون عليه أن يجد طريق العودة إلى بيته. بعد إتمام ذلك مستر ماكس يمكنك أن تذهب إلى الفراش ، وأنت تعلم أن مشكلتنا قد تم حلها بشكل معقول. لنتقابل ثانيًا غداً بعد صلاة المغرب."

تسـاءل مـاكس بصـوت عـال ، والشكوك لا تزال تراوده "وأقـارب الرجل الميت ؟"

"لقد فكرت فى طرق لتعويضهم،" أجابه الحاكم.

قال ماكس محتجاً."ولكنهم كما نعلم يريدون الدم وليس الدية".

"اترك لى هذه التفاصيل ،" قال الحاكم بنبرة باردة تدل على أنه لا يريد مناقشة الأمر أكثر من ذلك .

"يمكنك أن تذهب".

"لك منى جزيل الشكر سموكم،" غمغم ماكس وهو يقف على قدميه.

"الحمد لله،" أجاب الحاكم بشكل آلى. "فى يده ملكوت السماوات والأرض."

حدّق ماكس وهو يفتح باب سيارة اللاند - روفر فى سواد القصر الضخم الرابض خلف إشراقة السماء. رأى بعد قليل مجلس الحاكم يغمره نفس الظلام الذى يغمر بقية القصر. جلس لبعض الوقت أمام عجلة القيادة ، وتأمل ظروف التحول فى حظه - وفى حظ السجين. رغم أنه كان يعتقد معرفته جيداً بالحاكم، إلا أنه اعترف لنفسه أنه أثبت بشكل مثير للدهشة صعوبة التنبؤ بقراراته . حدث نفسه قائلاً بضرورة ألا يسلم جدلاً بعدم وجود مفاجآت أخرى فى انتظاره .

* * *

بعد بضع ساعات ، ولكن فى وقت مبكر عن الذى كان قد اقترحه الحاكم عاد ماكس إلى القلعة .

وجد هذه المرة الحارس وحيداً عند البوابة. وقف الرجل ، وأدى التحية العسكرية ووضع ماكس يده على كتفه.

"أحمد، سأقوم بزيارة أخرى للسجين، ولكن هذه المرة سآخذه معى. هل تفهم؟"

نجح أحمد فى السيطرة على دهشته . "نعم، صاحب."

"ليس من شأنك أن تعرف إلى أين آخذه أو السبب."

"لا، صاحب."

"كل ما عليك أن تعرفه أننى أقوم بذلك بأوامر من سمو الشيخ منصور. عندما تسأل عن أحداث هذه الليلة - ومن المؤكد أنك ستسأل

حولها – سواء منى أو من غيرى ، أو ربما من الحاكم نفسه وكذلك فى مقاهى المدينة – ستقول إنك لا تعلم شيئًا سوى أننى جئت إلى السجن مرة واحدة هذه الليلة، وأننى زرت السجين ثم انصرفت وحيداً. وحيداً، هل فهمت؟!"

"نعم صاحب."

أخذ ماكس من جيب معطفه واحداً من المظروفين ؛ اللذين أعطاهما إياه الحاكم ، وأمسكه عاليًا. "هذا المظروف به مكافأة لك من الحاكم نفسه." ارتفعت يد الحارس لتأخذه لكن ماكس ظل ممسكًا به. "هذه مكافأة مقابل سكوتك. هل تفهم؟"

نعم، صاحب."

"إذن قل لى ماذا حدث الليلة."

"جئتَ مرة واحدة للسجن من أجل زيارة السجين ثم انصرفت."

"هل كان هناك أحد معى عندما انصرفت؟"

"لا صاحب، كنت وحيداً."

"فى هذا المظروف توجد المكافأة مقابل سكوتك . إذا أخذت المكافأة، وسمحت للسانك بالحديث عن حقيقة ما جرى هذه الليلة ، فالحاكم سيعمل على أن يتم إسكاتك إلى الأبد."

فك قبضته عن المظروف ، وأبلغ الرجل أن عبد الودود سيتم مكافأته أيضًا. دق الحارس على البوابة، ومر ماكس إلى داخل السجن.

"جئت مرة أخرى لأرى السجين،" قال موضحاً لعبد الودود، "لكن هذه المرة سآخذه معى إلى الخارج،" ثم كرر نفس الكلام مع عبد الودود

"لا تتحدث حتى مع أحمد حول أحداث الليلة،" قال له محذراً. "هذا سر بينكما ، وبين الحاكم وبينى."

لم يحاول ماكس هذه المرة عدم إحداث صوت وهو يفتح زنزانة زيد. شكل الشخص الموجود فى الركن أسفل الشباك لم يتحرك. تحسس ماكس طريقه ماراً بجوار المائدة ، وأمسك بكتفى السجين ، وأحكم قبضته تدريجياً.

"ألن تطلق الرصاص ، صاحب؟" خرج صوت زيد من الظلام. "فكرت أن أسهل عليك الأمر بأن أتظاهر بالنوم ؛ لأنه من الصعب على أى رجل أن ينام وهو يشعر أنها آخر ليلة له."

"لقد قضى الله أن موتك لم يحن بعد،" أجابه ماكس. "قف - سنرحل سوياً خذ ما تريده من حاجاتك ، وتعال معى."

"ليس لدى ما أريده سوى خطاب أبى والمصحف الذى أهديته لى. إلى أين ستأخذنى؟"

"إلى الأمان، إن شاء الله."

"هل تفعل ذلك ضد أوامر الحاكم؟ يجب أن أسألك ذلك."

"لا، لا تقلق، فأنا أتصرف وفقاً لتعليماته."

"إذن لن تكون هناك محاكمة؟"

لا، الحاكم قرر أن تعود إلى بلدك."

"و كيف يكون ذلك؟ لماذا يرتب الحاكم للإبقاء على حياتى؟ فأنا بالنسبة له لست إلا أجنبيًا قتل أحد رعاياه ، ومن ثم يجب أن أدفع حياتى ثمنًا لذلك. وماذا عن الحراس؟"

"لقد تم إعطاؤهم مالاً مقابل سكوتهم."

"وأقارب الرجل؟" أصر زيد. "الشرف يتطلب دمى."

"لقد تولى الحاكم أمر ذلك أيضًا،" طمأنه ماكس

ظل زيد ، وهما يسيران عبر الفناء الخارجى باتجاه البوابة غير مصدق للتحول فى الأحداث ، وظل يطرح الأسئلة.

"وأنت صاحب، هل ستتحمل مسئولية هروبى؟"

صمت ماكس لبرهة قبل أن يجيب. "لم أفكر كثيراً فى هذا الأمر. من المفروض أن أقوم باستجواب جميع الذين لهم صلة بالموضوع ، ومن المفترض أننى سأصل إلى نتيجة تنتهى إلى أنه كان هناك قدر من الإهمال من قبل الشرطة ، وأن السجين أظهر قدراً كبيراً من البراعة. إننى على الأقل أطيع أوامر الحاكم نفسه. ولكن هيا بنا – ليس أمامنا وقت كثير قبل طلوع النهار."

أدى الحارسان التحية لقائد الشرطة وهو ينصرف وبصحبته السجين .

أدرك ماكس وهو يقود السيارة بين بساتين النخيل غير الكثيفة والتي كانت تفصل القلعة عن ساحل البحر والمدينة ، أنه قد ترك سؤالاً هاماً بدون إجابة.

"هل تعرف قيادة السيارات، زيد؟"

"كنت أتلقى دروساً عندما حدث ما حدث. لم أحصل على رخصة قيادة بعد، صاحب."

أطلق ماكس ضحكة. "زيد أنا لن ألقي عليك القبض مرة أخرى بتهمة عدم حيازة رخصة قيادة. أنا فقط أريد أن أعرف إذا كنت تستطيع قيادة هذه السيارة."

"بدرجة كافية صاحب."

"وهل تعرف طريقك إلى الحدود؟"

"خلال الأسابيع الأولى التي أمضيتها كشرطي كنت أحد الحراس عند مخفر الحدود."

"الزم الجزء الداخلي من البلاد ، واترك السيارة على مسافة ميل أو نحو الميل من الحدود ، واعبر على قدميك. قد السيارة سريعاً ؛ لأنني بعد آذان الفجر سأبلغ مركز الشرطة أن السيارة مفقودة ، وكافة مخافر الحدود ستوضع في حالة انتباه بشكل آلي. عند وصولك الأراضي العمانية سيكون عليك أن تجد طريقك إلى بلدتك."

"والسيارة صاحب؟"

"إذا تم الإمساك بك قل إنك سرقتها . قل إننى أخذتك من السجن وفى أثناء قيادتى بك فى اتجاه السوق نجحت فى التغلب على ؛ ودع المفاتيح فى السيارة عندما تتركها."

تصافح الرجلان بشكل رسمى ، وسحب ماكس يده بعيداً عندما انحنى الآخر ليقبلها.

"فى حماية الله،" قال ماكس وهو يقدم التحية التقليدية، ثم أضاف: "و لا تنس زيد أنه بدون سمو الحاكم لما كان باستطاعتى القيام بما قمت به لا تنساه فى صلواتك."

"سأفعل ذلك،" قال زيد وإن كان واضحًا من نبرة صوته عدم اقتناعه باهتمام الحاكم بسلامته.

راقب ماكس الأنوار الخلفية للاند - روفر وهى تختفى عن الأنظار على الطريق فى اتجاه الحدود الجنوبية. فى ليلة أخذ الضوء يزداد فيها بشكل سريع ، انطلق متعباً فى رحلة الميلين عائداً إلى منزله سائراً على الأقدام

* * *

فوجئ الحارس عند ظهور قائد الشرطة سائراً على الأقدام فى العتمة رد ماكس تحيته وسار عابراً الحديقة إلى داخل المنزل. أضاء مصباح المائدة وسقط فى المقعد . خاف أن ينام فى مكانه ، فقفز واقفاً ، ودخل غرفة النوم ' حيث أخذ من رف المزينة مفتاح السيارة الصغيرة التى يستخدمها خارج مواقيت العمل الرسمية. لاحظ أن يده ترتعش من التعب ، لكن فضوله أرغمه على القيام بجولة أخيرة قبل أن يستمتع بالنوم الذى وعده به الحاكم.

الفجر كان سينقشع قريبًا على الواجهة البحرية. الآذان الأول لليوم، والذى يتضمن مقولة إن "الصلاة خير من النوم" سينطلق صداه قريبًا قادمًا من المئذنة الرفيعة للمسجد البسيط الأبيض ، والذى يستخدمه الصيادون ، والبحارة الزائرون. على رصيف الميناء ، وإلى جانب المراكب المختلفة الراسية كانت تظهر أشكال الرجال وهم يجلسون القرفصاء ويقضون حاجاتهم، وعلى ظهر المراكب كان آخرون يدفعون مكابس مواقد "الجاز" لإعداد الشاى المحلى جيداً بالسكر ، وينفخون سحبًا من الدخان من أولى مباسم النرجيلة لهذا اليوم اختلطت روائح الواجهة البحرية مع روائح حمولة المراكب: البهارات، الليمون المجفف ، مسحوق السمك المصدر لاستخدامه كسماد ، ورائحة زيت الديزل المنتشرة فى كل مكان. كانت مركبة ضخمة تحمل العلم العمانى تستعد للإبحار ، وظهرها مثقل بعدة طبقات من الكراتين التى تحمل علامة الشمسية الصغيرة وعبارة " الاتجاه إلى أعلى ".

حيا ماكس الرجال على المراكب وهو يقود ببطء على طول المرسى حتى وصل إلى المراكب الواقفة إلى جانب المرسى. وقف الرجل الذى كان من الواضح أنه قبطان المركب وذراعاه مطويتان على صدره تحت ذقنه البيضاء المشعثة ، وعلى رأسه عمامة كبيرة من الطراز العمانى .

"السلام عليكم،" حياه ماكس.

"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته".

" أأنتم مسافرون؟"

"إن شاء الله" .

في أمـان الله،" رد مـاكس وهو يشـعـر أن وجوده المسـتـمر أصـبح مـحرجًا. ثم ألقى بنظرة سريعة وراء القبطان ، ورأى ما كان يتوقـع أن يـراه. اثنان من حراس الحـاكم وهما جالسان واضعان ساقًا على ساق بجوار غرفة المحرك وبنادقهما ممددة على ركبتيهما . لاحظ وهو يتراجع إلى الوراء خارجًا من عند المرسى أن هناك حارسين آخرين واقفان في ظلال قهوة مهجورة تواجه البحر.

مع اختـراق صوت الآذان للصـمت بدأ بعض الرجـال يتوقـفون عن أعمـالهم على متن المركب ، ويتـوجـهـون إلى الجـامع. ظل القـبطان في مكانه ، وعلى وجهه عبوس حائر.

أمـا بالنسبـة لماكس فلم يتبق له سوى أن يذهب إلى مركز الشرطة ويقدم بلاغًا حـول سرقة سيـارة اللاند - روفر ويكون بعدهـا حرًا للعودة إلى بيته وسريره.

* * *

كان مزاج الحـاكم سيئًا للغاية وهو في المجلس المفتوح بعد صـلاة المغرب عندما ظهر قائد الشرطة قام أحد التجار المحليين وترك له المكان المجاور للحـاكم. تبادل مـاكس والشـيخ منصـور التـحيـة الواجـبة ، ولكن عندما أقبل من يقوم بتقديم القهوة لوح له بخشونة للابتعاد .

"قـيل لي إن السـجين تمكن بشكل مـا من سرقـة سيـارة اللاند - روفر وقـادها إلى الحدود العمانية. هل هذه التقـارير صـحيـحة؟" لم ينتظر

الحاكم الإجابة ، بل استمر فى الحديث بصوت خفيض ، حتى لا يسمعه رواد المجلس المزدحم. "ألم يكن الأمر مرتبًا بيننا أنك ستقود السجين إلى السوق حيث سيجد من هناك طريقه إلى المرسى ، ثم يأخذ المركب التى أبحرت هذا الصباح إلى "سوحار"؟ كيف أمكنك أن تسمح بسرقة السيارة؟"

"كنت فى طريقى إلى السوق مع السجين كما أمر سموكم عندما – وأرجو المعذرة لذكر مثل هذا الأمر – اضطررت للوقوف دقيقة للتبول..."

"للتبول؟" صرخ الحاكم بصوت أعلى مما كان يقصد لدرجة أن بعض الناس المنتظرين لمقابلته نظروا إليه فى دهشة.

"كان إهمالاً منى سموكم،" قال ماكس بصوت خافت، "ولكن لم يخطر لى أن السجين يعرف القيادة. ولكن لم يضع شىء، طال عمرك. أبرقنا فوراً إلى مركز الحدود ، وتم استعادة اللاند–روفر بدون أن تصاب بأى ضرر."

"ياه، هذه فعلاً أخبار ممتازة،" علق الحاكم وهو يلجأ لأول مرة، حسب علم ماكس ، إلى السخرية.

"الحمد الله،" استمر ماكس وهو يتجاهل تعليق الحاكم، " لم يحدث أى مكروه وكل شىء تم كما أراد سموكم. كل ما هنالك أنه فى حين خطط سموكم لكى يهرب السجين عبر البحر، اختار الله سبحانه أن يذهب عبر البر."

"الله؟" تساءل الحاكم وحواجبه الكثيفة تتقلص فى عبوس عميق. للحظات خاف ماكس من مشاهدة الحاكم لأول مرة وهو يفقد أعصابه. لكن الشيخ منصور تمالك نفسه سريعًا. "معك حق، مستر ماكس - كل شىء تم على ما يرام"- وصفق الحاكم طالبًا القهوة التى ستنهى اللقاء .

(٣)

مصير صيد فى بيروت

أنزل تيرى ورال الكاميرا عن كتفه وأسندها على الباركيه المكسر ، الذى كان يومًا ما أرضية المدخل لواحد من أغلى فنادق بيروت كان متين البنية، شعره قصير مائل إلى الحمرة ، وبه بعض الشيب ، وله شارب رفيع . وقف ويداه فى وسطه ، وألقى نظرة على السلالم الملتوية.

"أعتقد أنه ليس هناك مجال للأمل فى أن تكون المصاعد لا تزال تعمل"

رد عليه مبتسمًا الشاب الذى كان يضع حول عنقه سلسلة ذهبية، واسم " Nabeel" يرقد فى شعر صدره الأسود.

رفع تيرى ورال معداته بجهد وقال: "هيا بنا".

كان نبيل قد كلف بإرشاده إلى الفندق ، وبمعاونته فى اجتياز اثنين من حواجز الطرق فى أمان.

كانت الفتاة التى تسمى نفسها جوى قد قدمته له مساء البارحة باعتباره أخيها. على أية حال لم يكن مهمًا من هو مادام يعرف طريقه وقادراً على توصيله للغرفة رقم ٨١٤ .

لم يمض تيرى فى بيروت هذه المرة سوى عشرة أيام ، ولكنه أنجز خلالها عملاً كثيراً وأجرى اتصالات عديدة ، وصور بضعة آلاف من الأقدام من المشاهد المهمة ، التى سيتم معالجتها عند العودة إلى الوطن. كان قد ذهب إلى المستشفيات وصور لقطات مع الأطباء وهم يجرون عمليات جراحية فى ظل ظروف بدائية، ولأمهات وأباء وزوجات وأزواج يعبرون عن حزنهم بشكل لا يمكن أن يقوم به أى ممثل محترف، لمدافن جماعية، لجثث يتم سحلها خلف السيارات فى شوارع المدينة، لكافة الممارسات الوحشية التى يمكن للإنسان أن يقوم بها فى حرب أهلية. فيما بعد ستأتى الساعات الطويلة من العمل الملئ بالتفاصيل الدقيقة فى غرفة المونتاج ، حيث يتم تحويل كافة الأجزاء المنفصلة إلى قصة مترابطة منطقياً ، وإلى كل متماسك يمكن بثه على شاشات العالم أجمع. كان سيقوم بكتابة التعليق أيضاً، فكان يرى أنه بعد زياراته العديدة إلى لبنان ، وحجم القراءات التى قام بها حول الموضوع أصبح ملماً إلماماً جيداً أفضل من غيره بهذه الحرب الملفقة . كان واثقاً من أنه توصل إلى صورة واضحة بقدر الإمكان لحرب تصعب رؤيتها من منظور الأبيض والأسود ، أو المسيحى والمسلم ، أو الطيب والشرير، حتى أنه كان من الصعب تحديد عدد الأطراف المتصارعة داخلها ، فهى بالتأكيد كانت أكثر من الخصمين المعتادين فى معظم الحروب

كان يعتقد أيضاً أن المادة التى نجح فى تصويرها ستتحول إلى فيلم من النوع الذى بنى عليه سمعته فى "واردور ستريت" ، وهى سمعة

جلبت له المؤيدين المستعدين لتقديم التمويل اللازم لأى مشروع يفكر فيه. مرة أخرى سيكون قد أنجز فيلمًا يقدم معلومات عارية دون أن يرحم أى طرف. ولكن خلال مراجعته لمذكرات الكاميرا أحس أنه رغم شمولية المادة إلا أنها كانت تفتقر إلى اللقطة المتفردة القادرة على تمييز الفيلم الوثائقى بأكمله عن غيره من الأفلام التى يمكن تصنيفها باعتبارها وافية فقط ، ولذلك نجح خلال ليلة البارحة فى بار صغير متفرع من شارع الحمراء - بعد أن استغل عملية تعارف سابقة - فى عمل الاتصالات والترتيبات اللازمة .

تم إبرام الصفقة بالدهاء اللبنانى التقليدى بما فيها ضرورة دفع المطلوب بالدولار ومقابل ذلك كان المفروض أن يحصل على لقطة لشخص يُقتل برصاصة قناص - على أن يكون هذا القناص امرأة شابة جميلة .

كانت أجزاء من درابزين السلالم المغطاة بالسجاد قد انفصلت عن الحائط الملئ بالحفر نتيجة الطلقات ، كانت دليلاً على المعارك الشرسة التى جرت من بيت إلى بيت ، والتى سبقت سقوط المبنى فى أيدى المجموعة التى تحتله الآن ، والتى أصبحت تسيطر من خلاله على تقاطع حيوى فى المدينة.

توقف نبيل فى الطابق الخامس وأشعل سيجارة. لم يقدم واحدة للإنجليزى ، فقد سبق أن أشار بفظاظة فى الليلة الماضية إلى أنه لا يدخن. مرة أخرى أنزل تيرى المعدات عن كتفه وأسندها على الأرض ،

وظل ممسكًا بالأحزمة فى يده. كان تعبير وجهه ينم عن ازدراء للشاب الذى احتاج إلى استراحة فى طريق الصعود ؛ فالإنجليزى كان يتفاخر بأشياء كثيرة ، ومن بينها لياقته البدنية.

"يبدو أنه كان مكانًا فخمًا،" قال وهو ينظر عبر الممر إلى الأبواب المرقمة الممتدة أمامه. فى نهاية الممر انتصب بانيو مشروخ لونه وردى ، وبيديه من نفس اللون. كان هناك رجل يجلس منفرج الساقين بجانب البيديه ، وبندقيته تستند على البانيو المقلوب. لوح بيده لنبيل وصاح له بشىء ما. خمن تيرى أن الرجل يسأل عنه. عندما رد نبيل قال الرجل، "مرحبًا،" وابتسم لتيرى ابتسامة آلية . سحق نبيل السيجارة تحت قدميه وبدأ صعود السلالم مرة أخرى. رفع تيرى المعدات على كتفه وتبعه. فى الطابق الأخير سار نبيل نحو باب يحمل رقم ٨١٤ ، ويقع فى مواجهة السلالم مباشرة، نقر على الباب وأعطى اسمه.

لم يكن الباب مقفلاً فانفتح. قال نبيل شيئًا بالعربية ، ورد عليه صوت امرأة. دخل تيرى الغرفة وراء نبيل. كانت الفتاة التى تسمى نفسها جوى ترتدى ثياب القتال المرقشة ذات الجيوب الكبيرة والأزرار على بنطلون ومعطف واسع . كان شعرها - الذى تذكره تيرى من الليلة الماضية أسود فاحمًا وحريريًا، وقد رفعته إلى أعلى تحت قبعة مستدقة الرأس. نقلت بندقيتها إلى يدها اليسرى وهى تصافحه.

سأله نبيل: "هل أنت متأكد أنك تستطيع أن تعود وحدك؟"

قال تيرى."فقط أبلغهم عند حواجز الطرق أننى سأمر عائداً فيما بعد،" ثم أضاف :"شكراً" وأخذ ورقة نقدية من جيبه قدمها للشاب.

قال نبيل وهو يهز رأسه. "شكراً، لا داعى لذلك" ، وأحس تيرى بأنه عومل بازدراء.

تبادل جوى ونبيل بعض الكلمات بالعربية عند الباب، ثم قامت هى بإغلاق الباب بالمفتاح. كانت الغرفة تبدو فسيحة ، فلم يكن بها أى أثاث سوى أكياس الرمل المتراصة عند النافذتين المطلتين على الشارع. سار تيرى باتجاه الباب الآخر المواجه للنافذة وفتحه وطمأن نفسه أنه الحمام ضحكت وهى تشاهده.

قالت له: "لا تقلق - لا يختبئ أحد بالداخل".

رد قائلاً: "لم أكن قلقاً . لم أفكر إطلاقاً أنك تحتفظين بصديق وديع هنا فقط أحب أن أعرف إلى أين تؤدى الأبواب - إنها عادة دأبت عليها."

انتقلت جوى إلى إحدى المراتب الموضوعة أسفل النافذة ، وجلست عليها القرفصاء. أخذت علبة سجائر "شسترفيلد " من الجيب العلوى لسترتها وضربتها على كف يدها وسحبت واحدة بشفاهها.

قالت "أنت لا تدخن".

"لا شكراً."

كانت إلى جانبها سلطانية كبيرة بها أعقاب سجائر، كذلك كوب صغير مستدير مثل الذى تقدم فيه القهوة التركى، وبجواره تُرمُس.

قالت وهى تربت على المكان بجوارها على المرتبة."استرح".

"قهوة؟"

رد قائلاً "نعم، أرغب فى ذلك".

فكت غطاء التُرمُس وصبت القهوة داكنة السواد فى الفنجان. قالت "نحن لا نستقبل ضيوفنا هنا، وعلينا أن نتشارك فى الفنجان."

"لا بأس."

ترك الكوب على الأرض ونظر من النافذة - وهو راكع على المرتبة - كانت المبانى المواجهة لهم أقل ارتفاعًا بثلاثة أو أربعة طوابق ، وكان الغسيل منشوراً على الأسطح المنبسطة . كانت الحوائط عند مستوى الشارع تحمل آثار المعارك ، حيث كانت النوافذ · إما فجوات محدقة ، أو مكسوة بألواح خشبية. كانت هناك شعارات مكتوبة بخط عربى فياض على الحوائط البيضاء ، وإلى جانبها صورة تقريبية لرجل معلق من مشنقة يخرج من لسانه المنتفخ بالون باللغة العربية. كانت إحدى الحوائط قد أطيح بها لتكشف عن أحشاء المنزل الذى عاش فيه من قبل أناس ما وربما قتلوا فيه أيضاً. فى أعلى الشارع قرب التقاطع استلقت سيارة محترقة ومقلوبة كحشرة ميتة. تصاعد فوق المبانى - وفى اتجاه منطقة الميناء والبحر - عمود من الدخان الرمادى فى شكل علامة استفهام ، يشق طريقه على نحو ملتو نحو السماء الزرقاء .

قال وهو يقوم واقفًا على قدميه: " ولا حتى قطة يمكن رؤيتها فى المكان ".

قالت له: "من الأفضل ألا تقف هنا، من الصعب أن نعرف من هناك. نحن نسيطر على الشارع من هنا ، لكن أحيانًا يختبئ بعض رجالهم فى المبانى المقابلة. أما هناك فهى حدود الأعداء."

جلس بعدم ارتياح على المرتبة ، ورشف القهوة، ثم بدأ يخرج معداته.

قالت له محذرة: "قد تضطر للانتظار طويلاً".

"إذا حدث ذلك ربما تستطيعين قطع الوقت بأن تحكى لى عن نفسك. إنك تتحدثين الإنجليزية بشكل جيد..."

"والفرنسية والعربية،" ردت عليه."لا شك أنك تريد أن تعرف ماذا تفعل فتاة مثلى فى كل هذا سأقول لك: أحاول أن أعيد بيروت إلى ما كانت عليه يومًا ما – واحدة من أعظم مدن العالم."

"حسنًا، لكنها لا تكاد تكون كذلك الآن بعد الضرب العنيف الذى تعرضت له منكم جميعًا. الحروب الأهلية ليست جميلة ، ولكن الحياة هنا أصبحت رخيصة للغاية."

رفعت نظرها إليه ، وابتسمت ابتسامة لا تحمل أية ملاطفة وهى تقول "أنت تدفع السعر السائد".

سألها "إذن فالموسم مفتوح طوال السنة؟"

نظرت إليه بتعبير ينم عن عدم الفهم.

"هذا نوع من التعبيرات،" قال لها. " فى إنجلترا، من أجل حماية الحياة البرية، لدينا مواسم مفتوحة ، ومواسم مغلقة. الموسم المفتوح ؛ هو الموسم الذى يسمح خلاله باستعمال البنادق فى الصيد" .

"فهمت،" ردت قائلة. "نحن اللبنانيون طالما استمتعنا بالصيد."

قبل أن تطفئ سيجارتها أشعلت بها سيجارة أخرى.

قال لها. "أريد لقطة طويلة بقدر الإمكان".

"سأفعل أفضل ما أستطيع" ردت قائلة."لا أستطيع أن أضمن أى شىء – فلا أحد يتلقى أجراً مقابل أن يصير قتيلاً."

ضحك ضحكة ساخرة. "هذا صحيح،" قال موافقاً. "إنها مسألة حظ".

رفعت البندقية وحملتها بين كيسين من الرمل. صوبتها باتجاه الشارع ثم التفتت ناحيته. "لا أريد أن أظهر فى فيلمك هذا – هل فهمت؟ هذا ليس فى الاتفاق."

"حسنًا،" رد عليها، "لكن الجمهور يجب أن يشعر أن هناك شخصًا يقوم بإطلاق النار هنا. سأقوم بتصوير رأسك ويديك من الخلف. هل تعرفين جوى، لديك يدان جميلتان ، وهناك شىء مثير جنسياً عندما تمسك أياد مثل أياديك بندقية ."

ردت: "حسناً، ولكن اقتصر على الأيادى الجميلة." وعادت لتراقب الشارع فى الأسفل.

"ماذا تفعلين عندما لا تكونين هنا – فى المساء مثلاً؟"

ردت قائلة: "لقد رأيت بنفسك ، أجلس فى البارات ، وأتحدث مع الأصدقاء حول الحرب وحول كل ما سنفعله عند انتهائها."

قال. "و لكنك لا تشربين، ، لقد لاحظت ذلك."

"لا أحب الشرب."

"إذن ماذا تخططين عند انتهاء الحرب؟ – إذا انتهت. مشكلة الحرب أن الناس مع الوقت يعتادون عليها، بل ويبدءون فى الاستمتا ع بها ، ولا يريدون أن تتوقف "

ذكرته قائلة. "هناك أيضاً الكثير من الناس فى الخارج الذين يسعدهم استمرار الحرب".

رد قائلاً "أتصور ذلك" ، ثم بعد برهة صمت سألها مرة أخرى عما ستفعله بعد الحرب.

"إذا توافرت أموال كافية ربما أعود لإكمال دراستى فى الجامعة الأمريكية فى بيروت. ربما أيضا أستقر وأكوِّن أسرة."

"ألن تكون هذه حياة وديعة بعد كل هذا؟"

نظرت له بحدة. "لم اختر أن أقوم بهذا، كما تعرف. أحياناً يكون هذا هو الشيء الوحيد الذى يمكن القيام به ؛ إما الفرار من هنا ،

والقفز من المركب التى تغرق وبدء حياة جديدة فى باريس أو أى مكان آخر، أو البقاء والقتال."

" ومع الوقت تصبح قيمة الحياة أرخص وأرخص؟"

"أعتقد ذلك. كلنا سنموت يومًا ما، وبالتالى ليس الأمر بهذا القدر من الأهمية."

أنزلت البندقية إلى جانبها وجلست متربعة فى وضع زهرة اللوتس، وظهرها مسنود على الحائط. "بعضنا يطلق الرصاص على الناس مستر ورال ، والبعض الآخر يدفعون للآخرين ليطلقوا الرصاص على الناس ، كى يلتقطوا صورًا لأفلامهم."

"هذا يلخص الأمر الذى نحن بصدده،" قال وهو يبتسم، ثم اقترب منها على المرتبة ، ووضع يده على كتفها. "سألتك ماذا تفعلين فى المساء؟"

"وأنا قلت لك– أجلس مع الأصدقاء."

"ما رأيك فى الجلوس معى هذا المساء؟" دلكت يده كتفها برفق.

سألته بدون أى دلال . "هل أنت صديق؟"

"أحب أن أكون كذلك."

"حسنًا،" قالت وأزاحت يده عن كتفها. "لنبق الأمور فى إطار العمل فقط،" وفكت ساقيها ، وركعت حتى ترى الشارع.

"إذن موعدنا الليلة قائم؟" قال متسائلاً. "ربما يمكنك أن ترينى مكانًا لطيفًا للأكل والشرب ، أو ربما تحبين المجيء للعشاء فى فندق البريستول؟"

"سنرى،" ردت قائلة. "لا أحب أن اخطط مقدمًا – أنا أؤمن بالغيبيات."

قال "يا إلهى، ، يجب أن يكون المرء كذلك إذا كان يعيش فى بيروت."

قالت بنبرة باردة: "إنه بلدى".

مرة أخرى التفتت إلى الشارع، وسيجارة تحترق بين أصابعها، وهى تسند رأسها على كعب البندقية. كان عليه أن يتمالك نفسه من أن يمد يده ليتحسس رقبتها ؛ حيث كانت خصلات الشعر قد تم شدها إلى أعلى لتحتويها القبعة.

قالت وهى تكسر الصمت:"هل معك النقود ؟"

"نعم،" وفك أزرار حاشية جيب سترته وأخرج مظروفًا مغلقًا. فتحته وتأكدت من فئة أوراق الدولار . قالت وهى تعيد له المظروف: "احتفظ أنت به الآن" ، ثم أضافت: " ربما يكون هذا هو الهدف المطلوب."

"نظر وراء كتفها فرأى رجلاً عجوزًا يلبس بنطلونًا رثًا وقميصًا بدون ياقة ، وشبشبًا فى قدميه، ظهر عند فجوة المدخل المحدقة لأحد المبانى التى تحمل آثار القذائف، كان يحمل كيسًا منتفخًا على ظهره.

أدار، وهو يركع على المرتبة خلفها مباشرة، آلة التصوير. أحس بتوترها وهى تنزل يدها اليمنى على الزناد. "ليس بعد،" قال لها بإلحاح. "لنأخذ الأمور على مهل ، ونحصل على مشهد طويل بقدر الإمكان -"ما قبل وما بعد" واقعيان -" واستعرض بآلة التصوير فى بطء الشارع الملئ بالدبش ، وتوقف عند السيارة المقلوبة ، ثم انتقل سريعًا إلى الرجل العجوز، وركز التصوير عليه عن قرب وهو يقف مترددًا عند مدخل الباب الخالى. كان وجهه مليئًا بالخطوط ، وشعر لحيته لم يحلق منذ أيام ، وكانت عيناه تضيقان فى مواجهة أشعة الشمس. دارت عيناه واستقرتا - ربما جذبتهما ومضة ضوء من ماسورة البندقية وهى مستندة على أكياس الرمل - وكان يبدو أنهما تحدقان فى عدسة الكاميرا .

غمغم قائلاً: "هذا عظيم"

"سيتجه يسارًا،" همست البنت ، وكأن هناك من يسمعها "سيحاول الوصول إلى التقاطع."

"اضربيه قبل أن يصل إلى مكان السيارة." ركز الكاميرا على وجه الرجل عن قرب.

"لا تتركيه يذهب بعيدًا قبل أن تصيبيه. اجرحيه فقط فى بادئ الأمر،" قال لها وهو يعطيها التعليمات.

لمست إحدى ركبتيه أعلى فخذها ، وأحس بجسمها يتصلب.

" أنت لا تبالى بأحد على الإطلاق، أليس كذلك مستر وورال؟"

"إننى أعمل فى مهنة قاسية ، كما أننى أدفع أموالاً جيدة."

فجأة، مع احتفاظها بالبندقية فى مكانها بيدها اليسرى، التفتت إليه. "أنا على استعداد لإلغاء الصفقة،" قالت باستهجان.

تبادلا نظرة طويلة، ثم أشار إلى الشارع. "بدأ يتحرك."

خرج الرجل العجوز من المدخل ، وبدأ يطوف حول حافة الحائط. كان يتقدم بصعوبة ربما نتيجة ثقل الكيس ، أو نتيجة الشبشب الفاقد لأى ملمح. كان من الصعب رؤية أى شىء منه سوى جسمه ؛ الذى يسير بتثاقل ، والكيس الاشبه بالحدبة وهو مائل على جانب واحد. المشهد – فى رأى تيرى – كان ينقصه شىء ما ؛ و لذلك رجع إلى الوراء على المرتبة، والكاميرا لاتزال تدور، حتى استطاع أن يلتقط بروفيلها مع ماسورة البندقية وهى رابضة فى كف يدها .

تحرك إلى الأمام مرة أخرى ليلحق بتصوير سيارة جيب مفتوحة، بها رجال مسلحون تعلقوا بجوانبها وهى تسير بسرعة فائقة ثم تختفى ناحية التقاطع .

عندما أطلقت النار، غير الرجل العجوز وضع الكيس. قوة الرصاصة وهى تضرب الكيس ألقت بالرجل على الأرض بدأ يندفع مذعوراً للاحتماء بأحد المداخل المفتوحة، ثم أصابته الرصاصة الثانية فى أعلى الكتف. بدأ يتلوى ويده ممسكة بكتفه ، والدم يفيض من بين أصابعه. كان على وجهه تعبير – هو خليط من الدهشة والألم، ورغم

ذلك امتدت يده الأخرى بحثًا عن الكيس. ثم بعد أن قرر ترك الكيس، بدأ يزحف على أربع بمحاذاة الرصيف فى محاولة يائسة لاجتياز الياردات القليلة المتبقية للوصول إلى الأمان.

" تمهلى!" قال تيرى بإلحاح وهو يربض فوقها ساندًا نفسه على الحائط ، وقد بدأ التعب يتسرب إلى ذراعيه.

عندما وصل الرجل العجوز إلى المدخل المفتوح غمغم تيرى بتوتر قائلاً: "انتهى منه برصاصة واحدة فى الرأس."

نثرت الطلقة مخ الرجل على الحائط الأبيض فى حين تساقط جسمه على الرصيف.أستمر أزيز الكاميرا الدائرة خلال الصمت المحيط بهما. بدأ الاثنان يشعران بهذا الصمت فجأة .

تنهد على نحو ينم عن الرضى ، بل عن الارتياح ، وأنزل الكاميرا إلى جانبه. أحس بأنه مستنزف ، وكأنه انتهى لتوه من مضاجعة.

قال: "كانت على أفضل ما يرام. أخذت لقطات عظيمة. شكرًا."

وهو يأخذ الكاميرا ويفك العدسة التلسكوبية، أسندت جوى البندقية بحرص على أحد أكياس الرمل. رمقته فى صمت وهى تسند ظهرها على الحائط. "من الغريب أننا نستخدم نفس كلمة "شوت" مع الكاميرا كما فى إطلاق النار،" قالت وكأنها تحدث نفسها.

ابتسم لها. "نحن تقريبًا من نفس المهنة. لاحظ أنها كانت شاحبة ومتوترة. "كنت عظيمة،" قال وهو يأمل أن ترد على ابتسامته بابتسامة أخرى .

"هل يمكنني أخذ النقود الآن؟"

"بالطبع،" رد قائلاً ، وأخذ المظروف من جيبه.

ثم رفع الكاميرا على كتفه وابتسم لها. "مع السلامة - ولا تنسى هذا المساء. إنني أعرف طريق الخروج".

قالت وهي تنهض واقفة وترفع البندقية: "أحب أن يكون الباب مقفولاً".

عند الباب مد يده لها. "شكراً جوى." نقلت البندقية إلى يدها اليسرى. لم تضغط على يده كما فعل هو وهما يتصافحان. قال لها "أراك فيما بعد".

استدار أعلى السلم ولوح لها. عند الطابق التالي نظر إلى أعلى عندما سمع صوتها. "مستر ورال"

"نعم جوى"

كانت تقف عند أعلى السلالم.

"أنا آسفة، الليلة لن نلتقي."

"ولكن أنا اعتقدت أننا..." رآها تشهر بندقيتها وكأنها في مشهد يعرض بالحركة البطيئة. أعاقت المعدات الثقيلة رد فعله. حاول إلقاء نفسه جانباً ناحية الدرابزين، لكن الرصاصة اخترقت رقبته. رقد على ظهره يحدق نحوها وعلى وجهه نظرة عدم تصديق ، وكان ينتظر الرصاصة التالية .

(٤)

نصيب من الكعكة

باستثناء أن الوزير كان ينطق اسمه خطأ، ارتاح مارتين إيجلتون إلى أن اللقاء سار على نحو جيد. كان صديقه - نائب الوزير- قد حذره أنه سيجد الوزير، لو أتيحت له فرصة مقابلته، شخصية جبارة كان الرئيس قد عينه فى هذا المنصب بسبب أدائه السابق فى ميدان القتال لم يكن يتوقع لقاء الوزير على الإطلاق ' فالمفاوضات كانت قد تمت مع محمود عبد الستار - نائب الوزير - ومع مجموعة من المسئولين الفنيين فى الوزارة. وبسبب إرسال محمود فى مهمة هامة منذ يومين تلقى رسالة فى الفندق تفيد أن الوزير شخصياً يود لقاءه.

كان بالفعل شرفًا له ، وإن كان اللقاء أقرب إلى لقاء مجاملة ' نظرًا لأن كافة المواصفات والأسعار وتواريخ التوريد قد تم الاتفاق عليها من قبل .

كانت حجرة الوزير مثيرة للإعجاب بمكتبه المنظم الكبير والبورتريه بالحجم الطبيعى للرئيس ، وهو فى الزى العسكرى الميدانى ، وكأنه

ينظر من فوق كتف الوزير. كان الرجلان من العسكريين ، وكانا قد خاطرا بحياتهما في الانقلاب – الذي جاء بالرئيس إلى السلطة، وكانا يتميزان بنفس تركيبة الفك ، ونفس الحواجب الثقيلة والشارب الممتلئ . كانت معرفة الوزير بالإنجليزية ملائمة ، ولكن أولية – ليس مثل نائبه الذي كان يتحدث بطلاقة وقد أكتسب لهجة "يوركشاير" عندما تخرج من الكلية الفنية في شمال إنجلترا. كان يقف الآن بجوار المكتب الكبير مساعد شاب يلبس بذلة ورباط عنق ، ولديه شهادة علمية في الأدب الإنجليزي من الجامعة المحلية.

"كما تعلم مستر إيجلتون،" شرح المساعد، "مستر محمود غائب الآن في مهمة عاجلة. ومع ذلك أحس معاليه بأنه يود لقاء الشخص الذي جرت معه المفاوضات بخصوص هذا العقد الهام."

"هذا شرف لي معاليكم." التفت مارتن إيجلتون إلى الوزير وهو يبتسم ابتسامة لائقة. "كان من دواعي سروري العمل مع سيادتكم ، ومع مجموعة العاملين عاليي الكفاءة."

قال الوزير وهو يلوح بحركة قاطعة من يده اليمنى "في هذا البلد نحب أن نكون مضبوطين".

ثم التفت الوزير إلى مساعده وتبادلا بعض الكلمات باللغة العربية.

"معاليه يقول إننا سمعنا من صديقك مستر محمود حول صعوبة الوصول إلى سعر مقبول للطرفين،" قال المساعد.

"قال مارتن إيجلتون ، وهو يقوم بحركة مسرحية بيديه الاثنتين: "مستر محمود، يا معالى الوزير، مفاوض ماهر جداً ، وهو يحمل مصالح الوزارة فى قلبه."

ترجم المساعد للوزير الذى ابتسم للإنجليزى الجالس أمامه ، ثم تحدث مرة أخرى من خلال مساعده.

"معاليه واثق أن النتيجة ستكون جيدة لكل الأطراف. هو يأمل أيضاً أن يتم إنهاء كل شيء فوراً. فى هذا البلد لا نحب تضييع الوقت "

سأل مارتين إيجلتون "هل يكون من المناسب، نظراً لأن كل شيء قد تم الاتفاق عليه ، ولا يحتاج العقد سوى توقيع معاليكم، وأن أحجز لنفسى على طائرة الغد؟".

بعد أن تأكد أنه فهم بشكل صحيح، مال الوزير ناحية مساعده ، ثم بسط كفيه الكبيرين على المكتب. "أنت لا تحب بلدنا مستر إيجلتون؟ أنت لا تحب أن تأكل أكثر من كبابنا؟ – وضحك الرجال الثلاثة بقوة

فجأة بدت على الوزير الجدية ، وهو ينظر إلى ساعته الذهبية. نقر على وجهها وهو يتبادل بعض الكلمات مع مساعده .

قال المساعد "يقترح معاليه أن تحجز على طائرة للسفر غداً بعد الظهر".

"هل يمكن إتمام كل شيء بحلول هذا الميعاد؟" سأل مارتين إيجلتون وهو عاجز عن إخفاء الدهشة فى صوته. كان قد استقر رأيه

على أنه قد يحتاج للبقاء إسبوعًا إضافيًا أو أكثر قبل أن يتم التوقيع على العقد. كان يبدو في بعض اللحظات أن المفاوضات ستستمر إلى الأبد، مع جدل لا ينتهى حول الأمور الصغيرة ، التى كان يثيرها مسئولو الحكومة. كان يمكن لأى شخص أن يتصور أن لأصحاب الحكم والسلطة مصلحة مالية فى إبقاء فنادق العاصمة مشغولة بممثلى الشركات الأجنبية. مرة أخرى يعود الفضل لمحمود - نائب الوزير - فى تحريك المفاوضات فى الاتجاه الصحيح.

قال الوزير، وهو يلوح بإصبعه ويضحك. "إن شاء الله. تعرف، يجب أن تقول إنشاء الله دائمًا بالنسبة للمستقبل. فالله وحده يعلم بلا شك" ، وأشار الوزير إلى أعلى بإصبعه.

قال مارتين أيجلتون، وهو يبالغ فى طريقة التلفظ: "إن شاء الله"

"ممتاز!" هتف الوزير ، وضحك الرجال الثلاثة مرة أخرى بحماسة.

ثم وقف الوزير ، وتصافح هو ومارتين إيجلتون عبر المكتب، وبعدها رافقه المساعد حتى الباب، بل خرج معه إلى الشارع وساعده فى إيجاد تاكسى .

بعد أن وصل إلى الفندق وجد موظفًا جديداً عند الاستقبال. كان عليه أن يعطيه اسمه ، ورقم غرفته قبل أن يسلم له المفتاح.

سأل الرجل "أنت ستغادر الفندق غداً، مستر إيجلتون؟".

رد باقتضاب."أنا لم أقل ذلك أبداً".

"قيل لنا إنك ستغادر غداً."

أزعجته فكرة أن شخصًا فى الوزارة قد أبلغ الفندق بميعاد رحيله. ما أغضبه أكثر هو إبلاغه أن الفندق قد رتب لنقله إلى غرفة أخرى لقضاء آخر ليلة له فيه. قص عليه الرجل فى الاستقبال قصة مشوشة تفيد بأنه أبلغهم اليوم بميعاد رحيله ، وأنهم وعدوا رجلاً من ألمانيا بحجز غرفته له ؛ حيث كان قد طلبها بالتحديد. عندما بدأ يحتج بأنه لا ينوى مغادرة الغرفة التى ظل يشغلها طوال ستة عشر يومًا، اعتذر له الرجل بأنه - وللأسف - تم حزم أمتعته فى حقائبه ، ونقلها إلى غرفة أخرى. كانت الغرفة الجديدة شبيهة بالغرفة التى كان يشغلها، بل كانت أوسع وأفضل تجهيزاً ، وبها جهاز تلفزيون بشاشة عريضة. رغم أنها كانت أغلى من غرفته الحالية ، وقيل له إنه بسبب الإزعاج الذى تعرض له ستتم محاسبته على السعر نفسه.

رغم سخطه على الأسلوب الخشن الذى عومل به، قال لنفسه إنه لن يجنى شيئًا من وراء إثارة ضجة حول الموضوع. فهذه ليست معارك يمكن الانتصار فيها، بل هى معارك لا تستحق أن تخاض. لقد عمل طويلاً فى العالم العربى - حيث تعلم ضرورة أن يتناول المرء الكثير مما يجرى من أمور بقدر من رباطة الجأش.

ذهب إلى البار وطلب بيرة ، وعزى نفسه بأن هذه آخر ليله له فى المكان ، وأنه غداً سيكون على متن الطائرة وفى جيبه العقد. ثم صعد إلى غرفته الجديدة. لاحظ بالفعل أنها غرفة أكبر ، وأنها مجهزة بشكل

يوفر له راحة أكبر. كذلك رأى التلفزيون الجديد كبير الحجم. أحس بالضوضاء الخفيفة لحركة المرور تنفذ من بين الستائر. أزاحها إلى جانب ورأى أن غرفته تطل على ركن من أركان الميدان الرئيسى للعاصمة. هز كتفيه بلا مبالاة وفكر أنه بعد أن يشرب عدة أكواب أخرى من البيرة سيكون محصناً ضد ضجيج المرور.

قرر أن يخرج ، وأن يتناول الغداء ، ثم يعود ليكون متواجداً فى الفندق خلال فترة بعد الظهر ، لعلهم يستدعونه فى الوزارة. أكل طبقًا من الكباب والأرز بسعر يمثل نسبة ضئيلة مما كان سيكلفه فى الفندق، ثم عاد إلى الفندق ليشرب مزيداً من البيرة.

قال للرجل فى الاستقبال: "أنا أنتظر مكالمة هامة من الوزارة".

فى غرفته ، وبعد أن خلع سترته ورباط العنق ونزع حذاءه، جلس فى واحد من المقعدين الوثيرين لمشاهدة مباراة كرة قدم معادة من إستاد فى إسبانيا يصاحبه التعليق الخشن باللغة العربية

بعد أن أوقف الصوت دخل فى نوم عميق واستيقظ على رنين التليفون عندما رد عليه سمع صوت امرأة تتحدث بالعربية أنصت لبضع ثوان ثم أغلق السماعة.

عند الاستقبال أبلغهم بأنه تلقى مكالمة خاطئة ، ولكن الرجل حاول أن يؤكد له أن المكالمة كانت له كان الجو معتدلاً فخرج وسار حتى مكتب الخطوط الجوية ، لكى يحجز للسفر فى اليوم التالى. فوجئ عندما وجد أنه قد تم بالفعل إجراء الحجز باسمه على طائرة بعد الظهر. سلم تذكرته لكى يتم تسجيل رقم الرحلة وتاريخها عليها.

كان المساء ممتداً أمامه بفراغه الرتيب .

قضاء وقت الفراغ في غرف الفنادق كان جزءاً من عمله كممثل للشركة في الخارج ' حيث يتم قطع الوقت بأحلام اليقظة، أو كتابة الخطابات ، أو قراءة الروايات البوليسية التي يشتريها من مطار هيثرو. كان هناك بالطبع إغراء الإسراف في الشراب حتى الثمالة. على الأقل، طمأن نفسه، هذه آخر ليلة له في هذا المكان. كان يتمنى لو استطاع أن يمضيها مع محمود في سهرة احتفالية. كم كان سيصير ممتعاً لو ذهبا إلى أحد هذه المطاعم ذات الحدائق الصغيرة ، والتي تقدم فيها زجاجات العرق المحلي ' تلك المصنوعة من البلح ، وليس ذلك النوع اللبناني المصنوع من العنب.

رغم أن العرق المحلي كانت له لذة خاصة إلا أنه كان يترك آثاراً مؤلمة وقوية في صباح اليوم التالي ، ولكن سرعان ما يعتاد المرء على ذلك. كنائب للوزير وشخص يحب متع الحياة . كان محمود معروفاً للجميع، وكان يحظى باهتمام خاص في بارات ومطاعم المدينة مثل أن يمنح مائدة في ركن متوار بعيداً عن أنظار الزبائن. ولكن، كما قال لصديقه الإنجليزي - من الحكمة ألا يشاهد الاثنان كثيراً معاً، وأيضاً ألا يحاول مارتين مكالمته بالتليفون في منزله. وقد صادف بالفعل عدم وجود ضرورة لكي يجتمعا مرة أخرى ؛ حيث لم يعد هناك ما يحتاج إلى المناقشة. كان لديه رقم حساب محمود في البنك في زيوريخ ، وكان سيُكلف الشركة بتحويل عمولته عندما تبدأ في تلقي الدفعات من الحكومة. الثقة التامة ضرورية في مثل هذه الترتيبات، فلا يمكن بأي

شكل من الأشكال تدوين أى شيء كتابة. كان متأكداً أيضًا أن محمود يمكن الوثوق به، وأنه عندما يقوم برحلته السنوية إلى أوروبا خلال الصيف سيجد نصيبه من نصف قيمة العمولة مدفوعاً فى حسابه الذى ينوى فتحه فى جنيف ' فأى ترتيب أفضل من أن يعطى نائب الوزير نصيبًا من الكعكة؟ كان يسعد أيضًا عندما يفكر فى الثناء الذى سيتلقاه من مدير المبيعات، وربما يحصل كذلك على زيادة فى مرتبه، بل حتى مكافأة.

ضجر من التلفزيون ، فنزل وأقنع الرجل الواقف عند البار أن يعطيه ربع زجاجة سكوتش بالثمن الرسمى .

عاد إلى غرفته وفتح التلفزيون مرة أخرى وشاهد فيلم مغامرات حول شخص بدون مسدس يطارده شخص آخر بمسدس فى شوارع هيلسنكى. فى أثناء مشاهدته ترك عقله يتجول بين أسماء أماكن مثل "كان"، "أنتيب"، و"كاب فيرا". قرر أنه يجب أن يقوم برحلة إلى الجنوب الفرنسى - ربما مع زوجته - ليشاهد العقارات المعروضة للبيع. فمن الأرجح أن العقارات فى إسبانيا ، أو ربما "مايوركا " أرخص، أو حتى فى مكان مثل "بافوس" التى تقع فى الجزء اليونانى من قبرص ، والتى تتوسط بشكل ملائم الطريق بين منتجعاته المفضلة ، وبين المملكة المتحدة. فى غضون ذلك، ستضاف الفائدة على أمواله فى أثناء بحثه عن فيلا بيضاء بحديقة صغيرة. انتهى فيلم المطاردة ، ووجد نفسه يشاهد - بضجر متزايد - فيلمًا كوميديًا عربيًا مصوراً فى القاهرة. خفض الصوت وشغل نفسه بإنزال سترته عن ظهر الباب ، وإخراج

مغلف قديم من الجيب الداخلى. كتب سريعًا عليه بعض الأرقام، وسلسلة من النسب المئوية ، وتواريخ محتملة للدفع. كانت عملية حسابية قام بها من قبل ، ولكن كان يسعده عمل الحسابات ، والتحديق فى المبلغ الكبير الذى سيحققه لنفسه. مزق المغلف ، ودخل الحمام ، وألقى بالقصاصات فى المرحاض، واضطر أن يشد السيفون مرتين قبل أن يختفى أى دليل على حساباته.

تناول غداء دسمًا ومتوسط المستوى فى مطعم الفندق ، وشرب قدحين إضافيين من البيرة ، وجلس لبعض الوقت يستمع إلى فرقة موسيقية تضم ثلاثة عازفين تؤدى ألحانًا كانت ذائعة فى فترة زمنية سابقة لميلاده. فى طريقه إلى غرفته توقف عند الاستقبال ، وطلب إفطار كونتيننتال ، وقهوة فى غرفته الساعة التاسعة صباحًا. عندما سلمه الرجل مظروفًا، تجهم وقال لها إنه كان يجب أن يبلغه فور وصوله

قال بحدة " إنه خطاب هام من الوزارة بالله عليك لقد كنت فى المطعم على مقربة منك".

بدأ يزداد سخطًا من العاملين فى الاستقبال.

"لقد وصل لتوه، سيدى - لقد سُلِّم باليد."

قال بضيق وقام برفع حواجبه إلى أعلى تعبيراً عن استيائه "أعلم، أعلم".

انتظر حتى عاد إلى غرفته قبل أن يفتح المغلف. تبين له من خلال الغيوم التى سببتها الأقداح العديدة من البيرة أن محتويات المغلف

لم تكن بأى شكل من الأشكال عقداً. بدلاً من ذلك رأى ورقة واحدة قرأ فيها.

"العزيز مستر إيجلتون،

هذا لإبلاغكم أنه تقرر عدم الاستمرار فى المفاوضات التى خاضتها الوزارة مع سيادتكم.

كما كتبنا فى الوقت نفسه إلى شركتكم الإنجليزية لنبلغهم أن اسمها قد تم شطبه من قائمة الشركات المؤهلة للمنافسة على المناقصات الحكومية"

كان الخطاب مكتوبًا على ورق الوزارة ويحمل توقيعًا على شكل خربشة تحت كلمات بالنيابة عن معالى الوزير. قرأ الخطاب مرة ثانية غير مصدق لمحتوياته الفظة، ففى صباح هذا اليوم كان هو والوزير يتبادلان النكات. فما الذى حدث؟

خفق قلبه بعنف داخل قفصه الصدرى. اندفع إحساس بالغضب من أعماقه تجاه محمود. أين كان الرجل؟ وكيف يتركه وحده فى وقت كهذا؟ كان عليه الآن أن يعيد تحريك الأمور من جديد. فى حالة غياب محمود، هل يسعى لتحديد مقابلة أخرى مع الوزير؟

جلس إلى الوراء وحاول أن يجعل ذهنه صافيًا، وبدأ إحساسه بالغضب والخيبة يتحولان إلى قلق، فيبدو أنه قد تم إرسال خطاب إلى شركته، من ثمة لم يعد هناك ما يمكن إنقاذه فى هذا الشأن. فأية قصة يمكن أن يقولها لشركته، والتى سبق أن أبلغها أن العقد مضمون؟

سأل نفسه ، وهو يسكب بقية زجاجة الويسكى:"فى أى جحيم أنت يا محمود؟"

ابتلعها فى رشفة واحدة ، وسار مترنحًا إلى سريره الكبير ؛ حيث كانت بيجامته مطوية بشكل مرتب على الوسادة. رغم قلقه نام فوراً.

استيقظ على صوت حاد لصفارة إنذار تقترب . فى الوقت نفسه كان هناك طرق على الباب . وتم إدخال عربة الإفطار.

سأل النادل ما الساعة الآن؟". كان يبدو أن الرجل لم يسمعه حيث ذهب إلى الستائر ، التى كانت تغطى المساحة الكبيرة من الزجاج وأزاحها تسلل ضوء مطلع الفجر الكئيب إلى الغرفة. تبين له أن الوقت أبكر بكثير عن الوقت الذى كان قد طلب فيه الإفطار. ما الذى كانوا يدبرونه له فى الاستقبال الآن؟

فى طريقه إلى الحمام تذكر خطاب الوزارة الذى تلقاه البارحة. كتلة من الهواجس استقرت فى صدره وخلَّفت لديه إحساساً بالتوتر والضيق.. توقف ونظر ناحية الشباك. شهد تجمعاً من الناس ينتظرون فى العتمة . كانوا ينظرون إلى الباب الخلفى لسيارة إسعاف وهو ينفتح ويخرج منه، بمساعدة رجلين يلبسان زيًا عسكريًا، شخص حافى القدمين، يلبس ما يشبه ملاءة لفت عليه.

قاد الرجلان الشخص فوق السلالم الخشبية للمنصة. كان فى انتظاره عند قمة السلم رجل ثالث فى زى عسكرى ووضع على رأسه إعلانًا كبيرًا عليه كتابة عربية.

تعرف مارتين إيجلتون بصعوبة عبر الملامح الغائرة على صديقه الأنيق نائب الوزير.

ولوهلة خاطفة كان يبدو أن عيون محمود المحدقة تلاقت مع عيونه قبل أن يتم إحكام الحبل حول رقبته العارية.

(٥)

تمت الصفقة

منذ يومين مضيا طار الكولونيل جراى أحد المسئولين عن مبيعات الأسلحة فى وزارة الدفاع البريطانية، إلى مشيخة صغيرة فى الخليج تتميز بالحر والرطوبة المحليين. رغم أن الحاكم قد دعاه إلى المجىء إلا أنه ظل منتظراً لمدة يوم كامل ونصف اليوم فى الفندق قبل السماح له باللقاء. الآن، والمؤذن يؤذن من جامع القصر لصلاة المغرب، نزل الكولونيل جراى السلالم وهو مغموم ، وفتح باب التاكسى - الذى كان فى انتظاره ، وقال للسائق أن يعود به إلى الفندق.

كان الكولونيل جراى يعرف "إميل" فى الاستقبال منذ سنوات عديدة ، ولم يجد صعوبة، بمساعدة ورقة من فئة العشرة دولارات، فى إقناعه بإرسال براد شاى صغير ملئ بالويسكى إلى غرفته.

ثم طلب من إميل أن يتصل له بمكتب الطيران على التليفون وحجز لنفسه تذكرة على رحلة الغد المتجهة إلى لندن "لا- سياحى" قال بإيجاز وهو يشعر بوخزة امتعاض عندما تذكر حجم ممثلى الشركات

فى المنطقة الذين يبيعون كل شىء من فرشاة الأسنان إلى المنازل سابقة التصنيع ، ويتلقون تذاكر الدرجة الأولى من شركاتهم ، ثم أرسل فاكساً إلى وزارة الدفاع ' ليعلمهم بوصوله الوشيك. ولكى يمهد لهم أسوأ الاحتمالات - بعد أن كانوا ينتظرون عودته وفى جيبه العقد - ختم بالكلمات الآتية "المفاوضات تسير على أعلى المستويات ، ولكن صعوبات غير متوقعة قد تتطلب زيارة لاحقة." اعتبر ذلك مناورة وهو يحاول شحذ تفكيره لإيجاد أقل الطرق ضرراً لإبلاغهم بالأخبار السيئة.

كان اللقاء الذى عقده لتوه مع الحاكم كارثيًا. خلال العامين اللذين أمضاهما الكولونيل جراى ذهابًا وإيابًا بين لندن والخليج العربى تناوب الحاكم ما بين زيادة الطلبية بشكل كبير ، وبين تقليصها بشكل ضخم، كل ذلك مع تخفيض الأسعار بشكل مستمر.

فوجئ الكولونيل جراى عندما تم إبلاغه بإلغاء الصفقة لدرجة أنه وجد صوته يتحول إلى صرير حاد من عدم التصديق وهو يسأل المترجم " هل سموه يعنى أنه لا يريد أيًا من هذه؟" - و أشار بإصبعه إلى العقود المجهزة بعناية ، والمغلفة تغليفًا ثمينًا فى انتظار التوقيعات، والتى كانت موجودة على المائدة بينه وبين الحاكم.

نقل المترجم الحديث للحاكم ، وجاءت الإجابة سريعة وشديدة الوضوح وصريحة: " ولا حتى رصاصة واحدة."

ألقى الكولونيل جراى نظرة سريعة إلى الحاكم على أمل أن يكون سموه ربما يمزح- فالكولونيل جراى كان يفتخر بأنه استطاع أن يكوّن

علاقة مباشرة وغير رسمية مع الحاكم-و لكن الأخير كان منهمكًا تماماً في فحص ما يبدو أنه زمردة كبيرة الحجم في الأزرار التي كانت تزرر أكمام عباءته. من الواضح أنه لم يكن هناك ما يمكن عمله سوى تقديم تحيات الوداع ، وجمع مجلدات العروض البريطانية من أحدث نظم الإنذار المبكر وصواريخ أرض - جو وأسطول من زوارق الطوربيد.

كان قد تم إبلاغه قبل أن يترك لندن هذه المرة أن المبلغ الإجمالي النهائي البالغ مائة وثلاثة وثلاثين مليون جنيه غير قابل للتفاوض ، وأنه لا يحتمل أدنى مقدار من التخفيض . لولا الحجم الضخم للصفقة وحاجة المصانع الإنجليزية الشديدة للعمل ، لكان قد تم إبلاغه منذ فترة طويلة بالامتناع عن أية زيارات أخرى لهذه المشيخة الخليجية . كان الجنرال، رئيس مبيعات وزارة الدفاع، قد قال أمامه أكثر من مرة إن تذاكر الطيران لا تنمو على الأشجار، كما ذكَّره بالتكلفة الباهظة لحجم الأعمال المكتبية التي كان يعاد عملها بشكل مستمر ، والأسلوب الذى يتم به إرغام الكولونيل جراى على تقليص الأسعار أكثر وأكثر وتقديم تنازلات حول مواعيد التسليم والصيانة ، وبرامج التدريب المجانية ، وضمانات الأداء.

أخذ المصعد إلى غرفته حيث وجد براد الشاى، وفنجاناً وزجاجة مثلجة من المياه المعدنية. فك رباط عنقه العسكرى وهو يتناول أول قدح من الويسكى وتساءل عما إذا كان هذا الشراب نوعاً من أنواع الخمور التى أعدها إميل فى المنزل، كما تساءل عما لو كان من الأفضل أن ينتظر حتى يصعد على متن طائرة الغد قبل أن يحاول إغراق أحزانه فى الشرب.

أية رواية محتملة أو غير محتملة يمكنه أن يقولها للندن؟ كيف يفسر أن سموه قد غير رأيه فجأة بعد كل هذه الأشهر من المفاوضات؟ كان يبدو كأن سموه لديه رغبة خاصة فى الانتقام منه ومن وزارة الدفاع. هل يمكن أن يبلغ لندن أن ضغوطاً سياسية مورست على سموه لشراء أسلحة فرنسية ؟ وأن الفرنسيين تقدموا فجأة بقرض إذا اشترى منهم؟ أو أن سموه قرر فجأة حل الجيش والبحرية والقوات الجوية؟ أو أن معلومات سرية قد تم تسريبها له، أو...أو ...

رن جرس التليفون الموجود بجوار الفراش. انقبض قلبه عندما خطر له أنها قد تكون لندن تستعلم عن الأمور. وقف وهو يترنح وجلس على الفراش. تيقن الآن فقط مدى إرهاقه، وأن هناك الكثير الذى يمكن أن يقال لصالح قبوله المعاش ، وتكريس حياته للحفاظ على حديقة منزله فى ضاحية "سورى".

قال "جراى" بنبرة رجل يقدم ملخصًا لتقرير أرصاد جوية إنجليزى.

قال الصوت على الطرف الآخر للهاتف "هنا الأستاذ سعد لبيب ، هل أتحدث مع الكولونيل جراى؟ ممتاز... كولونيل جراى، سأكون ممنونًا أن أحصل على خمس دقائق من وقتك الثمين."

أراد أن يقول بأن هناك القليل مما هو ثمين من وقته الآن، لكنه رد فى برود "آسف، لكننى مسافر صباح الغد."

"أعرف،" قال الأستاذ لبيب. "أنت حجزت على الطائرة المتجهة باكرًا إلى لندن، ولكننى أرى أنك يجب ألا تسافر دون أن يتاح لنا فرصة للحديث، كولونيل."

كان يفضل لو أمضى المساء وحده ؛ لكى يهرب مؤقتًا من همومه مع مشروب "إميل " سيئ المذاق ثم ينام مبكراً، ولكنه تعلم أن فى مجال الأعمال من الضرورى عدم رفض سماع الآخرين أبداً.

كان يقول لأصدقائه القدامى فى البار المحلى وهو يضم شفتيه فى حكمة: "الاستماع هو الشىء الوحيد الذى لا يكلف ". لذلك أبلغ الأستاذ لبيب - الذى قال إنه يتحدث من الاستقبال - أنه سينزل فوراً.

ابتلع كأسه وهو يكشر، وخبأ براد الشاى فى الدولاب الصغير بجوار السرير ، ونزل السلالم إلى البهو .

كان الرجل الواقف بجوار الاستقبال شاباً بمعايير الكولونيل، شعره أسود أملس، ويرتدى حملاً ثقيلاً من الذهب حول معصميه وفى أصابعه وحول رقبته. كان يرتدى بذلة حريرية لامعة لونها رمادى فاتح ، وربطة عنق كبيرة تعلن بوضوح عن اسم مصممها، وحذاءً ضيقًا مصنوعًا من جلد ثمين لأحد الزواحف.

سأل الكولونيل دون داع ؛ حيث لم يكن بالبهو شخص أخر: "الأستاذ لبيب؟".

تصافح الرجلان. كان الكولونيل جراى معروفًا بقبضة يده القوية المؤلمة، لكن الأستاذ لبيب نجح فى الهروب منها دون أذى. ابتسم له

ابتسامة تمساح وأخذه من مرفقه، كأنهما صديقان منذ أيام المدرسة الإعدادية، وقاده نحو قاعة الانتظار ، وفى أثناء ذلك نادى على إميل بالعربية . كان للكولونيل جراى معرفة كافية باللغة ، والتى التقطها من بارات الفنادق فى مختلف أنحاء الشرق الأوسط ؛ لكى يتعرف على الكلمة التى تعنى "ثلج "و كلمة اللغة المشتركة "كوكاكولا". شعوره بالنفور تجاه الأستاذ لبيب زاد أكثر . فلم يعجبه أن يفرض عليه ما يشربه ، وفى ظل الخيارات المحدودة المتاحة، كان يفضل لو شرب قهوة تركية.

" ماذا يمكننى أن أفعله لك؟" سأل اللبنانى ببرود فى حين كان الأخير ينتقى ركنًا فى قاعة الانتظار ويجلس.

رد الأستاذ لبيب : "أعتقد أن السؤال الصحيح هو ماذا يمكننى أن أفعله لك أنت، كولونيل -أو بالأحرى ماذا يستطيع كل منا أن يقدمه للآخر " .

جاءت الكوكاكولا فى أكواب طويلة مثلجة، وبها شرائح الليمون. رفع الأستاذ لبيب كوبه وقال، "فى صحتك." وهو يتظاهر بعدم الاستماع، رشف الكولونيل جراى مشروبه بتردد، ولكنه ابتهج عندما وجده يختلف تمامًا عن أى نوع من أنواع الكوكاكولا ، التى عرفها من قبل .

"إميل دائمًا ينعشها لى بإضافة كمية سخية من شراب الروم من نوع باكاردى." شرح له الأستاذ لبيب، ثم جلس إلى الوراء فى مقعده

ووضع ساقًا على ساق، ولمس حذاءه المصنوع من جلد الزواحف بنطلون الكولونيل.

"أسفت جداً عندما علمت أن سموه لم يوقع العقد معك هذا المساء."

تصرف الكولونيل جراى بقدر ما أمكنه من برود. "نعم، أعتقد أنه سيعنى ضرورة القيام بزيارة أخرى،" قال بتجهم وهو يرفع كوبه إلى شفتيه ويلقى على الأستاذ لبيب نظرة جانبية سريعة. تذكر أن المترجمين فى هذا المكان من العالم يزيدون دخلهم بشكل كبير عن طريق تمرير المعلومات إلى أطراف ثالثة. ولكن، ما قدر المعلومات التى يعرفها الأستاذ لبيب بخصوص لقائه مع الحاكم؟

"فهمت أن سموه أشار أنه لا ينوى التوقيع على العقد،" قال الأستاذ لبيب ، وبدأ يخشخش مكعبات الثلج فى كوبه بشكل مثير للإزعاج.

"آه، لا أستطيع أن أصف الأمر هكذا بالضبط،" رد سريعًا وهو يشعر بأنه يتراجع. رشف من كوبه وحدق بانشداه . "على أية حال، هل يمكننى أن أسأل ما شأنك بهذا الموضوع، أستاذ لبيب؟"

اعترف الأستاذ لبيب وهو يظهر أسنانه الخالية من أية عيوب: "حتى الآن، لا شىء".

"افترض أنك علمت بحديثى مع سموه عن طريق المترجم"

"من أحمد نجم يا إلهى، لا ٦٨ -"!و أنزل ساقه عن الأخرى ، وتلوى من شدة الضحك.

أردف الكولونيل بسخرية شديدة: "إذن، ربما من سموه نفسه؟"

"بالضبط." وألقى نظرة استحسان على الكولونيل.

"بالطبع، أنت صديق للحاكم،" استمر الكولونيل بنفس النبرة.

"هذا صحيح،" أكد الأستاذ لبيب.

"كان يجب أن أعرف،" قال الكولونيل جراى، وهو يبدى أنه يبذل مجهوداً لكى يكتم ضحكة. ثم أخرج منديلاً أحمر زاهياً من كمه، وكأنه حاو سيقوم بأداء آخر وأفضل خدعة، وتمخط بصوت عال.

قال الأستاذ لبيب: "يبدو لى، كولونيل ، أنك غير مقتنع بقدرتى على مساعدتك." ثم، - وهو يميل إلى الأمام ويتحدث بصوت خافت - قدم للكولونيل التفاصيل الدقيقة للصفقة التى كانت وزارة الدفاع تحاول منذ فترة طويلة أن تعقدها مع الحاكم ، ثم ختم بذكر مبلغ مائة وثلاثة وثلاثين مليون جنيه.

حاول الكولونيل جراى أن يبدو غير متأثر بمعرفة الأستاذ لبيب الواسعة لتفاصيل الصفقة المقترحة ؛ وهى تفاصيل لا يمكن الحصول عليها إلا من الحاكم نفسه.

"هل أفهم يا أستاذ لبيب، أنك تقترح - مقابل أجر معقول - أن تستخدم نفوذك لتحاول الحصول على هذا العقد لنا؟"

كان الكولونيل جراى يعرف هؤلاء الوسطاء اللبنانيين. ولكن كان يبدو أن هذا الوسيط بالتحديد غير مدرك أن كل نفوذ العالم لن يكون كافياً لإنقاذ هذه الصفقة.

"لا، لا، أنا لا أبحث عن أجر معقول مقابل محاولة الحصول على العقد لكم، أنا أطالب بنسبة معتدلة مقابل الحصول عليه لكم بالفعل. أنا رجل أعمل فقط مقابل النتائج، كولونيل - لا نتائج، لا نسبة. هل يمكن أن يكون هناك ما هو أكثر عدلاً؟"

أشار الكولونيل إلى أنه من المعروف أن سموه لا يستحسن الوكلاء أو الوسطاء ، ويرى أن الأموال التى تدفع لهم هى أموال تدفع من خزائنه هو.

ردًا على ذلك نظر الوسيط اللبنانى إلى ساعته الذهبية الرفيعة دون إخفاء نفاد صبره، وهز كتفيه المبطنين جيداً بشكل مسرحى.

"أنت رجل حر، عزيزى الأستاذ. ولكن اسمح لى أن أسألك سؤالاً بسيطًا: لو - كما نعلم - أوضح سموه عدم اهتمامه بتوقيع العقد ، ولم يطالب حتى بتخفيضات أخرى فى أسعاركم...

"تخفيضات أخرى؟" قال الكولونيل جراى باستنكار "أية تخفيضات أخرى ، وسنواجه بإفلاس وطنى."

نظر الآخر له بنظرة ضيق لمقاطعته. "لو - كما كنت أقول - لا أمل فى توقيع العقد، فماذا ستخسره إذا تعاونت معى؟"

كان هناك - اعترف الكولونيل جراى لنفسه - شىء له معنى فى كلام الرجل.

"ماذا عندى لأخسره، أستاذ لبيب؟" سأل وهو يحاول القيام بالمهمة المستحيلة للنظر فى عينيه.

"مـجـرد نصـف فى المائة – تُدفع بالتناسب مـع الدفـعـات التى يتم سدادها لحكومتكم."

كان من عـادة الكولونيل جـراى أن تظهر عليـه الصدمـة عندمـا يتم ذكر نسب العمولات. حاول دون جــدوى أن يحســب المبــلغ فى ذهنه. " ولكن هذا...هذا..." .

"سيعنى عمولة قدرها ستمائة وخمسة وستون ألف جنيه – ليس بالمبلغ الكبير عندما يتعلق الأمر بمائة وثلاثة وثلاثين مليونًا . رفع يدًا أظافرها مشذبة جيدًا عندما بدا أن الكولونيل سيحتج. "نعم، أعرف انك يجب أن تطلب لندن قـبل أن توافق على أى ترتيب." نظر إلى سـاعـتـه وأضاف، " يمكنك بالكاد اللحاق بهم – الساعة تقترب من منتصف الليل عندهم " .

"ليس هنـاك أدنى فرصـة أن يوافقوا،" قـال الكولونيل جـراى بنكد. فكرة أن يتصل بالجنرال فى هذه الساعة كانت مخيفة – خاصة وأنه لم تكن لديه أخبار سعيدة لإبلاغها. ألن يزيد الأمور سوءًا لنفسه بإعطاء لندن آمـالاً كـاذبة؟ "على أية حـال، أخشى أن الوقت الآن مـتـأخـر جـدًا، فنحن نحتاج للجلوس ، ووضع الاتفاق، وأنا مسافر صباح الغد باكرًا".

"حتى الآن أنت مسافر، كولونيل، لكن أنا اقترح، بعد كل المجهود الذى بذلته، أن بقاءك ليلة إضافية سيكون مبررًا. بالنسبة للاتفاق، فهو

معى مكتوب على الآلة الكاتبة وجاهز للتوقيع. سترى أنه وفقًا للاتفاق أعطيت نفسى أربع وعشرين ساعة فقط لكى أحصل على توقيع الحاكم على العقد".

استل من جيب صدر سترته مغلفًا طويلاً وأخرج منه صورتين لاتفاق يبدأ بالكلمات: "فى حين أن الأطراف..." .

بعد نصف ساعة، وبمساعدة الأستاذ لبيب-لم تكن مفاجأة أن يكتشف أنه يعرف الرجل المسئول عن المكالمات الدولية - كان الكولونيل مرة أخرى فى غرفته يتحدث إلى جنرال غاضب - والذى : إما أنه قد تم إيقاظه من النوم ، أو تمت مقاطعة جهوده لاستدعاء القدر الكافى من القوة من أجل مناوراته الإسبوعية مع مدام الجنرال. "اطلبنى فى أى وقت نهاراً أو ليلاً،" تذكر الكولونيل جراى ما قاله له الجنرال عندما انضم إلى "الشركة" منذ عدة سنوات - وماذا يكون أكثر أهمية من عقد قيمته مائة وثلاثة وثلاثين مليون جنيه ؟.

"يجب أن تفهم أيها الرجل أننا عندما نقول لك إننا لا نستطيع حذف أى فلس آخر من الفاتورة... نعم، أعرف، أعرف، ولكن كل مرة لعينة تقابل فيها صديقك العزيز الحاكم تمنح أكثر وأكثر مزيداً من أموالنا... عزيزى لمن تعمل، له أم لنا؟...

نصف فى المائة إضافية قبل أن تستطيع - مع بعض الحظ - أن تجعله يوقع هذا غير مقبول ؛ فهذا يعنى... يعنى... " استطاع الكولونيل جراى أن يقدم لرئيسه المبلغ بالضبط الذى ستفقده الحكومة البريطانية

فى حـالة خـصم نـصف فى المائة. "و مـاذا تعنـى "بـبـعض الحظ ؟" هل تريدنا أن نوافق على تقديم نصف فـى المائة إضـافـيـة ، ومع ذلك نحـتـاج أيضًا إلى "الحـظ" - وأبرزت نبرة صوته الكلمة بشدة - "قبل أن يُسمح لنـا بالتـوقـيـع على هـذا العـقـد الكارثة؟" ضـغط الكولونيل جـراى على أسنانه، وقدم للجنرال المعلومات التى تفيد بأن النسبة المئوية تمثل عمولة وسـيط. نتج عن ذلك انفـجـار من الرئيس. "اسـمـع ، جـراى، أنت دومًـا أفـهـمـتنا أن سـمـوه لا يـقـبل الوسـطـاء، وأنهـا البلد الوحـيـد فى الشـرق الأوسط... نعم، أعلم جيدًا أننا نتحدث على خط مفتوح ، ولكن هذا ليس الوقت للف والدوران... حسنًا، إذا كنت مضطرًا فليكن ، ولكن لا تنتظر أى بساط أحمر عندما تعود... هذا العقد كارثة حقيقية ، وهو كذلك منذ اللحظة الأولى التى وضعت فيها قدمك داخل هذا القـصر... حسـنًا، وقع معه مقابل نصف فى المائة ، وأعطه أربع وعشرين ساعة، وليساعدك الرب - ليساعدنا الرب جميعا - إذا لم ترجع ومعك العقد..."

بعد أن عاد إلى قاعة الانتظار، سُرّ عندما وجد أن الأستاذ لبيب قد طلب اثنين كوكاكولا إضافيتين.

"أخذت الضوء الأخضر؟ ممتاز".

كان قد بسط الورق على المـائدة أمـامه. أومـأ الكولـونيل بتـجهم، وأخـذ إحـدى النسـخ ، وقـرأها مـرتيـن، ثم تـأكـد أن الأوراق الأخـرى نسـخـة طبق الأصل . وقـع النسـخـتين وسـلم إحداهـمـا إلى الأسـتـاذ لبـيب - الـذى كـافأه بابتـسامة واسعة.

"غداً – إن شاء الله – ونطق الكلمة بالعربية المكسورة من أجل الكولونيل – سيكون معك العقد الموقع من سموه ".

"سأصدق ذلك عندما أراه." فجأة قام واقفاً، بعد أن عاوده النشاط. "عذراً، أستاذ لبيب، يجب أن أستأذن منك هذه الليلة. كما ترى، على أن أقوم بالترتيبات اللازمة للاحتفاظ بغرفتى، وأيضاً لإلغاء رحلتى غداً."

"لا توجد مشكلة، كولونيل. كل شىء تم ترتيبه ".

صباح اليوم التالى تم استدعاؤه فى القصر حيث قابله الحاكم بدماثة غير معهودة. وكأن تغيير الرأى بين ليلة وضحاها من أكثر الأمور اعتيادا فى العالم، قام سموه بالتوقيع على مجلد الصفحات السميك –والذى شكل العقد بينه وبين وزارة الدفاع البريطانية. عند عودته إلى الفندق، أرسل الكولونيل جراى فاكساً إلى لندن: "الصفقة تمت. أطير إلى أثينا غداً ، ومن ثمه إلى لندن يوم الجمعة. تحياتى جراى ".

رغم أن وجوده فى أثينا لم يكن بأية حال من الأحوال ضرورياً – كان قد غرس فى مكتبه فكرة أن أثينا قد أخذت مكان بيروت – باعتبارها المكان الذى تتم فيه الاتصالات – كان يستمتع بقضاء ليلة أو اثنتين فى الهيلتون. لم يكن على أية حال مستعجلاً للعودة إلى مكتبه، وقضاء عطلة نهاية الأسبوع هادئة فى منزله سيساعده على التفكير فى الخط الذى سيتخذه مع الجنرال يوم الإثنين.

رغم أن حرارة الطقس لا تقل سوى درجة أو درجتين عن الخليج العربى، إلا أن أثينا كانت تختلف من نواح كثيرة بشكل أفضل. خلال الرحلة الطويلة من المطار حدد كيف سيمضى مساءه: سيأخذ حمامًا، يقص شعره (يمكن أن تضاف التكلفة إلى فاتورته)، ثم سيذهب إلى أحد البارات ويتناول قدحًا من الفودكا مع عصير الطماطم الممتاز، أو ربما اثنين، ثم يذهب إلى أحد المطاعم المحلية حيث يعزفون موسيقى البوزوكى، ويرقصون ويكسرون الأطباق.

لم يكد يدخل إلى البار ، ويرحب به النادل حتى تعرف عليه جيرى واجستاف – جونز، واحد من العاملين "فى المجال" ، ولم يكن يحمل له محبة كبيرة. جونز، كما كان يفضل أن يسميه ، كان جالسًا وحده، وكان من الغلظة عدم الانضمام إليه. كان واجستاف – جونز ممثل شركة بلجيكية فى الشرق الأوسط تصنع أجهزة رؤية ليلية من نوع ردىء ، وبفضل الرشاوى الضخمة، استطاع أن يبيع منها كميات هائلة فى العالم العربى كأنها أصبحت سلعة لا يجوز لأية أسرة محترمة أن تعيش بدونها.

السبب الذى جعله لا يميل لواجستاف –جونز هو ما قيل إنه تحدث مرة عن مسئولى مبيعات وزارة الدفاع قائلاً بأن ليس فى جعبتهم إلا حيل خائبة ، ولم يوقف ذلك الكولونيل عن إخراج ما لديه من حيل.

قال الكولونيل جراى إنه يود أن يشرب الفودكا مع عصير الطماطم، وقال للنادل أن يحرص على أن يضيف إليها كمية وفيرة من الفلفل.

"كيف حال الشغل؟" سأل جيرى واجستاف - جونز - والذى كان يشرب ويسكى مالت بالثلج.

"لا مشاكل. وأنت؟"

"ليس هناك من وضع أفضل،" رد واجستاف - جونز، وهو يأخذ ملء يده من الفستق فى الصحن الموجود أمامهما.

سأله واجستاف - جونز: "وصلت لتوك؟"

رد الكولونيل:"منذ ساعتين".

"من الخليج؟" تساءل واجستاف-جونز.

"القاهرة،" قال الكولونيل الذى لا يؤمن بالكشف عن تحركاته. عندما رأى واجستاف - جونز يفتح فمه ليطرح سؤالاً آخر أضاف: "من الظريف العودة إلى أثينا."

"أناس ممتازون هؤلاء اليونانيون،" قال واجستاف - جونز. "الطعام أفضل هنا أيضاً."

"هذا صحيح،" قال الكولونيل وهو يقبض الفستق بملء يده ، ويرفع كوب الفودكا بعصير الطماطم من على صينية النادل إلى فمه مباشرة.

طلب واجستساف -جونز لنفسه مشروباً آخر، ثم أشار للكولونيل للاقتراب: "سمعت تلك النكتة عن اليانكى ؛ الذين أرادوا إرسال شخص فى رحلة إلى كوكب المشترى"

"لا،" رد الكولونيل ؛ الذى كان يأمل أن يحكى عن تلك التى تتناول الأيرلندى الذى عرج كلبه.

"حسنًا، اليانكى كانوا قد جهزوا سفينة فضائية للذهاب إلى المشترى، ولكنهم رأوا أن الرحلة خطرة جدًا بالنسبة لأفرادهم ؛ لذلك طلبوا متطوعين. وقد تقدم إنجليزى وفرنسى ولبنانى، وعندما سئل الإنجليزى عن المبلغ الذى يريده قال مليون..."

"مليون دولار؟" سأل الكولونيل .

"دولار...جنيه،" قال واجستاف - جونز وهو منزعج من المقاطعة. "عندما سأله اليانكى لماذا يريد هذا المبلغ الكبير، قال الإنجليزى إنه يرى أن فرصته فى العودة ليست جيدة ، وهو يريد أن يوفر مصدر إعالة لزوجته . عندما سألوا الفرنسى كم يريد قال مليونان، وسأل اليانكى لماذا مليونان، ورد الفرنسى بأنه يرى أن فرصته فى العودة حيًا ليست جيدة ، ولديه زوجة وعشيقة يريد أن يعولهما - مليون لكل واحدة " .

"و الرجل الثالث، اللبنانى؟" ألح الكولونيل، وهو يحاول أن يتذكر جاهدًا حبكة قصة الأيرلندى والكلب الأعرج .

"ويدخل المتقدم الثالث، اللبنانى. عندما يتم سؤاله كم يريد مقابل سفره إلى المشترى، قال "ثلاثة ملايين". "ثلاثة ملايين"، رد اليانكى، "وكيف وصلت إلى هذا المبلغ؟" "حسنًا"، قال اللبنانى، "نحن نحتاج مليون للإنجليزى - الذى سيذهب على متن المركبة الفضائية، ثم مليون لى ، ومليون لكم". واحذر من فاز بالعقد؟ اللبنانى!" وكاد وجستاف - جونز أن يختنق وهو يضحك ، ويحاول ابتلاع حبة فستق فى نفس الوقت" .

كان الكولونيل جراى يصب ما تبقى من القدح الأول فى الثانى الذى وصل لتوه عندما لاحظ شخصًا واقفًا عند مدخل البار يفحص الموائد المختلفة. انتابه الفزع عندما تعرف على سعد لبيب ؛ والذى – كما تبين له – كان يجلس فى مقدمة الدرجة الأولى على نفس الطائرة. إذا كان هناك شيء يخيف رجل مبيعات سلاح ، فهو مقابلة أحد مصادره وهو فى صحبة رجل مبيعات سلاح آخر. وهو يشحذ تفكيره حول كيفية تقديم سعد لبيب إذا احتاج الأمر، أو لو تظاهر بأنه تعرف عليه بالخطأ على اعتباره شخصًا آخر، شاهد الكولونيل بارتياح اللبنانى وهو يتخطى مائدتهم ، ويذهب إلى البار. شرب بعمق لحظه السعيد (أم كان الأمر حذرًا من الوسيط؟)، ثم سمع رفيقه يقول: "أنت تعرف سعد طبعًا؟"

نظر إلى أعلى بإبهام و، حدق بعينيه نصف مغمضتين ناحية ظهر سعد لبيب وقال: "لا أستطيع أن أقول إننى أعرفه".

"و لكنك يجب أن تعرفه،" احتج واجستاف – جونز ،"الرجل اللبنانى الذى كان يعمل من بيروت. يمكن أن تجده دائمًا عند البار فى الفاندوم. عميل كفء جدا – من النوع الذى يمكنه الحصول على المليون دون الاقتراب من سفينة الفضاء".

" ليس فى مجال عملنا، أليس كذلك؟".

"ليس تماماً. الصديق سعد لا يعرف الفرق ما بين جهاز راصد للحرارة ، وسجادة طائرة." ضحك واجستاف-جونز على نكتته ؛ وهو أسلوب موثوق فيه كان يستخدمه للتأثير على أناس عديدين.

"حقًا؟"

"لكن هذا لا يمنعه من جنى أموال كثيرة من وراء السلاح، أو أى شىء آخر، وكل فلس يحققه فى-" وذكر اسم المشيخة التى جاء منها الكولونيل جراى لتوه.

"صحيح؟" قال الكولونيل جراى متظاهراً باللامبالاة.

"هو وسموه لديهما لعبة صغيرة وعظيمة يقومان بها من حين لآخر. إذا كانت هناك صفقة سيتم إبرامها قريباً، يتصل الحاكم بأثينا ، ويقوم بإحضار سعد على أول طائرة. فى غضون ذلك يكون سموه يمارس لعبته مع وكيل مسكين قارب أن يفقد صوابه من كثرة مطالبه بتقليص من هنا ومن هناك..."

تجرع الكولونيل جراى جرعة كبيرة من قدحه.

"عندما يرى سموه أنه قد خفض كل شىء إلى أقصى حد ممكن ، والوكيل المسكين يسافر جيئة وذهابًا إلى المملكة المتحدة - أو أى مكان آخر- وتتراجع حظوته مع رئيسه فى بلده، يطلب سموه فجأة أن يقابله سريعًا. الجميع يفترضون أن العقد أخيراً سيتم توقيعه، ويصعد الوكيل

سلالم القصر قفزاً، ليجد أن سموه يبلغه أنه قرر فى نهاية الأمر أنه لا يريد الأشياء. إذا قدم الوكيل فى يأس تخفيضاً آخر فى الأسعار، يتظاهر سموه بالموافقة، ولكنه يرفض مرة أخرى التوقيع على الخط المنقط . فى هذه المرحلة من الأحداث يدخل صديقنا سعد لبيب بدرعه الذهبى وهالة متضخمة حول رأسه. يقدم وعداً بأنه سينقذ الوضع مقابل عمولة متواضعة ، لأنه بالطبع لم يعد يبقى الآن لحم كثير على العظام."

"و لكنه على الأقل يبرم صفقة كان يمكن أن تضيع" قال الكولونيل بلامبالاة مدروسة.

"آه، هو يبرم الصفقة بالفعل لأن الصفقة كانت مؤكدة على أية حال. فبحلول هذه اللحظة يكون الحاكم قد قرر أن يمضى قدماً بالصفقة. بعد أن يكون قد نجح فى تخفيض كل فلس ممكن يدخل الصديق سعد إلى اللعبة. من وجهة نظرهم ليس هناك ما يمكن خسارته. إذا نجح سعد مع شخص غبى للحصول على ربع فى المائة ؛ فهذا ممتاز وهو والحاكم يقتسمان العمولة – ولسعد طرقه فى رد هذه الجمايل الصغيرة. إذا رفض الوكيل اللعب ؛ فالحاكم يمضى قدماً على أية حال ، ويوقع العقد كما هو، وهو وسعد يجربان لعبتهما فى صفقة أخرى."

بلع الكولونيل كأسه، وأشار لنادل كان يمر بقربهما: "نفس الطلب."

أحس الكولونيل جراى أن ذهنه لم يكن حاداً بالقدر الكافى لكى يستوعب ما قيل له. متحدثاً ببطء وبغلظة أكثر مما كان يود، أعاد باختصار قائلاً:

"ما تقوله هو إنه عندما يظهر صديقنا (الجالس هناك) فى الأفق؛ فهذه علامة على أن سموه على وشك التوقيع على الخط المنقط. كل ما عليك أن تفعله هو أن تلعب برباطة جأش مع سموه ، وأن ترفض تملق صديقنا ، وتوفر على نفسك عمولته"

وافق واجستاف -جونز وهو يغرف ما تبقى من الفستق قائلاً: "باختصار أنت على حق يا عزيزى".

(٦)

بريتشارد

رن جرس التليفون ، وسأل صوت مرتعش عما إذا كنت أنا الذى أرد أو لا. قلت، "أنا المتحدث"، وانتظرت.

بعد تردد قال المتكلم لى أن اسمه بريتشارد ، وأن مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية أعطته اسمى باعتبارى شخصًا يعطى دروسًا فى اللغة العربية.

قلت: "كان هذا منذ وقت مضى".

الآن أرى أن التعليم من أقل سبل العيش المجزية ماديًا.

"آه، كنت آمل... قرأت مؤخرًا مقالتك حول القصة القصيرة العربية وكنت أود جدًا..."

لأنه لم يكمل حديثه كنت مضطرًا لملء الصمت، فسألته عن المستوى الذى وصل إليه.

قال: "آه، أنا فقط هاو متحمس. أستطيع قراءة جريدة بصعوبة وبمساعدة قاموس-استخدم "فير" ، لعلك توافق أنه أفضل الموجود- ولكنني كثيرًا ما أصادف عبارات ، أو جملاً بأكملها يصعب عليَّ فهمها..."

كان من عادته أن يقف فجأة في منتصف الجملة ويحمل محدثه عبء إكمال الحوار. وقبل أن أمعن التفكير كنت قد اتفقت معه على سعر الساعة لدرسين في الإسبوع، يوما الإثنين والخميس، بدءًا من الإثنين القادم.

لم أكد أضع سماعة التليفون حتى ندمت على رضوخي.

عندما ظهر الأستاذ بريتشارد عند باب الشقة يوم الإثنين في الساعة السادسة. كان يبدو مسنًا أكثر مما أوحى صوته على التليفون. كانت شقتي في الدور الثاني ، ولم يكن هناك مصعد، وعندما فتحت الباب بدا كشخص على وشك أن يتهاوى نتيجة إجهاده لنفسه بشكل زائد.

قال وهو يلهث معرفًا بنفسه :"بريتشارد،" ، ومد يدًا كالمخلب. "إنه من بالغ لطفك أن توافق على إعطائي دروسًا،" وأضاف في نفس واحد وهو يسقط في الكرسي . "و أرجو ألا أكون قد ألححت عليك أكثر مما ينبغي."

غمغمت ردًا عليه، وجلست في الكرسي الآخر الذي كانت بجواره مائدة صغيرة كنت قد رتبت عليها مجموعة من الكتب العربية وجريدة حديثة. نظرت نحو تلميذي ، وخمنت أنه في أواخر السبعينات أو حتى أوائل الثمانينات. رغم طوله وبنيته القوية، كان مظهره يوحي بهشاشة

بالغة ؛ حيث بدا جلده وكأنه مشدود بشكل زائد عبر المساحة الواقعة بين كل عظمة وأخرى.

تعجبت للجهد الذى كان عليه أن يبذله لكى يأتى عبر لندن من الفندق الواقع عند "كرومويل روود" حيث قال لى إنه يعيش.

و كأنه يقرأ أفكارى قال. " عندما أخرج من حصن فندقى هذه الأيام استخدم خدمة سيارات الأجرة الممتازة فى لندن. إنها رفاهية صغيرة أسمح بها لنفسى-تنازل مقابل تقدمى فى العمر... يا لها من عبارة سخيفة، "تقدم العمر" وكأن السنين يمكن أن تتراجع!"

ضحكنا نحن الاثنين ، ثم أعطيته الجريدة وطلبت منه أن يقرأ بصوت عال الفقرة التى كنت قد علمت عليها. بهذه الطريقة كنت سأستطيع أن أحدد سريعًا مدى معرفته للغة. فوجئت بدقة قراءته، وقدرته حتى على القراءة الصحيحة لحركات الإعراب فى نهاية الكلمات. لكن تلفظه غير الواضح كان أكثر ظهوراً عندما تحدث بالعربية ، وكان من الصعب علىّ أن أتابعه . توقف من تلقاء نفسه وأنزل الجريدة.

قال لى. "منذ عام أو عامين أصبت بجلطة غير خطيرة ، وعلى أثرها أصبح نطق بعض الحروف العربية أكثر صعوبة بالنسبة لى، ولكن هذا لا يعنى أننى نجحت أصلاً فى نطق كثير منها."

قلت وأنا أحاول ألا أبدو متفضلاً: "لديك تمكن جيد جداً فى اللغة".

"لا، أنا مدرك تمامًا للثغرات فى إدراكى. على أية حال، ألا يقول العرب إن الكمال لله وحده؟"

قلت: "هذا صحيح".

"كما ترى، لم أحظ بتعلم اللغة فى الجامعة أو إجادتها.

إنها لغة صعبة للغاية لمن يحاول تعلمها وحده ، كما حاولت أنا خلال الأعوام القليلة الماضية. أثناء خدمتى فى السودان كان مطلوباً منا تعلم ما يكفى لنتدبر أمرنا، بل كان علينا أن نختار سلسلة من الامتحانات قبل الحصول على الترقية، لكن لم يكن هناك تشجيع كثير ، أو حتى وقت للتمكن من تفاصيل ودقائق اللغة الفصحى."

ثم حكى لى أنه كان لديه كاتب اسمه عبده إبراهيم ،كان شديد الإعجاب بالشاعر أبى نواس، الشهير بأشعاره التى تمتدح النبيذ. كان يبدو أن عبده إبراهيم اعتاد أن يشبع حبه ورغبته فى الخمر ، وكان الأستاذ بريتشارد كثيراً ما يتغاضى عن وصوله للعمل فى حالة يرثى لها.

مال إلى الوراء فى كرسيه مغمضاً عينيه وألقى بلغة عربية جهيرة بيت أبى نواس الشهير الذى يقول.

"دع عنك لومى فإن اللوم إغراء   وداونى بالتى كانت هى الداء."

"هذا هو الشعر!" قال بحماس، ثم أضاف: "حاولت مؤخراً قراءة بعض ما يسمى بالشعر الحديث.

وجدت صعوبة فى فهمه، وما فهمته لم يترك لدى انطباعاً يذكر".

قلت إننى أوافقه الرأى، ثم تذكرت أننى أنا المدرس ، وأن الدرس قد أفلت من بين أيدينا، بل لم يكد يبدأ بعد ، والساعة قد قاربت على الانتهاء. عقدت العزم على أن نبدأ العمل بجدية فى الدرس المقبل، وعرفت منه أنه لا يعرف السيرة الذاتية الممتعة للأديب المصرى طه حسين ؛ ولذلك أبلغته أننا سنقرأ معًا الجزء الأول من الأيام؛ وهو الجزء الذى يتناول طفولته فى قرية من صعيد مصر. كان على مستر بريتشارد أن يعد عدة صفحات ثم ندرسها خلال الحصة. قلت له إن الكتاب يمكن الحصول عليه من أحد محلات شارع "جريت راسيل".

رغم أن تقدمنا اللاحق فى سيرة طه حسين الذاتية كان بطيئًا، إلا أن كلينا – على ما أعتقد – استمتع بالتجربة. تخللت القراءة أسئلة عديدة من المستر بريتشارد حول دقائق النحو ، وحول الأسلوب الخاص، المميز بترداده الجذاب للأديب الكفيف، وحول تفاصيل حياة الرجل العظيم اللاحقة وكتاباته الأخرى. بدأت أدرك أن الدروس بالنسبة لتلميذى كانت تعنى أكثر من مجرد الإضافة إلى مخزونه اللغوى: كانت تمثل علامة بارزة خلال إسبوعه الخالى من الأحداث الهامة.

كان شديد الحرص والدقة ألا يأخذ من وقتى أكثر من الساعة المحددة، وكان يأتى ومعه مغلّف به المبلغ المتفق عليه بالضبط، يتركه على المائدة قبل أن ينهض للانصراف.

ثم فى إحدى الأمسيات بعد أن انقضت الساعة، سألته إذا كان يحب أن يشرب قهوة، فنجان من القهوة التركى. أشرقت عيناه "هل لديك كنكة؟"

"نعم عندى كنكة؟"

"و من أين استطعت أن تشترى هذا النوع الخاص من البن؟"

قلت له إن هناك عدة أماكن فى "سوهو" وغيرها .

رشف قهوته بسعادة بالغة. قال: "تعيدنى إلى الماضى،" ومرت ظلال عبر وجهه المتعب. ظننت للحظة أنه سيستغرق فى الذكريات ، ولكن يبدو أنه كبح نفسه. حين لمحت أن القهوة لاتزال ساخنة مما لا يسمح بشربها إلا فى رشفات، سألته إذا كان يتذكر المصطلحات التى تحدد درجات الحلاوة المختلفة عند طلب تقديم القهوة. من الواضح أنه وجد متعة بالغة فى حرث ذاكرته بحثًا عن الكلمات المختلفة.

"و بالنسبة للقهوة الخالية من السكر تمامًا؟"

تردد ثم قال متنصراً: "سادة،" وجذب نفسه وقام واقفًا ، واعتذر عما أخذه من وقتى ووضع المغلّف الجاهز بجانب فنجان القهوة.

مع استمرار الدروس حرصت أن أخصص ربع الساعة الأخيرة لنتناول القهوة معًا. أحيانًا، وربما بسبب مسألة لغوية تمت إثارتها، كنت أسأله عن بعض مظاهر الحياة في السودان ، وكان يحكى – بشكل أقرب إلى الاعتذار، إحدى النوادر ، التى كان يتذكرها. "كان الواحد يشعر فى تلك الأيام أنه فى قلب الحياة، " علق فى إحدى المرات " وليس...ليس...". وبسبب غياب الكلمات ، أو بسبب عدم رغبته فى

إزعاج نفسه (أو إزعاجى)، اكتفى بقبض يديه الكبيرتين أمامه فى إيماءة تعبر عن النهاية المؤلمة.

مع الوقت بدأت أشعر بأننى أُدفع بمكر للقيام بدور أكثر وأكثر أهمية فى حياته القاحلة، دور لم أكن راغبًا ولم أكن مؤهلاً للقيام به. فى الوقت ذاته ، شعرت بمحبة متزايدة تجاه الرجل العجوز؛ والذى – كما كنت أقول لنفسى، إلى جانب كونه يكبرنى بعدة أجيال، كان مختلفًا عنى تمامًا.

كنا فى منتصف المسافة من الجزء الأول لسيرة طه حسين الذاتية عندما قال فجأة، وهو يشرب قهوته بعد الدرس: "أتتذكر فى إحدى المرات صديقًا سودانيًا قال لى إنه إذا لم يكن قد ولد سودانيًا، فإنه كان يود أن يكون إنجليزيًا. كان رجلاً استثنائيًا – شخص مثل طه حسين، صعد من أصول متواضعة–و اعتبرت ذلك إطراءً كبيرًا لنا. أجبته بالمثل: إننى إذا لم أكن إنجليزيًا كنت سأختار أن أكون سودانيًا. هذا لم يكن إطراءً فارغًا منى. كنت أعنى ما قلته... أنا فعلا أحببتهم وأعجبت بهم بشكل كبير جدًا. كنت أرى دائمًا أنه من المؤسف أنهم والإنجليز لم ينجحا فى التقارب من بعضهما البعض بعد أن رحلنا".

أخرج بعض تفل القهوة من فمه بإصبعه ومسحه على جانب صحن الفنجان.

"إذا كنت أمتلك أى قدر من الشجاعة–و أعنى الشجاعة الحقيقية، وليس فقط تلك التى يعطون الأوسمة مقابلها – كنت قد بقيت فى

السودان. ففى نهاية الأمر، أكون هناك حيث يوجد قلبى... فبدلاً من أن أكون متقاعداً ، وأتحول إلى رجل عجوز مما أنهى حياتى فى فندق فى شارع "كرومويل" حيث لا يوجد سوى لعبة البريدج والنميمة، كان على أن أترك الخدمة وأشترى لنفسى عدة أفدنه ومنزلاً ريفيًا صغيراً فى مكان ما... كان يمكننى حينذاك أن أجد لنفسى فاطمة أو زينب ، حسنة القوام-و إذا كان ذلك يعنى أن أكون مسلمًا، فما الضرر فى ذلك؟ يمكننى أن أتصور أشياءً أسوأ بكثير من أكون مسلمًا يخاف الله ويستيقظ مع الفجر لأداء أولى صلوات اليوم."

نظر لى نظرة رجل لرجل من تحت حواجبه الكثيفة. "لا شك أن فاطمتى هذه كانت ستدفعنى إلى القبر مبكراً -فالنساء السودانيات مشهورات بشهوتهن - ولكن لا معنى لقياس الحياة بالسنوات... الحقيقة المحزنة هى أن الواحد يمكنه أن يعيش أكثر من اللازم... يمكنه أن يعمر أكثر مما ينبغى".

اختلست نظرة إلى ساعتى ، فتبينت أننا تخطينا وقتنا بعشر دقائق. خطر لى أنه نادراً ما يتحدث بهذه الصراحة لأى شخص، وأنه بعد أن تغلب على تردده الطبيعى للحديث عن نفسه كان يود أن يستمر. من ناحيتى كان يتبدى لى جانب آخر من الرجل العجوز، وشعرت أن الوقت الذى أقضيه فى الاستماع إليه لم يكن وقتًا ضائعًا.

قلت: "لا يبدو هذا لائقًا بموظف إنجليزى يخدم فى السودان".

قال بتحمس: "آه، الإنجليز كانوا سيكرهون ذلك منى تمامًا! كانوا سيقولون فى نواديهم المختلفة: "المسكين بريتشارد أصبح مثل السكان

المحليين". ولكن ماذا كان يمكنهم أن يفعلوا؟ لا شيء . وإذا كان هذا ما كنت أريد أن افعله ببقية حياتي، فكان على أن أقدم وأفعله...أغلبنا يخاف بشكل زائد مما سيقوله الآخرون ؛ وهو ما يمنعنا من القيام بشيء يعتبر غير مألوف. وهذا الجبن - كل جبن - يُدفع ثمنه غالياً" .

حدّق أمامه على نحو حالم للحظات، غافلاً على ما يبدو عن وجودي، ثم قام واقفًا وانصرف ليبحث عن تاكسي.

في أحد الأيام، وأنا أبحث في أرفف كتبي، وجدت نسختين من كتاب مدرسي صغير بالعربية - كنت قد أعددته ، وطبعته في القاهرة منذ سنوات عديدة مضت.

قلت له في نهاية الدرس اللاحق وأنا اقدم له الكتاب: "فكرت أنك ربما تود أن تكون لك نسخة" .

أخذه بشكل يكاد يتسم بالتبجيل. "هل أنت متأكد أنه يمكنك الاستغناء عنه؟" نظر إلى الصفحة التي بها العنوان مضيفًا. "هل يمكنك كتابة شيء فيها؟"

لم يدر بخلدي احتمال أن يطلب مني هذا الطلب، ومكثت للحظات حائراً فيما أقول. ثم استعرت قلمه وكتبت:

"إلى مستر بريتشارد، اعتزازاً بالصداقة." ووقعته وأضفت التاريخ.

قرأ ما كتبته وابتسم. "هذا لطيف منك جداً. سأعتز به."

قام واقفاً وشد على يدى.

قلت: "إلى يوم الإثنين".

"إن شاء الله،" أجاب بطريقة دقة المسلم التقى الذى يتحاشى الحديث عن أى شىء فى المستقبل دون إضافة هذه العبارة.

تجاوبت معه قائلاً: "إن شاء الله".

لكن الله لم يشأ أن يكون بيننا درس آخر. فى يوم الإثنين، قبل السادسة بقليل، رن التليفون وأبلغتنى امرأة أنها مديرة فندق كنجزلى، وقالت إن السير هيو بريتشارد قبل أن ينقل إلى المستشفى مصاباً بأزمة قلبية طلب منها أن تتصل بى لتبلغنى أنه لن يستطيع الاستمرار فى الدروس. ثم أضافت: "يؤسفنى أن أبلغك أن السير هيو توفى داخل عربة الإسعاف وهو فى طريقه إلى المستشفى. سيفتقد جميع العاملين هنا هذا الجنتلمان العجوز."

أفسحت له جريدة التايمز مكاناً بارزاً فى عمود الوفيات. بعد تفصيل حياته المهنية البارزة، ختمت بذكر أن زوجته توفيت منذ سنوات عديدة مضت "فى ظروف مأساوية" وأن ابنه الوحيد قتل فى معركة بشمال أفريقيا. ومع ذلك أعتقد أن عدداً قليلاً من الناس حضروا جنازته. وباعتبارى أفضل صديق له عند وفاته - كما اعتقد - كان المفروض أن أبذل جهداً للحضور.

(٧)

فتاة القمامة

من حين إلى آخر كنت أرفع عيني من على الآلة الكاتبة، وأنظر إلى أسفل من خلال تشابك الأغصان العارية ، والتي ستحمل فيما بعد خلال الصيف سجادة قرمزية من زهور شجرة البونسيانا .

على بعد عدة أقدام فوق المباني الشاهقة ، التي كانت تصطف على طول ضفاف النيل تعلقت طبقة من ضباب التلوث رمادية اللون ، مكونة قبة ضخمة كانت بمثابة أداة تخفيف لأشعة الشمس .

في كل مرة – حينما لم يكن هناك ما يدل على وجود هذه البنت، كنت أعود إلى عملي، لكن ذهني لم يكن مركزاً عليه إلا نصف تركيز. كانت هذه هي الفترة من اليوم – منتصف النهار– التي تظهر فيها هي وأخوها الصغير ، والعربة التي تجرها الحمير، وإن كانوا أحياناً يغيبون يوماً – ليس بالضرورة يوم جمعة المسلمين ، أو يوم أحد المسيحيين . ثم فجأة ، رن صوت جرس الباب.

قمت من مكانى وهناك على مبعدة، أربعة طوابق إلى أسفل، رأيت العربة المتهالكة بحماريها الاثنين المليئين بالقروح. كانوا قرب نهاية جولتهم ، والعربة قاربت على الامتلاء بالقمامة. كانت تحيطها حلقة من القطط التى تعاركت فيما بينها وهى تدفع أطرافها بحذر شديد فى القذارة وأحيانًا تنجح فى إخراج شىء ما بين مخالبها لتأكله. كنت أرى أخاها الأصغر، والسلة تتدلى على كتفه ، وتكاد تحتك بالأرض، وهو قادم من الفيلا الكبيرة أمامنا تاركًا وراءه ذيلاً من أوراق الخس والقطن المتسخ.

وقفت عند الباب ، وسلتها نصف المملوءة عند قدميها. لمحت المنديل المتسخ حول رأسها ؛ والذى كان قطعة باتيك اشتريتها مرة فى بانكوك وأعطيته لها. ابتسمت لى بفمها المضموم. كانت فى الرابعة عشر أو ربما أقل، ولكن بالمعايير الغربية لم تعد طفلة. عيناها الكبيرتان الجميلتان كانتا تطالبان بأن ينظر إليها كامرأة - امرأة استطاعت أن تبدو بشكل ما منفصلة عن القذارة التى كانت تعمل بها. كانت طويلة ونحيلة ، وكانت لها طريقة فى المشى تعمل على إبراز ثديين نبتا حديثًا ويضغطان على صدر الجلابية الملطخة. تحتها كانت عارية تماما كما ولدتها أمها، ففى إحدى المرات انحنت لكى تلتقط قشرتى بيض كانتا قد وقعتا عن سلتها، وظل منظر فخذيها حنطى اللون ومؤخرتها عالقًا فى ذهنى.

"شوف رجلى،" سمعتها تقول وأنزلت عينى عن صدرها إلى قدميها. رفعت قدمًا واحدة ورأيتها ملفوفة بخرقة متسخة. "قطعة

زجاج جرحتني،" قالت لي موضحة وهي تزيح الخرقة جانبًا لكي أرى الجرح العميق في مشط قدمها.

قلت لها أن تعتني به، أنه ليس معي شيء لتضميده ، ولكن عليها أن تجد مطهراً. ابتعدت عنها ، وبحثت في جيبي عن نقود. قلت لها : "أذهبي إلى الصيدلي بعد الميدان ، وسيعطيك شيئًا للجرح."

"كانت قطعة زجاج،" قالت لي مرة أخرى وهي تأخذ الورقة النقدية ثم تذكرت أنني كنت قد ادخرت بعض الحلوى لها، فعدت إلى غرفة المعيشة وأحضرتها. أخذتها بدون حماس ؛ كانت تعرف ما هي: الحلوى التي يعطيها البقالون في القاهرة بدلا من الفكة ؛ لأن القروش أصبحت - بفعل التضخم - تساوي كمعدن أكثر من قيمتها الاسمية. بعض مليونيرات القاهرة الجدد ذوو الوجوه الجامدة - يحصلون على الأموال التي يبتاعون بها قمصانهم الحريرية ، وأحذيتهم الإيطالية ذات الطرف المدبب عن طريق إذابة هذه العملات المعدنية القديمة. كان البقالون يعطونك الفكة في شكل عُلب ثقاب أو حلوى، ومنذ أن عرفت "سهى" بدأت أخذ فكتي في شكل حلوى.

قلت لها مرة أخرى: " احرصي على قدمك"، ثم أضفت: "يجب أن تلبسي حذاء".

نظرت لي نظرة تقول سألبس حذاء عندما يقوم شخص مثلك بإعطائي زوجًا من الأحذية.

"يوما ما - إن شاء الله - سأعطيك نقوداً لتشتري زوجًا من الأحذية."

سألت: "أليس عندك حذاءً قديما ، حذاء لا تريده؟"

قلت: "سيكون كبيراً جداً عليك".

قالت وهي تضحك: "أفضل من أن يكون صغيراً عن اللازم".

تذكرت الحذاء القماش الذى بدأ يتآكل عند الأصابع. سيكون مقاسه ضعف مقاس قدمها ولكن يمكنها أن تخطو فيه وسيوفر لها قدراً من الحماية. أخرجته من قاع الدولاب فى غرفة النوم وأعطيته لها.

تفحصته ووضعت إصبعها فى الثقب مكان أحد أصابع القدم وكأنها تشير أن هذا لا يعفينى بشكل من الأشكال من وعدى بإعطائها نقوداً لشراء حذاء جديد.

قالت: "شكراً" ، ووضعته فوق قمامتى.

"هل تمرين غداً؟"

قالت: "إن شاء الله". ابتسمت لى ابتسامة بدت كأنها تسحبنى عميقاً إلى داخل مجرى عيونها.

قلت "إن شاء الله" ، وأغلقت الباب وراءها.

وقفت فى الشرفة وشاهدتها وهى تفرغ قمامتى وقمامة الجيران داخل العربة. والعربة تسير فى الشارع وتدور لتدخل الميدان، قفزت القطط عنها بعد أن وجدت نفسها فى أرض غريبة. عدت إلى الآلة الكاتبة ، وحاولت الاستمرار فى الموضوع الذى كان يجب أن أنجزه فى

موعد نهائى محدد. بدلاً من ذلك قرأت الجملة الأخيرة، ثم استرحت وأشعلت سيجارة وفكرت أنه فى يوم ما يجب أن اكتب تحقيقًا صحفيًا حول جامعى القمامة فى القاهرة ومئات العربات التى تجرها الحمير والتى كانت تجمع القمامة ثم تلقيها على جانبى الأحياء العشوائية عند أطراف المدينة. لسنوات والحكومة تفكر فى إدخال عربات القمامة الحديثة ، وإعادة تدوير القمامة - كما يحدث فى الحواضر الأخرى - ولكن الحسابات كانت دائمًا غير مجدية. فكيف يمكنك التنافس مع قبيلة من الرجال والأطفال يجمعون قمامة المدينة مقابل بقشيش بسيط من أصحاب المنازل؟ كانوا يقودون عرباتهم من تلال المقطم ، ومن أكواخهم القذرة المبنية حول تلال القمامة. إذا كنت فى طريقك إلى المطار وطلبت من التاكسى أن يسلك طريق صلاح سالم، ماراً بالقلعة وجامع محمد على، فيمكنك أن ترى الحمير الصغيرة المنهكة وهى تكدح لتصعد المنحدر الحاد قبل أن تستدير إلى داخل تلال المقطم. هناك كان جامعو القمامة يقومون بفرز قمامة القاهرة ، وإطعام جزء منها للخنازير التى يربونها؛ كان يقال إن جميعهم من الأقباط ، فلن يجرؤ أى مسلم على الاقتراب من خنزير سواء كان ميتًا أو حيًا. كان يقال أيضًا إن الشخص الذى لا يعرف أوضاع تربية الخنازير ، وما يتم إطعامها به هو الوحيد الذى يمكن أن يفكر فى أكل لحم الخنزير فى القاهرة. كان جامعو القمامة يثيرون تعاطف مجتمع الأجانب، ومنذ بضعة أيام كان هناك موضوع فى الجريدة الإنجليزية حول زيارة زوجة السفير لهم ، وأن هناك شخصية مماثلة للأم تريزا تكرس لهم حياتها. كل أصدقائى

المصريين قالوا إنهم لا يستحقون أية مساعدة ؛ لأنهم يتدبرون أمرهم جيداً عن طريق الاحتكار الغريب الذى يمارسونه. ربما يحتوى الأمر على موضوع جدير بالتحقيق، وربما أقوم يوماً ما بالذهاب إلى تلال المقطم وأرى الأمر بنفسى. وربما يمكننى ترتيب زيارة لسهى وعائلتها هناك.

هل يمكن لرجل ناضج بما فيه الكفاية، وصل إلى ما يسمى تلطيفاً بمنتصف العمر، أن يقع فى غرام جامعة قمامة فى الرابعة عشر من عمرها؟ هل يمكن أن يسمى ذلك حباً؟ كثير من الناس سيعتبرون هذا الإحساس غير طبيعى انحراف – ولكنهم مخطئون. لكن ربما يجب ألا نسميه حباً، فهو إحساس أكثر إقلاقاً من ذلك، إحساس لم يطلق عليه اسم بعد. ربما أن نوعاً خاصاً فقط من الناس معرض لهذا النوع من الإحساس. يمكن لرجل أن يعيش مع امرأة كل سنوات حياته، قد تتعدد علاقاته الغرامية، ورغم ذلك قد لا يعرف أبداً هذا الألم اليائس الذى يربط ما بين القلب والجسد. لهؤلاء المعرضين لهذه اللعنة، كم مرة يمكن أن تتكرر فى العمر؟ بالنسبة لى حدثت ثلاث مرات مرة مع زوجة رئيس أبى فى العمل عندما كنت فى الرابعة عشر من عمرى وكانت هى تقترب من سن اليأس ، ثم مؤخرا، مع فلاحة تركية من قبرص كانت تصنع جبن الحلوم ومتزوجة من راعى غنم – كان قد أمضى فترة فى السجن لطعنه شخصاً عاكسها. ثم هناك المرأة ، التى جلست أمامى مع ولد مراهق والتى شاركتنى نفس العربة فى مترو الأنفاق بين محطة "راسيل سكوير" ومحطة "جرين بارك"، ثم وقفت على الرصيف

وتسمرت عليها أنظارى حتى اختفى القطار فى طريقه إلى "هايد بارك كورنر". والآن هاهى سهى الطفلة ذات الصدر البازغ ، والأفخاذ الملفتة، والسلة المليئة بالقانورات المعلقة حول رقبتها ، والتى تدق جرس بيتى يومياً.

هذه المشاعر التى لا تعرف اسمًا بعد، تنمو وتترعرع على غذاء وحيد من أحلام اليقظة. ولأن هناك اقتناع غير معترف به فى أعماقنا أن هذا النوع من المشاعر لن يجد تحققًا له فى الواقع، فأحلام اليقظة تنطلق لتتجاوز حدود التصديق. لذلك منذ أن وقعت عيناى على سهى، تصورت فى ذهنى عدداً لا حد له من المواقف الممكنة وغير الممكنة بيننا: وهى تأخذ حمامًا سريعًا وتلحق بى فى الفراش، فى حين ينتظرها أخوها تحت وهو يتساءل داخل أى شقة اختفت ؛ وهى تنجح بشكل ما فى الهروب من جولتها اليومية وتذهب سراً إلى شقتى لقضاء ساعة، ليلة، إسبوعًا. بل تصورت نفسى آخذها فى تاكسى إلى المطار حيث نلحق برحلة الخطوط الفرنسية الإسبوعية إلى "نيس". ثم أكسوها بثياب البوتيكات فى "الريفيرا" وأسير معها على طول "البروميناد ديز أنجليه". كانت أحلام اليقظة لا نهاية لها، ولكن كوابيس اليقظة (هل قمت بنحت كلمة جديدة؟) كانت أيضا مليئة بالغيرة إلى ما لا نهاية، فألم يكن هناك آخرون أيقظت فى قلوبهم وهى تقوم بجولاتها ما أيقظته عندى من مشاعر ، أولم يحظ بعض منهم أكثر جرأة منى بأشكال لا تتصور من الوصال ؟

قطعت على نحو مفاجئ على صورة سهى وهى تقف عارية تحت المياه ، وأرغمت نفسى على العودة إلى الموضوع الذى كانت جريدتى قد طلبته.

مر يومان دون أن يأتى أحد من أجل القمامة. أصبح الطقس أكثر حرارة ، وبدأت رائحة العفونة تتزايد فى المطبخ. ثم فى اليوم الثالث دق جرس الباب وعندما نظرت إلى الشارع فى الأسفل، كانت العربة والحماران هناك، كذلك أخوها وهو يقذف الحجارة على القطط الباحثة عن الطعام. ولكن عند الباب وجدت شخصًا لم أره من قبل: رجلاً صغيراً أعور. ورغم أنه كان يبدو أصغر سنًا، قال لى إنه والد سهى، وإنها مريضة فى المنزل وقد ذهبت إلى الطبيب الذى قال إنها تحتاج إلى تدخل جراحى، وإنه يريد عشرين جنيها مقابل ذلك. ردد كل هذا كأنه حفظه عن ظهر قلب.

قلت له : "أنا آسف لأخبار أبنتك"، وعبثت فى جيبى ، وأعطيته ورقة من فئة الخمسة جنيهات.

سأل وهو يرفع عينه السليمة تجاه الورقة: "و الباقى؟ من أين آتى بالباقى؟"

فكرت سريعًا، ثم أخذت الورقة النقدية من يده ودخلت إلى غرفة النوم وبحثت فى جيب سترتى.

عدت ومعى ورقة من فئة عشرة جنيهات وأعطيتها له. بدت عليه الدهشة أكثر من الامتنان.

قال: "أطال الله فى عمرك".

قلت: "ألله يشفى بنتك" ، وأحضرت له القمامة من المطبخ ثم عدت إلى الآلة الكاتبة. كنت قد أرسلت الموضوع حول الزراعة فى مصر ، وكنت أحاول الآن كتابة فقرة نهائية لروايتي الأخيرة – التى فات موعد إنهائها.

مر أسبوع ، والعربة التى كانت سهى وأخوها يتوليانها تم تبديلها بعربة أخرى يتولاها ولدان مظهرهما خشن وكلامهما فظ، وكانا يبدوان كأنهما توأم. سألتهما عن سهى ، فقالا إنهما لم يسمعا بها أبداً، ذكرت فتاة صغيرة السن جرحت قدمها ولكنهما لم يعرفا شيئًا عنها أيضًا. أخذ أحدهما منى خمسين قرشًا وجاء بشكل دائم يوميًا فى الساعة الحادية عشر، كان أكبر حجمًا وأكثر امتلاء ، كما كان لهما سيور جلدية بدلا من السيور السلك التى كانت تجرح جلد حمارى سهى النحيفين.

ثم ظهر الرجل الذى قال إنه والد سهى مرة أخرى. لم يحاول تلطيف الصدمة ، ولكنه قال مباشرة إن سهى ماتت، إن قدمها كانت قد تورمت أكثر فأكثر وإنها أصيبت بالغرغارينة، وإنها ماتت. كان يريد الآن أموالاً لدفنها. أعطيته عشرة جنيهات وأغلقت الباب فى وجهه. أمضيت باقى النهار محدقًا أمامى فى أغصان شجرة البوانسيانا ، وأنا أتساءل إذا كان جامعو القمامة يستخدمون التوابيت.

بعد ذلك بنحو شهرين، وكنا في عز الصيف وسعر مانجو "تيمور" قد وصل إلى أدنى حد له. كنت أسير في ميدان المساحة مثقلاً بكيسين محملين بالبقالة، و تبهني صياح وسحابة من التراب أن هناك مباراة كرة قدم تجرى في الشارع الذى يفصل بين قطعتى أرض من العشب اليابس وأحواض الزهور غير الكثيفة. وأنا أقفز جانبًا بصعوبة لكى أتفادى الكرة التى كنت متأكداً أنها مصوبة نحوى، رأيتها تجلس وراء أحد أكوام الملابس التى كانت تحدد مكان عارضة المرمى. بجلال كليوباترا نفسها وهى فى مركبتها الكبيرة، جلست سهى على عربتها وقدماها تستندان على العجلة الأمامية اليسرى. كانت تنفخ فى سيجارة، والدخان يتلوى صاعداً فى الهواء الساكن على شكل ريشة لونها رمادى مزرق نحو منديلها الأحمر المعقود حول رأسها. رغم أن نظرها كان مصوباً ناحيتى إلا أنها لم تبد أية إشارة تنم عن أنها رأتنى. بدأ قلبى يخفق بعنف وزاد إحساسى بحبال الكيسين وهى تقطع فى كفى. ثبت أكتافى وحاولت أن أمشى بخطى واسعة كأننى غير واع بوجودها، ولكن عندما وصلت إلى مدخل شارعى أحسست بالخور يدب فى قدمى. فجأة، وكأن حجراً يثقل صدرى، وجدت صعوبة فى التنفس. خفت للحظات أن يكون هذا هو الشعور نفسه المصاحب لبداية أزمة قلبية.

توقفت وأسندت الأكياس الثقيلة على الأرض. ألقيت نظرة ورائى إليها ورأيت أنها تنظر فى اتجاهى. كان قوامها الطويل المشوق يبدو واضحًا ، ووراءه السماء الآخذة فى الإظلام ؛ كانت يدها التى تمسك

السيجارة ترتاح على خدها. حملت الأكياس ومشيت إلى الأمام عدة خطوت. عندما التفت إلى الوراء مرة أخرى كانت عمارة جديدة تحت الإنشاء فى ركن الميدان تحجبها عن الرؤية. بحزن عميق، وبإحساس بحنين إلى ماضٍ مألوف لى تمامًا ، عرفت أننى لن أراها مرة أخرى أبداً.

(٨)

قهوة في الماريوت

لم يجمع إيفا وأمندا أي شيء مشترك سوى أنهما إنجليزيتان تزوجتا من مصريين. الزوجان أيضًا لم يجمعهما الكثير: جلال حافظ، مسلم ، وأستاذ التاريخ المصري في العصور الوسطى في إحدى الجامعات الحكومية في القاهرة، في حين أن رمسيس ندا قبطي، يعمل بنجاح في مجال السياحة وخاصة مع ألمانيا وإيطاليا - كان الأول بالطبع يتلقى أجرًا ضعيفًا، ولكنه نجح في تدبير دخل إضافي إلى جانب راتبه الضئيل عن طريق كتابة كتب ومقالات ، والقيام بمهام في لجان مختلفة، في حين كانت زوجته تقوم بالتدريس في واحدة من مدارس اللغات الإنجليزية - التي أصبحت رائجة حديثًا؛ في الواقع كان راتبها يوازي تقريبًا نفس راتب زوجها. من ناحية أخرى، أصبح رمسيس ندا، الذي كانت له مصالح متعددة في قطاع السياحة، من قطط القاهرة السمان، وله سيارة بي أم دبليو ٧٥٧ كبيرة، أعتاد أن يركبها وهو يتحدث في تليفونه المحمول.

سكنت إيفا وزوجها فى شقة متواضعة فى الجزء الأقل ثراءً من جاردن سيتى؛ عاشا حياة خالية من الهموم المالية ، ولكن بدون كماليات كثيرة. مرة فى السنة كانت تشترى لنفسها تذكرة ذهاب وعودة إلى المملكة المتحدة ، وتمضى ستة أسابيع مع أختها فى "شتشيستير" فى الساحل الجنوبى. مرة كل أربع سنوات كان جلال يصحبها و يمتعان نفسيهما بقضاء إسبوع فى لندن، وينزلان فى نفس الفندق فى "ايرلز كورت" والذى كانت قد قبلت أن تمضى معه ليلة فيه عندما كان الاثنان ما يزالا طالبين. بعد أن عرفت منذ أن عاشت فى مصر القيمة الرفيعة التى يتم إضفاؤها على ذلك الغشاء سليمًا ، وخاصة بين الأسر المسلمة المحافظة مثل أسرة جلال، أحست بالامتنان العميق والإعجاب به لأنه تزوجها بعد هذه الليلة من الحب. مع الصعوبات الأولى التى قابلتها وهى تحاول الاستقرار فى ثقافة مغايرة، استمتع الاثنان بزواج سعيد برغم أنها لم تعطه غير طفل واحد فقط، ابنة، ماتت فجأة فى سن الثانية عشرة.

أمندا من ناحية أخرى، كانت تعيش أمام فندق الماريوت فى الزمالك، فى شقة فاخرة. هى أيضًا، بعد أن تفهمت حقيقة أن زوجها، رغم صفاته الجيدة الكثيرة - والتى من بينها حبه الحقيقى لها وللأولاد-كان زير نساء بالفطرة، كانت تعيش حياة مليئة وسعيدة. المرأتان الإنجليزيتان، رغم اختلاف ظروفهما وخلفيتهما، أصبحتا - بمرور السنين - صديقتين قريبتين.

خلال الأعوام الماضية كانت المرأتان تتحدثان أغلب الأيام فى التليفون ، وتتقابلان يوم الثلاثاء لتناول القهوة والكيك فى الماريوت. فى البداية دارت حواراتهما حول تاريخهما الشخصى ، وكيف تزوجتا من مصريين واتخذتا القاهرة موطنًا. ثم مع الوقت تمحورت أحاديثهما حول حياتهما اليومية. عمل إيفا فى المدرسة، مشاجرات جلال مع زملائه، حفلات البريدج التى كانت تقيمها آمندا ، وشقاوة أولادها الاثنين (الولد والبنت) واللذان كانا الآن طالبين فى الجامعة الأمريكية، ومخاوفها من أن تفقد البنت عذريتها وأن يعرف الولد طريقه إلى المخدرات.

اليوم وصلت آمندا أولاً ، واختارت مائدة فى الركن. لاحظت فوراً، وصديقتها تأتى ناحيتها، أن وجه إيفا تعلوه ملامح الكآبة. تبادلتا القبلات ، وسألت آمندا إذا كان هناك شىء ليس على ما يرام. هزت إيفا رأسها واقترحت أن يختارا الكيك أولاً. فوجئت آمندا وهما تقفان عند الكاونتر ويتفحصان المعروض من الكيك، بصديقتها تقول، "أعتقد أننى سآخذ واحدة بالشوكولاته اليوم." عادة كانت تختار الأقل دسمًا مما هو معروض.

و هما تأكلان أول قطعة قالت أيفا فى صوت خفيض وابتسامة ملتوية على وجهها، "اكتشفت أن جلال كانت له زوجة أخرى."

فوجئت آمندا ، ولكنها أكملت ابتلاع ما فى فمها قبل أن تسأل، "هل تعنين أنه طلقها؟"

أجابت إيفا: "لا، يبدو أنها ماتت".

سألت صديقتها: "هل كان متزوجًا عندما تزوجك؟ في نهاية الأمر هو مسلم ،ومن حقه أن يكون له أربع زوجات."

ردت إيفا بقدر من نفاد الصبر في صوتها: "آه، أنا أعرف كل ذلك ، ولكني أعتقد أنه كان يجب على الأقل أن يقول لي."

رشفتا قهوتيهما وعبثتا بالكيك في صمت لبضع دقائق قبل أن تسأل آمندا: "إذن لم يقل لك؟"

هزت إيفا رأسها.

"هل تكرهين ذلك كثيرًا؟"

مسحت إيفا عينيها بمنديل ورقي أخرجته من حقيبتها. "نعم، أعتقد ذلك، ولكني لا أرى شيئًا يمكنني عمله حيال هذا الأمر."

و كيف علمت بالأمر؟"

بان الحرج على إيفا وهي تشرح أنها وهي ترتب أوراق جلال في مكتبه وجدت مغلفًا موجهًا لها بالإنجليزية بخط يده ومكتوب عليه "يفتح عند وفاتي". اعترفت: "فتحته بالبخار ، ومقابل عدم أمانتي كان جزائي أن أعرف أنه قبل أن يبعث لنيل الدكتوراه في إنجلترا كان قد تزوج ابنة عمته. الخطاب قال إن المرأة لم تعد على قيد الحياة ولكن لديه ابنًا بالغًا منها لا يزال يعيش في القرية خارج المنيا. أشك أنه - من حين إلى آخر، عندما يقول لي إنه تلقى دعوة لإلقاء محاضرة، فهو في حقيقة الأمر ذاهب لزيارة ابنه. في نهاية الأمر، أعتقد أنه من الطبيعي..."

كسرت آمندا الصمت الذى أعقب ذلك بأن قامت واقفة وقالت: "ربما يجب أن تأخذ كل منا قطعة "كيك" أخرى. اليوم على حسابى أنا."

عندما جلستا مرة أخرى ومعهما طبقان جديدان وقطع كيك جديدة ، وطلبتا فنجانى قهوة كابوتشينو إضافيين، قالت إيفا لصديقتها بصوت أكثر هدوءاً: "إذا أردت أن أكون أمينة مع نفسى وأبتعد عن الانفعال، أعتقد أننى سعيدة من أجله لأن له ابناً . كما تعلمين ، بعد وفاة دينا لم أستطع أن أمنحه أبناء آخرين. بالطبع، كنت سأحزن جداً إذا اتخذ زوجة أخرى حينذاك. ففى نهاية الأمر، نحن الاثنين عانينا من وفاة دينا، وخطوة كهذه كانت ستنطوى على عدم احترام لذكراها ، ناهيك عما تسببه لى من جرح. ما فعله قبل أن نلتقى أنا وهو ، وهذا ليس حقيقة بالأمر الهام. أليس كذلك؟" ناشدت إيفا لكى تطمئنها.

"لا، ليس مهماً،" أجابت آمندا والتى - نتيجة لحياتها الخاصة - اكتسبت اتساع أفق فى هذه الأمور. "المسألة هى كيف تنظرين إلى الموضوع." ثم سألتها إذا كان الخطاب احتوى على شىء آخر.

بعد أن تمخطت، نظرت أيفا إلى صديقتها ، وعلى وجهها ابتسامة مشرقة.

"الخطاب كان به بعض التفاصيل حول مسائل مالية وماذا يجب أن أقوم به فى حالة وفاته. فى السطر الأخير قال إنه لم يحب أى شخص آخر فى حياته."

علقت آمندا: "هذا لطيف".

أومأت إيفا برأسـها ، ولكن بدا عليـها كأن دموعهـا سـتفيض إذا حاولت قول أى شىء آخر.

"و ماذا فعلت بالخطاب؟"

ردت إيفا ببساطة: "أحضرت بعض الصمغ ، وأحكمت إغـلاقـه ، ثم أعدته بين أوراقه".

"لكن الشىء الوحيد الذى أندم عليه هو أننى فتحته من البداية."

(٩)

حديقة النخيل

توقفت الحمير الثلاثة خارج البوابة المزدوجة ذات الحليات المعدنية. كان الوقت في بداية الأصيل، وظلال الحمير وركابها تميل بزاوية نحو الحائط الطيني العالي ؛ الذى كان يطوق حديقة النخيل من ناحية، في حين كان النيل يشكل حدها من الناحية المقابلة.

كان الشخص الذى في الوسط، ولد طويل نحيف اسمه جعفر، يلبس جلباباً منشى ناصع البياض ، وعمة كبيرة من نفس اللون يبدو أنها تتأرجح بقلق فوق جبينه الأبنوسي وملامحه الجميلة. صفق بيديه ، ونادى بصوت عال. التفت إلى رفيقه الأصغر سنًا - ولد أبيض كان يركب عن يمينه، وتبادلا بعض الكلمات. في حين كان يتم سحب المزلاج إلى الوراء ويتم فتح جناحي البوابة، تسابق الولدان وهما يتدافعان من خلال الفتحة. كان الولد الأبيض - وهو أول من دخل إلى عالم الحديقة الظليل، يلبس بنطالاً قصيراً كاكي اللون ، وسترة كاكية اللون بها جيوب منتفخة؛ كان يحمي رأسه من حرارة الصيف السوداني الشديدة بقبعة

واسعة من اللباد المزدوج . العضو الأخير من ثلاثي الأولاد- واسمه شاكر- كان خادم الولد الأبيض ؛ كان يلبس جلبابًا لونه أزرق باهت وطاقية وكان حافي القدمين. كان وجهه يحمل تقطيبه قلقة، مصدرها - ولا شك - مسئوليات العناية برفاهية وسلامة ابن مفتش المقاطعة المحلي.

"أنا كسبت!" صرخ الولد الأبيض والذى كان اسمه الحقيقى دايفيد والذى كان يناديه جعفر داوؤد.

"حمارك هو الذى كسب،" صحح له جعفر. "حمارك هذا أقرب إلى الحصان - و انفجر الأولاد الثلاثة يقهقهون.

كانت حديقة النخيل ، التى تقع بين النيل والصحراء المحيطة، تبعد أكثر من ميل بقليل عن البلدة الممتدة - حيث كان صاحبها، الشيخ عثمان عبد الغفار، يملك متجراً. كان كبير صائغى الفضة فى البلدة ، وينحدر من إحدى العائلات الكبيرة فى كردفان، فى حين جاءت زوجته ، فاطمة، والذى كان جعفر آخر أبنائها، من الكبابيش، وهم من مربى الماشية، وجلبت معها ثروة كبيرة وعلاقات واسعة. كان السائحون الذين يزورون البلدة قادمين من الحدود المصرية عن طريق الباخرة نادراً ما يرحلون دون أن يشتروا تذكاراً من متجر الشيخ عثمان، حتى لو كان منفضة سجائر من الفضة فى منتصفها عملة معدنية قديمة من زمن المهدى. رغم أن أى شخص غريب يمكنه أن يتصور أنه ليس سوى صاحب متجر يبيع الفضيات ، ومجموعة ضئيلة من الساعات، إلا أن

الشيخ عثمان كان فى الواقع واحداً من كبار التجار فى المنطقة. كان منخرطًا فى التجارة المربحة لنقل الماشية والجمال سيراً على الأقدام إلى مصر، وأحيانًا حتى القاهرة نفسها؛ كذلك كان يشترى أغلب محصول البلح فى المقاطعة ويبيعه إلى تجار الخرطوم. وكان يشاع أنه يشارك فى عمليات التجارة غير المشروعة للآثار الفرعونية ، التى يتم التنقيب عنها بغرض السرقة من المقابر فى أعالى النهر. بشكل عام كان رجلاً يحسب له حساب وكان سعيداً أن ابنه جعفر على صداقة مع ابن مفتش المقاطعة الشاب؛ فهذا كان يمنحه صيتًا إضافيًا.

الفارق فى درجة الحرارة بين خارج حديقة النخيل وداخلها كان شاسعًا جداً. حتى أن الراكبين أحسوا للحظات برعشة بردوهم يجتازون خببًا الطرقات الطينية الممتدة على جانب قنوات المياه ، التى كانت تعكس بالتماع أشعة الشمس. الحمام الرقيق بلون الصدأ كان يتحرك بين أغصان أشجار النخيل العالية ويتطلق هديله الناعم المخدر. بالنسبة للولد الإنجليزى كان ذلك مكانًا ممتد الأفق ؛ حيث هناك دائمًا أشياء جديدة يمكن اكتشافها، وقنوات مياه يمكن تعقبها، وجواميس مربوطة مغماة العيون يمكن مشاهدتها وهى تسير دون كلل حول السواقى. كان عالمًا من السحر ، وكان صديقه جعفر هو الذى يمتلك مفتاح هذا العالم.

ترجل الأولاد الثلاثة بجانب إحدى السواقى المتوقفة. قام شاكر، بعد أن كنس مساحة من الأرض بسعف نخيل جاف - بمد ملاءة. أخرج الولد الإنجليزى ست بيضات صغيرة مسلوقة ملفوفة فى منديل، كذلك

علبة مشمش بالعصير المركز وفتاحة، فى حين فك جعفر صُرة صغيرة وكشف عن عدة قطع من الكفتة كانت والدته قد أعدتها وبعض الخبز. بعد أن أكلوا وشرع شاكر فى غسيل الأطباق المعدنية، قام الولد الإنجليزى بتقسيم قطع الحلوى التى أحضرها معه بينه وبين جعفر، ولكن جعفر أصر على أن يأخذ شاكر نصيبًا مماثلاً لهما ووافق الولد الإنجليزى على مضض. ثم قام جعفر ليغسل يده فى المياه الجارية التى كانت تمر بجانبهم وشاهده الولد الإنجليزى وهو يغترف المياه ليملأ بها فمه ثم يقوم ببصقها مرة أخرى، فقلده. بعد ذلك سار الولدان إلى مكان منبسط خلف الساقية ، حيث كانا قد وضعا بعض التماثيل الطينية لتجف فى الشمس و التى كانا قد قاما بتشكيلها فى أخر مرة جاءا فيها إلى الحديقة.

كانت هناك تماثيل لحمير وجمال ، وكذلك إبريق مياه ، وحلة طبيخ مصغران. كان هناك أيضًا تمثالان لشكلين بشريين، وكان الولد الإنجليزى قد ألصق بأحدهما عضواً ذكرياً كبيراً كفكرة خطرت على باله بعد أن شكله. لكن جعفر كان قد اعترض، واستطاع الولد الإنجليزى أن يرى المكان حيث أصر صديقه السودانى على ضرورة إزالة البروز المعيب . الشكل الآخر كان به صدر مختلف الأحجام. عندما سأل الولد الإنجليزى ماذا عند المرأة "هناك تحت"، تظاهر جعفر بعدم المعرفة.

كان قد قال: "لا شيء".

"و لكن كيف تتبول؟"

أذعن جعفر وقال. "لها ثقب" ، وضحك الولدان للفكرة.

حطم الولد الإنجليزى التماثيل المختلفة برفسها بقدمه ، وقال لجعفر: "سنعمل أشكالاً أخرى المرة القادمة".

ودع كل منهما الآخر ، واتفقا على اللقاء فى اليوم التالى بالسوق. ثم ركب الولد الإنجليزى وخادمه تجاه صف البيوت الصغيرة التى اصطفت على ضفاف النيل مباشرة، فى حين عاد جعفر إلى منزل الأسرة الممتد فى غير نظام – والذى كان يضم متجر أبيه.

أخذ الولد الإنجليزى حمَّامًا ، وكان يجلس لابسًا الروب ويتناول عشاءه. كانت والدته تجلس بجواره وتقرأ بصوت عال. كلما أدارت صفحة كانت تريه الصورة التى بجانب النص. كان الكتاب قد قُرئ للولد عدة مرات وكان يحفظه تقريباً عن ظهر قلب ، لذلك لم يبد اهتماماً كثيراً بما تقوله والدته، ولكن كان يستمتع بوجودها معه وهو يأكل. ثم دخل والده ، وعلى وجهه نظرة جادة دون أن يقول شيئًا، ولكنه أشار لوالدته أن تخرج من الغرفة معه.

قالت له عندما عادت : "دايفيد، حدث شيء لجعفر..." اتجهت ناحيته وبدأت فى احتضانه وتقبيله. قالت له إنه جرت حادثة بسبب انفجار المصباح وإمساك النيران بملابس جعفر.

سأل الولد: "هل يمكننى الذهاب لرؤيته؟".

هزت رأسها وقالت إن جعفر مات. كان الولد فى حيرة وارتباك حول كيفية الاستجابة لهذا النبأ. عندما رأى عينيها تدمعان انفجر فى البكاء.

هدأت من روعه ، وأدخلته فى الفراش ، وارتاحت عندما نام مباشرة بعد يومه الطويل. فى الصباح سأل عن جعفر وقالت له والدته إنه، إذا أحب يمكنه الذهاب إلى الشيخ عثمان ليبلغه عن أسفه لوفاة جعفر.

قالت له "سيكون فى منزله" ، وانطلق مع شاكر. عندما وصل إلى منزل الشيخ عثمان شعر بالقلق وتمنى لو أنه لم يكن قد جاء. ترجل ونظر عبر غرفة الاستقبال الطويلة ؛ حيث شهد والد جعفر يتلقى العزاء من كبار رجال البلدة. فكر فى الرحيل، ولكن خادمه جاء واصطحبه إلى غرفة استقبال أصغر. وقف هناك لعدة دقائق وهو ينظر إلى الكراسى المطلية باللون الذهبى المرصوصة حول الغرفة قبل أن يدخل والد جعفر. رحب الرجل العجوز به وأمسك يده فى كلتا يديه؛ كان الولد يعرف أنه يجب أن يقول شيئًا للشيخ عثمان.

لو كان جعفر هناك لكان سأله.

سأل بارتباك "هل يمكننى رؤيته؟".

جلس الرجل العجوز وأحاط الولد بذراعه.

"دفن مساء أمس،" أوضح الشيخ عثمان ، وأحس الولد بدموع الرجل العجوز وهى تتعلق بلحيته البيضاء الخفيفة ، وبالبلل على خده.

كان أول مرة يشاهد فيها شخصاً بالغاً يبكى. تذكر الولد تلك المرة، منذ عدة أسابيع، عندما لدغ عقرب قطته ووجد جثتها فى الفيراندا. وضعها هو ووالدته فى علبة أحذية ، ودفنها فى الحديقة.

فكر فى جعفر وعن معنى أن يُدفن فى الأرض، وفكر أيضاً فى أنه لن يذهب مرة أخرى أبداً إلى حديقة الشيخ عثمان.

(١٠)

" كـات "

استيقظ شاعراً بثقل " كات " على رجليه المرفوعتين. كانت رأسه ثقيلة من الرغبة فى النوم التى تصاحب كبر السن، ولكن – كما كان يفعل كل صباح قال لنفسه إن القطة يجب إطعامها. قام وبحث بقدمه عن شبشبه.

" كات " – وهى تعلم أن صاحبها سيمضى بعض الوقت فى الحمام قبل أن يعد الإفطار، مرقت من خلال النافذة المواربة فى غرفة النوم ونزلت السلالم إلى البهو. هناك التفت حول نفسها وخلدت إلى النوم على حصيرة الأسَل التى انعكست عليها خطوط تعريشة السقف المصنوعة من سعف النخيل المرصوص بشكل متساو.

أعد الرجل العجوز إفطارهما: لبن دافئ منقوع فيه قطع صغيرة من الخبز "لكات"، وعدة فناجين من الشاى الخفيف لنفسه، مع قطعة من الخبز المحلى المحمر على شبكة حديد فوق شعلة الغاز، مع جبن أبيض وعسل. عندما انتهت " كات" من اللبن أطعمها بعض الجبن الأبيض.

فـتح الراديو على إذاعـة البى بى سى. خطر لهـو ليس للمـرة الأولى - أنه إذا تم تقديم نشرة أخبار ترجع إلى عشـر سنوات مضت بدلاً من نشـرة أخبـار اليـوم فلن يكون هناك اختلاف كبـيـر. من ناحـية أخرى، فـإن الاسـتـمـا ع نهـاراً ومسـاءً للأخـبـار أصبـح جـزءاً من روتين حياته. مع تقدم العمر، أصبحت حياته أكثر وأكثر روتينية، حياة تشاركه " كات " فى أغلب جوانبها.

بينمـا كـان الجو لا يزال طريًا ، خـرج إلى حـديقـة سـاحـة الدار - حيث الجهنميات ذات اللون الأحمر الداكن والأبيض والطوبى عالقة على الحـوائط الطينية المحيطة متداخلة مع اليـاسـمـين بعطره النفـاذ. كانت شـجيرات الهيـبيـسكوس تخـتـال بورودها القرمزية ، وكانت الأصص - التى تحتوى نوعيات مختلفة من الصبار تبين حبه لهذا النوع من النبات البسيط الكالح. تتبعته " كات". كان كل حين ينحنى ويمسح بيده على رأسها وعلى جسمها المخطط مثل نمر.

مر عبر ساحة الدار إلى الحديقة المفتوحة ، وقابله منظر البحيرة فى اتسـاعـهـا ، ولونهـا الأزرق الداكن، ووراءها التـلال الرمليـة - التى عكست ظلال السحب المارة. انعسكت التلال بدورها على المياه الهادئة التى كـانت تفـصلهـا عن القـرية الصـغيـرة ، الجـاثـمـة على بروز من الصخور، بحقولها من البرسيم ذى الخضار المشرق ، والنخيل المتفرق الذى تم تشذيبه اليوم كان هناك رجل يحرث بثورين ، وكانت سجادة الأرض ذات اللون البنى الداكن يتناثر عليها طائر أبو قردان باحثًا عن طعام فى الأحواض المحروثة.

سـار نازلاً قطعـة الأرض المنحـدرة، وتفـحص فى طريقـه بعض أشجار التين التى بدأت ثمارها تظهر ، وإن كان من الأرجح أن الطيور هى التى ستستمتع بها أكثر منه. واصل السير حتى الحد السفلى من الفدان الذى يملكه حيث كان قد بنى مسطبة بسيطة بالأسمنت تحت شجرة سنط قديمة كانت موجودة حتى قبل شرائه الأرض ، وبناء المنزل. جلس لبعض الوقت، و"كات" تدور حول قدميه ؛ وهو يحصى فى ذهنه البيوت الممتدة على الجانبين على طول قمة الصخور التى نمت عليها القرية. كانت فى أغلبها بيوت طينية تقليدية ؛ حيث ما زال يسكنها الفلاحون فى حين كان البعض الآخر منها ، والذى كان مبنيًا بالحجارة والقباب على غرار الطراز الذى أكسبه المعمارى حسن فتحى شعبية، مملوكًا لعائلات من العاصمة. ولكن كانت زيارات أصحابها تتقلص أكثر فأكثر بعد أن فقدت "الحياة البسيطة" كثيراً من جاذبيتها ، وأصبح من الممكن أن يعيشوها بأناقة وحيوية أكثر على شواطئ البحر الأحمر وفى القرى السياحية فى سيناء.

فات الوقت الذى كان يمكن فيه أن يتطلع لزيارة أحد من العاصمة، فقد أصبح الآن منفصلاً – إلى حد كبير جداً – عما يشغل أغلب الناس ، وأصبح مدركًا أنه لم يعد لديه ما يقوله لملء هذه الثغرات من الصمت التى كانت تتخلل لقاءاته مع هؤلاء الذين كانوا يومًا ما أصدقاء تجمعه بهم اهتمامات مشتركة. كان واعيًا أنه أصبح فى نظر الكثيرين شخصًا مُضجراً : فكان يرى اهتمام الناس بحديثه يتشتت ، وهو يتحدث عن شئون القرية وغرائب "كات " الأخيرة.

قطع آذان الصبح حبل أفكاره وخطر له أنه قد حان الوقت لكى يعود إلى المنزل لإعداد وجبة الظهيرة . بالأمس كان الصياد العجوز قد مر عليه بحماره ، وكان قد اشترى بعض سمك موسى الصغير - الذى تمتلئ به البحيرة في مثل هذا الوقت من السنة. بعد أن قام بطبخه بالبخار، أكل منه هو و"كات"، ثم أوى إلى غرفة نومه ليخلد فى القيلولة، وأخذ معه رواية كان يحاول أن ينهى قراءتها منذ أسبوع. انضمت له "كات" فى غرفة النوم ، ولكنها انصرفت فور أن مال رأس صاحبها جانبًا على الوسادة وانساب الكتاب من يده.

بعد ساعتين نزل مرة أخرى إلى غرفة المعيشة وفتح التلفزيون. فوجئ أن "كا ت" لم تكن فى انتظاره ، ولكنه فكر أنها ربما انطلقت فى حملة صيد أخذتها بعيداً عن المعتاد. خفض صوت التلفاز وهو يرى مشهد الأطفال الفلسطينيين الصغار يقذفون بالحجارة إسرائيليين سيقانهم طويلة ويشبهون الألمان! ثم سمع صوت باب المطبخ يفتح ويغلق. ربما هذا "حسن " قد أحضر البيض الذى طلبه منه.

نظر حوله وشهد جاره الطويل مرتديًا بنطلونًا أبيض واسعًا وممسكًا بقطة من رقبتها. كان على وشك الاعتراض عندما تبين له أن هذا الحيوان الميت هو "كات". ألقى حسن عليه تحية المساء ، وتقدم إلى الأمام ، ووضع القطة الميتة على الحصير، ثم التفت وشرح له أنه وجد الجثة راقدة بجوار عشة الفراخ القديمة. كان من رأيه أن عقربًا لدغ "كات".

قام الرجل العجوز واقفًا وجثم بجانب القطة. عندما لمس جسمها كان هناك غياب تام للحياة فيها؛ كان لسانها الوردى اللون يبرز قليلاً من بين شفاه مثبتة على ما يبدو أنه ابتسامة.

ترك رأسها تسقط إلى الوراء على الحصير ونزل ببصره إلى بطنها المنتفخة وبداخلها القطط الصغيرة الميتة. تساءل عن الوقت الذى كان لا يزال متبقيًا قبل أن تلد.

و كأنه يقرأ أفكاره، قال حسن "كان يمكنك أن تأخذ واحداً من أولادها."

"نعم،" قال وهو يستغرب أن الموت لم يمهلها بضعة أيام حتى تضع قططها الصغيرة . كان هذا سيعنى له الكثير.

سأل حسن "هل أرميها بعيداً؟"

تألم للحظات من السؤال، ولكن بالنسبة لحسن لم تكن أية قطة ميتة سوى نفاية.

قال: "اتركها هنا".

تردد حسن، ثم ألقى عليه تحية المساء وانصرف.

أغلق الباب وراء حسن ، وعاد إلى حيث كانت القطة ترقد.

و كأنها تؤكد له حقيقة الموت، كان هناك طابور من النمل الصغير يسير فى اتجاه الجثة.

ذهب إلى المطبخ ، وأخرج فوطة نظيفة من فوط التنظيف ذات اللون الأحمر والأبيض ولف بها الجثمان - الذى بدأ فى التيبس. أخرج من السقيفة التى تفتح على المطبخ، والتى كانت تحتوى بداخلها سيارة متهالكة منذ الأيام التى كان لا يزال قادراً فيها على القيادة، مجرفة ، وسحبها وراءه ببطء وهو يسير فى الحديقة.

كانت حرارة الجو لا تزال عالقة بين أشجار الزيتون المصفوفة بشكل متساو ، والتى كان قد تم ريها مؤخراً فى ميعادها كل إسبوعين. اختار مكاناً ، قرب الحائط الفاصل بينه وبين الجيران ، وبصعوبة حفر قبراً صغيراً. وقف لبرهة ، وهو يلهث ويستند على مقبض المجرفة.

قال لنفسه إن حسن كان يمكنه القيام بهذه المهمة فى عُشر الوقت الذى استغرقه هو ، ولكنها كانت مهمة عليه القيام بها بنفسه من أجل "كات". وضعها فى الحفرة وهى ملفوفة جيداً فى الفوطة، ثم ردم الحفرة بالتراب وبحث حوله عن ثلاث قطع من الحجارة ليضعها فوقها.

طرأت على ذهنه صورة عمرها أكثر من سبعين عاماً لولد صغير وأمه تساعده على وضع قطته الميتة فى علبة أحذية ودفنها.

غداً سيبلغ حسن عن المكان الذى دفن فيه ، كات ويطلب إليه عدم المساس بكومة التراب الصغيرة.

بعد أن عاد للمنزل جلس أمام شاشة التلفزيون. أحس بخواء ، وكأن الخيط الوحيد الضعيف الذى يربطه بالحياة قد انقطع.

فى الصباح كان حسن سيقترح عليه أن يأتى له بقطة أخرى مثلما جاء له "بكات" من قبل. لكنه قرر عدم جدوى ذلك .

فلو كـان الأمـر مـقـدراً لكان أتيح "لكات" وقت كـاف لكى تلد صغارها.

(١١)

عطلة نهاية أسبوع قصيرة

بين الناس الواقفين خلف الحواجز التى تفصل ما بين القادمين لتوهم من الطائرات ، والذين ينتظرونهم رأيت الرجل الذى خمنت أنه روبيرتو. تأكد ظنى عندما رأيت قطعة ورق الكرتون التى كان ممسكًا بها على صدره ، ومكتوب عليها اسمى بخليط من الحروف اللاتينية الكبيرة والصغيرة: "ماثيوز". أفصحت عن وجودى – عن طريق التلويح له بيدى ، وأنا فى طريقى لاستلام أمتعتى ، والمرور عبر الجمارك. فوجئت عندما لاحظت أن بعض الناس الذين كانوا معى على الطائرة – كانوا قد التقوا بأصدقائهم وأقاربهم ، وكانوا يتحركون فى اتجاه طابور سيارات الأجرة وموقف السيارات. اندهشت من هذا التراخي من قبل شعب كنت أظن أن أبناءه شديدو التمسك بالدقة فيما ينجزونه.

أحسست أن هذا الموضوع كان يمكن أو يوفر مجالاً للثرثرة مع روبيرتو ونحن فى طريقنا. لكننى نسيت أن أثير الموضوع معه.

لم يلتفت رجال الجمارك إلى حقيبتى، التى كان حجمها يفوق بقليل أمتعة اليد، إلا بنظرة سريعة ثم أخذها منى فوراً روبيرتو. كان قد أحضر لنفسه عربة ترولى ولكن عندما تبين له أن الحقيبة خفيفة أعاد الترولى إلى طابور العربات الأخرى ، وأسترد العشرة فرنكات.

كانت السيارة التى تنتظرنا فى موقف السيارات تدل على مكانة الناس الذين كنت سأمضى معهم عطلة نهاية الإسبوع. سيارة مرسيدس ٨٧٠ بيضاء مكشوفة ذات مقعدين ؛ لذلك لم يكن هناك مجال للشك فى أن أتعامل مع روبيرتو باعتباره سائقًا ، وأن أجلس فى المقعد الخلفى.

كان روبيرتو يرتدى ملابس ملائمة أكثر منى لحرارة الشمس. كان يلبس بنطلون كتان لونه أزرق داكن وحذاءً خفيفًا وقميصًا أبيض بياقة زرقاء ، وجيوب لها أطراف زرقاء. كل ما استطعت أن أفعله هو أن أخلع رباط العنق وأضعه مع سترتى وحقيبتى فى صندوق السيارة.

قال روبيرتو وهو يطمئننى: "سيكون الجو أكثر اعتدالاً كلما صعدنا إلى أعلى".

قاد السيارة بسهولة ويسرعة ، وهو يجتاز المرور دون أن يظهر عليه أى ضيق ، عندما كان يعترض طريقه سائقون غير أكفاء أو أنانيون . ظل - وهو يتحدث - يتابع بعينيه حركة المرور أمامه ، ويلقى نظرات صغيرة متكررة إلى مرآة القيادة. سألنى عن طبيعة الطقس حاليًا فى إنجلترا، دون أن تبدو منه أية إشارة تدل على أنه

ليس صديقًا للعائلة تطوع ليأخذنى من المطار سوى العبارة التى قالها فى البداية: "اسمح لى أن أحمل حقيبتك، سيدى" وكذلك عادته فى أن يرصع أية ملاحظة ، أو تعليق يبديه باسمى. أعلمنى أن بداية الصيف كانت سيئة جداً، ولكن كان الجو الآن مشمساً وحاراً طوال اليوم ويكون المساء معتدلاً بفضل نسمات الهواء اللطيفة. رغم أنه كان يتحدث بلكنة أجنبية واضحة، كانت لغته الإنجليزية تدل على أنه اعتاد الحديث اليومى مع من تعد الإنجليزية لغتهم الأم. كان بالفعل شخصية جذابة، واندهشت أن يكون زوج مارجو فكر فى توظيفه. خمنت أنه إيطالى.

وكأننى كنت أفكر بصوت عال، قال لى فوراً. "أنا قادم عبر الحدود ولكننى أعمل لدى السيد والسيدة ديدكو منذ خمس سنوات. نعم، سيد ماثيوز، بدأت العمل مع الأستاذ فى السنة السابقة لمرضه".

صعدت السيارة بدون جهد الجبال ، التى تناثرت فيها الفيلات البيضاء التى تكسوها الجهنيمات. كان يتخلل حدائق النجيل الفسيحة ذات اللون الأخضر الزاهى بعض أشجار الزيتون تذكره بالزمن الذى كانت هذه التلال يزرعها فلاحى "البروفينسال".

"السيد ماثيوز-هناك إلى أعلى "سانت بول دى فينس"،" قال روبيرتو وهو يشير إلى مجموعة من المبانى رائعة المنظر على خلفية من الحجارة الرمادية.

""توريت" على بعد عشرين دقيقة أخرى من هنا."

تركنى روبيرتو لأفكارى خلال بقية الرحلة. كنت فى حاجة إلى هذا الوقت لكى أعد نفسى لما سيكون - على أقل تقدير - عطلة نهاية إسبوع صعبة. كان اليوم يوم السبت وكنت قد تلقيت المكالمة التليفونية مساء يوم الأربعاء فقط. كانت مارجو قد قالت لى إن جراهام أعرب عن رغبته فى رؤيتى. هل كان فى إمكانى أن أطير إلى "نيس" خلال عطلة نهاية الإسبوع ؟ سترسل لى بالطبع تذكرة ، وسيكون هناك من يحضرنى من المطار. كان على أن أحسم رأيى فى تلك اللحظة. لم يكن الأمر سهلاً - خاصة وأننى كنت أشك أن جراهام قد طلب بالفعل حضورى. كانت قد مضت تسع أو عشر سنوات منذ آخر مرة سمعت صوتها فيه - صوت المرأة التى كانت - لفترة قصيرة ومضطربة من الوقت - زوجتى. بالطبع كنت أعرف أن جراهام ديدكو، الرجل الذى عملت لديه لعدة سنوات ، والذى حقق ثروة طائلة من وراء الأنابيب البلاستك، الرجل صاحب الذكاء الحاد ، والقسوة ، التى كان يمارسها حتى على نفسه، كان قد بدأ منذ فترة من الزمن رحلته باتجاه طفولة ثانية. كنت قد خزنت المعلومات فقط دون أية مشاعر فى هذا أو ذاك الاتجاه ؛ ففى حقيقة الأمر، عندما تبدأ زوجتك علاقة غرامية مع شخص يعتبر صديقك ورئيسك فى العمل، ويقومان بإبلاغك-و كأنك شخص لا علاقة له بالأمر-أنهما ينويان الزواج ، فهذا يعنى أن تنقلب حياتك رأساً على عقب . أن تضطر لبدء حياتك من جديد ، وأنت فى الخمسينات من العمر يعنى أن تضطر لمواجهة نفسك بعنف.

استطعت بشكل ما أن أفعل ذلك ، ولكن دون أى حماسٍ أو نجاح.

لم أكن أمتلك مقدرة جراهام على العمل الشاق ، أو قدرته على أن يجمع حوله أناسًا يستطيعون خدمة مصالحه، إضافة لعناده القوى. "مشكلتك يا جاك،" أتذكر أنه قال لى مرة ؛ "هى أنك لا تقتحم الأمور بعزيمة كافية." رغم أن الأمر كان محرجًا لى، لم يقدر له أن يكون كذلك – فجراهام كان فى أعماقه رجلاً عطوفًا. أعتقد أننى كنت محظوظًا بخروجى من الأمر بمكافأة كبيرة ، وإن كنت أشعر أنها كانت مقابل عدم قيامى بوضع أية عقبات أمام إجراءات الطلاق أكثر منها مقابل الخدمات التى قدمتها لشركته. مجال الأعمال – يجب أن أعترف – لم يرق لى كثيراً وما كنت لأنخرط فيه لولا صداقتى غير المتوقعة مع جراهام ، والتى قامت أساسًا على اهتمامنا المشترك بلعبة البريدج. عندما انتهت هذه الصداقة فى غير أوانها لم يكن ممكنًا أن أستمر فى شركته.

خلال سنوات زواجى من مارجو كنت أقول لنفسى كثيراً – و لها أحيانًا – إنه لولا الحاجة لتوفير مصدر معيشة يوفر لنا حياة مريحة لكنت قد فضلت أن أكون كاتبًا. فور أن تم الطلاق أصبحت حرًا لتحقيق ذلك. لكن ربما جاءت هذه الفرصة متأخرة ؛ فالروايتان اللتان كتبتهما منذ هذا التاريخ افتقدتا وهج روايتى الوحيدة التى تم نشرها. مع الطلاق أصبحت حياتى حياة وحدة ، وأصبح مستوى معيشتى أدنى من المستوى الذى استمتعت به خلال عملى لدى جراهام. كنت أحمل فى تلابيب ذهنى خلال أيام الزواج فكرة أننى، لو تحررت مرة أخرى،

يمكنني أن أحقق تلك الأحلام الجنسية التي يحلم بها كافة الأزواج باستثناء الأزواج السعداء. لكن حتى هنا أيضًا لم تتحقق الأمور مثلما تصورت ، وبدأ كبر السن يلوح في الأفق على نحو كئيب، ولم أكتشفه إلا بعد أن فقدت مارجو ، وعرفت مدى حجم أهميتها في حياتي.

في طريق صعودنا كنت قد حسبت أن مارجو الآن تبلغ من العمر الخمسين: أصغر مني بست سنوات ، وأصغر من جراهام باثنى عشر عامًا . هذا كان يعني أن جراهام المسكين - رغم حدة ذكائه - كان قد بدأ انحداره نحو الشيخوخة في سن مبكرة نسبيًا.

وصلنا عند " الماس× " المملوكة لعائلة ديدكو ، والتي كانت تحمل اسم "ليز هيروندیل" بعد أن تجاوزنا "سانت بول". تم شراؤها - كما قيل لي - بالأموال التي ربحها من صفقة سيارات الأوتوبيس مع الحكومة الإيرانية التي استطاع جراهام بشكل ما أن يقحم نفسه فيها . كان الأمر بعيداً تمامًا عن الأنابيب البلاستك . كنت لا أزال أعمل معه آنذاك . كنت قد قمت - بالنيابة عنه - بزيارة طهران مرتين ، وكنت مسئولاً عن عمل الترتيبات ، والتي كان بموجبها سيحصل جنرال محلي لديه نفوذ كبير مع البلدية على نصيب كبير من الصفقة. أنا نفسي لم أحصل على الكثير من هذه العملية ؛ باستثناء شكر جراهام ، وعدة أمسيات تخللتها الفودكا ، وأفضل كافيار في العالم في صحبة الجنرال في أفخم مطاعم شيرمان ، فجراهام رغم كل رقته وإسرافه لم يكن رجلاً كريمًا جدًا.

كانت العزبة تقع فى أطراف قرية "توريت" ، وتمتد أراضيها على مساحة تزيد عن هكتارين. كانت تطل على مناظر رائعة بما فيها أجزاء من البحر. لم تسمح الأشجار المصفوفة على جانبى الطريق الخاص برؤية المبنى الحجرى الأنيق إلا بعد أن وصلت السيارة أمامه. خرجت مارجو لترحب بى ، فى حين أخرج روبيرتو حقيبتى وسترتى من صندوق السيارة.

لا شك أن شمس "الريفيرا" فى فرنسا ، والملابس الأنيقة البسيطة، والحياة المريحة التى كانت تعيشها ساهمت جميعًا فيما كان يبدو عليها من انتعاش. قلت لها إنها كانت تبدو رائعة ، وكنت أعنى ما أقوله. قدمت لى خدًا لونه أسمر من الشمس لكى أقبله ، وقالت لى فورًا إننى أبدو بحالة جيدة، وكنت أعلم أن هذه كذبة، وكذبة لا داعى لها؛ فمن الصعب أن أبدو بخير حيث لم أكن أشعر بذلك ، كما أننى لم أكن أعيش تلك الحياة التى تسمح لى بأن أبدو شيئًا آخر سوى أكبر من سنى. منذ ثمانى سنوات فقط - ذكرت نفسى - كانت هذه المرأة زوجتى.

قالت لى: "من الصعب أن نضمن الطائرات ؛ لذلك تناولنا وجبة الغذاء بدونك. لقد أدخلت جراهام الفراش لكى ينام القيلولة. أعلم أن الوجبات التى يقدمونها على الطائرات كريهة ؛ لذلك سأرسل لغرفتك صحنًا من السالمون البارد والسلطة. أقترح أن تنال قسطًا من الراحة بعد رحلتك ، وأن نلتقى جميعا لتناول المشروبات بجانب حمام السباحة الساعة السادسة."

قادتنى خادمة إلى غرفة نوم ملحق بها حمام؛ كلاهما كان مكيف الهواء . أخذت دشًا ، وعندما عدت إلى غرفة النوم وجدت الوجبة التى وُعدت بها ، ومعها كأس موس الفراولة - الذى كان واضحًا أنه مصنوع فى البيت . فى منتصف المائدة ، كانت زجاجة "سانكير" - لم يفتنى أنه نوع النبيذ الذى كانت هى وأنا نُمتع أنفسنا بتناوله عندما كانت ظروفى المالية تسمح بذلك - موضوعة فى دلو للثلج . نظرًا لأنه سبق فتحها ملأت لنفسى قدحًا وارتشفت منه وأنا أزيح ستائر الغرفة إلى الوراء وأشاهد الجناينى وهو يضع الرشاشات على العشب. ثم جلست لأتناول السالمون ، وسكبت لنفسى قدحًا آخر ، وفكرت فيما تبقى من اليوم والغد. كانت عطلة نهاية الإسبوع تعد بأن تكون مشوقة: فأكيد، إذا كان جراهام لم يفقد شهيته لكل الأشياء الطيبة ، سيكون الطعام والنبيذ من أفضل الأنواع. كذلك كان من المثير أن أكون مرة أخرى على مقربة من مارجو. لماذا تم دعوتى لهذه العطلة بعد أن مرت عطلات عديدة منذ أن تم طلاقنا أنا وهى وزواجها مرة أخرى دون أن تُقدم لى دعوة مماثلة؟

سكبت لنفسى قدحًا ثالثًا . لكنى وجدت أن مذاق النبيذ لا يتماشى مع الفراولة ، ومع ذلك أكملت القدح. ثم أغلقت التكييف ، وخلعت ملابسى ، ودخلت عاريًا بين الملاءات الباردة.

نمت بعمق ، واستيقظت بطعم كريه فى فمى.

نظرت إلى الوقت لأجد أنني نمت أكثر من ساعتين ، وأنه أمامى من الوقت ما يكاد يسمح لى بارتداء ملابسى ، واللحاق بموعد الساعة السادسة بجوار حمام السباحة.

كان الاثنان وحدهما بجوار حمام السباحة. كان جراهام جالساً على كرسى عمودى من قماش القنب تحت ظلال مظلة خفيفة مثبتة فى كتلة من الأسمنت؛ كان مرتدياً بنطلوناً أبيض من الكتان ، وتى شيرت مزين برسوم زهرية ، وصندلاً. قامت واقفة عند اقترابى ، وقادتنى ناحية جراهام - الذى نظر إلى أعلى عندما وضعت يدها على كتفه.

قالت له. "إنه جاك، عزيزى. إنه جاء من لندن ليراك."

كان وجهه الآن أكثر طولاً ونحافة ، وكان هناك قدر من الارتخاء فى فكه دليل على المرض الذى ضرب خلايا مخه. التعبير الوحيد الذى لمحته فى النظرة السريعة التى وجهها لى كان تعبير الشك العدائى.

سألته: "هل تتذكر صديقك القديم جاك؟"

"آه نعم،"

قال بصعوبة ورفع يده اليمنى من على ذراع الكرسى ومدها لى. كانت مصافحته خالية من قوة القبضة ، وكان واضحاً أنه لم يتعرف على . أشاح بوجهه فوراً . أشارت لى بإحضار كرسى ، والجلوس بجواره من الناحية الأخرى. سألت:

"ماذا تشرب؟ نحن نشرب جن وتونيك."

"هذا يناسبنى تمامًا."

"ثلج وليمون؟"

"شكرًا."

ذهبت هى إلى الداخل ، وظللت أنا مع جراهام. كنت أتمنى أن يقول شيئًا لكنه عاد للتحديق عبر حمام السباحة الكبير وجزيرته الصغيرة فى وسطه وشجرة السمن الوحيدة بها. أعددت فى ذهنى بعض الأشياء التى يمكننى أن أقولها قبل أن أعلق بأن لديهم مكانًا جميلاً.

نظر لى نظرة جانبية سريعة لا يمكن وصفها إلا باعتبارها نظرة ازدراء.

"من حظكم أن أحداً لم يبن فيلات أخرى هناك،"

قلت وأنا أشير إلى الأفق المفتوح. من الواضح أن عقله المضروب كان يفكر فى أشياء أخرى ؛ لأنه عاد لينظر لى بشك، ثم مد يدًا كالمخلب ، ورفع بصعوبة بعض اللوز المملح من الصحن أمامه.

أقبلت على تناول بعضٍ منه وعلقت بالقول إنه جيد جداً.

قلت ضاحكا : "إنه يشجع على تناول المزيد" ، ولكننى لم أستطع هذه المرة أيضًا أن أصل إليه. وجدت نفسى أتمنى عودة مارجو.

فجأة، وهو ينظر إلى أسفل إلى ما تبقى من اللوز فى كف يده، قام بحركة مضغ بشفتيه، وقال بنبرة خفيضة وحميمية: "الزيتون الأسود – كالاماتا أفضل نوع"– ووضع بحرص اللوز فى الجيب الأعلى لقميصه.

سألت مارجو بعد عودتها:

"هل استطعتما أن تتحدثا قليلاً؟ فكرت في أن أترككما وحدكما لبعض الوقت."

اقترحت.

"ربما جراهام يريد بعض الزيتون الأسود".

نظرت لي في دهشة.

"لا، هو لا يحب الزيتون. لماذا، هل قال شيئًا عن ذلك ؟"

"لا يهم،"

قلت وأنا أشعر بلمتنان إنها كانت كريمة في الجن. انحنت ناحيته وقالت برفق:

"نحن صامتين جداً هذا المساء، أليس كذلك؟ هل تستمتع بكأسك؟ هل تريد أن أزيده لك؟"

أومأ برأسه ، والتفتت لي. قالت لي وهي تمر وتبتسم ابتسامة تآمرية :

"سأضيف لك تونك أكثر."

قلت له :

"لقد مر وقت طويل".

أخذت كأسي ، وأحطته بكف يدي وأنا أشعر ببرودة الثلج.

أضاءت ابتسامة ملتوية وجهه للحظات ، وظننت أنه سيقول شيئًا، ولكن مارجو قاطعته بعودتها.

قالت له : "خذ لوز زيادة"

قدمت له الصحن وأضافت:

"الطبيب يقول إنه يجب أن يأكل أكثر مما يأكل الآن، يقول إنه لا يهم ماذا يأكل ، ولكن الأهم هو أن يأكل أكثر."

أخذ جراهام بحرص ثلاث لوزات من الصحن بيده اليمنى ، ووضعها فى كف يده اليسرى.

قالت: "جاك جاء من لندن خصيصًا ليراك".

قدرت حجم جهودها ، ولكن كان من الواضح أن جراهام الآن لم يكن يعرف من هو جاك ، ولماذا يجب أن يأتى من لندن لإزعاجه وهو بجوار حمام السباحة.

وجدت نفسى أشرب أكثر مما كنت أريد حتى أستطيع اجتياز الأمسية.

"قررت أن ننهى ليلتنا مبكرًا،" أعلنت مارجو. "غداً الأحد ، وسيأتى بعض الأصدقاء للغذاء ؛ هم ناس يعرفهم جراهام منذ فترة طويلة."

قدم لنا روبيرتو وجبة باردة عند حمام السباحة. بحلول ذلك الحين كان جراهام منغلقًا على نفسه تمامًا؛ لذلك تحدثنا أنا ومارجو. ذكرتنى أننا عندما افترقنا وتزوجت هى من جراهام ، كنا قد اتفقنا على أن نظل على اتصال ، ولكن لم يكن لدى أى منا الرغبة فى التراسل.

"على الأقل أتمنى أن تكون سعيداً الآن؟"

سألت وكأننى أنا الذى هجرتها فى محاولة جامحة للبحث عن السعادة.

أجبت بصدق:

"ليس تمامًا".

قالت بتأمل:

"البعض منا خُلق لكى يكون سعيداً والبعض الآخر لا ، وأنت يا عزيزى رغم كل مواهبك تنتمى إلى المجموعة الأخيرة."

كانت تجلس على رأس المائدة ، وأنا على يمينها.

فجأة، وكأنه يتعمد قطع حديثى مع مارجو، قلب جراهام صحنه الملىء بالسلطة وصدور الديوك على الأرض، فى حين ظلت عيونه مثبتة على بعداء غير خفى.

"هذا غير لطيف منك يا عزيزى،"

قالت وبدأت فى الزحف تحت المائدة لجمع الطعام المتناثر.

ساعدت فى جمع بعض قطع الخس التى وجدت طريقها إلى حذائى.

اعتذرت قائلة:

"أخشى أنه سيكون صعبًا بعض الشيء التعامل معه اليوم. أعتقد أنه ربما نتيجة الإثارة التى سببتها زيارتك."

جلسنا لبعض الوقت ، وشربنا بعض البراندى لم يشارك فيه جراهام، ثم قالت إنه قد حان الوقت لكى تأخذه لينام.

قالت: "لا تسهر".

تبادلنا نحن الثلاثة تحية المساء وتجولت - ومعى كأس البراندى - لاكتشاف المساحة المحيطة بالمنزل ؛ ولكى أفكر مليًا فى الدافع وراء دعوتها لى فى عطلة نهاية الإسبوع. كنت أعلم من خبرتى أن دوافع مارجو لأى شىء كانت تفعله لم تكن أبدًا واضحة

نمت نومًا سيئًا. ربما فى أعماق ذهنى تصورت أننى سأسمع طرقًا خفيفًا على باب غرفتى بعد أن تكون قد أدخلت جراهام الفراش.

استيقظت متأخرًا فى اليوم التالى ، وكنت أول من جلس بجوار حمام السباحة ، ومعى رواية اشتريتها من المطار ، ولم أكن متوقعًا أننى سأجد وقتًا لقراءتها. انضم لى مارجو وجراهام متأخرين. أحسست أنها كانت تبدو متوترة ، وأن مزاجهما لم يكن على ما يرام. عندما جاء روبيرتو وأخذ جراهام معه فيما عرفت أنها جولته اليومية حول الحديقة قالت لى مارجو إن عملية إدخاله إلى الفراش كانت منهكة جدًا.

شرحت لى: "فى النهاية رتبت الفراش الآخر فى غرفته ، ونجحت فى أن أجعله يخلد إلى النوم" ، ثم قالت لى إن الناس الذين دعتهم على

الغذاء سيأتون قريبًا. "إنه تغيير بالنسبة لجراهام ، وهم ناس يعرفهم منذ فترة طويلة ، ويشعر معهم بالراحة."

كان أول من وصل زوجان ؛ هما بيتر وبيجي موسجريف. كانا أمريكيين، وكان هو رجل أعمال متقاعد. كان من الواضح أن جراهام يشعر بتكلف أقل معهما ؛ لأنه فجأة أعلن: "جاك أقدم صديق لي."

ثم طرح الزوجان عليَّ الأسئلة التقليدية ، وشرحت لهما أننا كنا أصدقاء قدامى ، وأنني عملت لديه لفترة من الوقت . أحسست أنه لم يكن هناك داع لذكر أن الشيء الرئيسي المشترك بيننا كان مارجو.

ثم وصل ثلاثة ضيوف آخرون: سير فيليب والليدى شيء ما – كان قد عمل سفيراً لنا في عدة عواصم شرق أوسطية. آخر من وصل كان رجلاً هولندياً ضخم البنية ، مائلاً للسمنة بشكل لطيف، لم أنجح في التقاط اسمه، ولكن كان لديه القدرة على التعامل مع جراهام ، وكأنه طبيعي تمامًا ، وإثارة استجابته أكثر من أى شخص آخر. مع هذه الإضافات إلى الحفل عاد جراهام للحياة بشكل مؤقت ، وتم فتح زجاجة شمبانيا. لكن كان من الواضح أن المجهود استنزفه ، وسرعان ما انتكس إلى حالة الكآبة السابقة، وعند هذه اللحظة قررت مارجو أنه حان الوقت لتقديم الغذاء. قام بهذه المهمة روبيرتو والخادمة التى كانت قد قدمت لي الإفطار في غرفتي.

عند العشاء كنا نحن الثلاثة فقط. أوضحت مارجو أن جراهام كان يفضل تناول السمك في المساء ؛ ولذلك تناولنا وجبة من الفيشيسواز

والسمك المشوى والبطاطس المسلوقة وكريمة البروليه. صاحب هذه الوجبة البسيطة نبيذ أبيض محلى حاد المذاق. قام روبيرتو بالتخديم على المائدة بكفاءة بشكل يوحى بأنه صديق يقدم المساعدة ، وليس السائق الذى يعمل أيضًا كسفرجى- ثم تناولنا المشروبات فى الخارج- حيث كان الجو لا يزال دافئًا ويسمح بالجلوس. أشارت مارجو لروبيرتو أنه حر لما تبقى من المساء ويمكنه إذا رغب أن يأخذ السيارة شريطة أن يتواجد صباح الغد مبكرًا ليأخذنى إلى المطار.

جلسنا لبعض الوقت فى صمت فى حين كانت آخر طيور السنونو فى هذا المساء تنقض وترتفع فوق حمام السباحة ، والأشجار أمامنا تطويها الظلال. كانت مارجو قد أعطت جراهام كرة كبيرة من البلاستيسين ، والتى أوصى بها طبيبه - كشىء يمكن أن يسليه ، وفى نفس الوقت كتمرين لعضلات يده وذراعه.

طرأ لى أن اسأله:

"هل تتذكر مباريات الإسكواش التى كنا نلعبها؟".

كانت الإجابة فورية: ابتسامة ملتوية ، ونظرة خبيثة إلى أعلى من عينيه. رد وهو يختار كلماته بحرص:

"نعم طبعًا أتذكر ، لكن كيف استطعت دائمًا أن... أ ن... " - وارتبك وهو يحاول البحث عن الكلمة البسيطة.

"أن أكسب؟" قلت ضاحكًا:

"لا، ليس دائماً."

"هناك كأس صغير من الفضة في غرفة المكتب فاز به في المدرسة في الإسكواش،"

قالت مارجو ، ولكن بالنسبة لجراهام كان الموضوع قد انتهى ، وإن نظر لي نظرة أو نظرتين جانبيتين سريعتين وكأنني أصبحت جديراً بأن يحاول إدراك هويتي.

"أعتقد أن هذا يكفيك الآن ،"

و أخذت قدح البراندي منه. قالت لي وهي تساعده على اجتياز النوافذ الفرنسية ودخول الصالة

"خذ كأسك إلى غرفة المكتب ، وسأكون معك خلال نصف ساعة ، أو في حدود ذلك."

تركت البراندي دون أن أكمله ودخلت إلى المنزل. كانت الأرفف المزدحمة تدل على أن قراءات جراهام اتسعت لتتعدى نوعية الأدبيات الشعبية ، التي يفضلها البعض كنوع من أنواع التسلية، وكشكل من أشكال ملء الفراغ ما بين عمل الأموال، وبين عد ما تم تحقيقه حتى الآن. أخذت طبعة أولى من كتاب برايتون روك ، وأنعشت ذاكرتي حول روعته الأولى. كان من اللافت أن المكتبة لم يضف إليها شيء منذ الخمس السنوات الماضية؛ فمارجو لم تقرأ أبداً سوى المجلات.

قالت بعد أن عادت متأخرة جداً.

"لا أعرف ماذا كنت سأفعل بدون ماريا، أحيانًا يكون جراهام عنيداً. اليوم تصورت أنه لن يسمح لنا أبداً بأن نجعله يرتدى بيجامته - كأننا كنا نحاول أن نقتله."

جلست بإرهاق فى الكرسى أمامى وكأسها فى يدها. قمت واقفًا ووضعت مائدة صغيرة بجانبها.

سألتنى: "مازلت لا تدخن؟" وعندما قلت إننى لا أدخن طلبت منى أن أذهب إلى الدُرج الكبير للمكتب وأخرج منه علبة سجائر وكبريت.

"إنها متعة أسمح بها لنفسى بعد أن يكون قد مضى للفراش."

أشعلت لها السيجارة، ثم بحثت حولى عن طفاية، وأحضرتها من عتبة النافذة.

"كيف وجدته؟"

كشرت. "لست واثقًا مما كنت أتوقعه. أعتقد أن الوضع أسوأ مما كنت أتصور. ماذا يقول الأطباء؟"

قالت: "يأخذ أدوية عديدة، ولكنى أعتقد أنها مخصصة لى أكثر منه. المفروض أنها تجعله هادئًا. من الصعب أن أتقبل أنه ينسحب بعيداً وليس هناك ما يمكن عمله لوقفه... لوقفه من الانسحاب بشكل كامل."

نظرت بعيداً عنى وشدت على سيجارتها.

قلت لها: "أنا آسف يا مارجو".

قالت. "لا أحد يستطيع أن يقول إنني غير مسئولة عن الوضع الذى أنا فيه،" ونظرت لي وضحكنا نحن الاثنين. أضافت: "الشيء الوحيد الجيد هو أنه لا يشعر بما يحدث له. بالطبع - كما ترى - لست فى حاجة لشيء. ومع ذلك لم تكن الحياة سهلة خلال الأعوام القليلة الماضية . عندما بدأ يتصرف بغرابة وينسى ، ثم ذهبنا إلى الطبيب لم أصدق أذني- جراهام الذى كان يفتخر بالحفاظ على شبابه، الرجل الذى لم يقدم أية تنازلات مع نفسه أبداً."

قطعت صمتها: "هل هو الذى طلب أن يقابلنى فعلاً؟"

اعترفت "لا".

انتظرت على أمل أن تضيف شيئًا آخر ، ولكنها ظلت صامتة، تدخن سيجارتها بعصبية ، وتطلق سحبًا من الدخان.

"لم أتصور ذلك فعلاً-كان يبدو عليه أنه لا يعرف حتى من أنا."

"آه، هو يتذكرك أحيانًا-عادة ما يكون بخصوص شيء فى بداية تعارفكما. هو لا يستطيع أن يتذكر ماذا تناوله على العشاء ، ولكنه فجأة يتذكر قصة حدثت منذ سنوات عديدة. الشيء الفظيع هو أننى أحيانًا أتصور أن الأطباء مخطئون وأنه يتحسن، ولكنه يعود ليتصرف بغرابة؛ مثل التبول على حذائه ، أو تقطيع الملاءات. لا، اعتقدت أن رؤيته لك قد تكون مفيدة له، بل شعرت أنها قد تكون مفيدة لي أيضاً.

كمـا ترى جـاك، أنا وحيـدة تمامـًا فى كل هذا. لقـد شـاهدت مـعظم أصدقائنا على الغذاء. الوحيد الذى أهتم به هو هوينجير العجوز، إنه شخصية ممتعة ومصدر عزاء قوى ، ولكن لديه أجندته الخاصة فى كل هذا..."

قلت بخبث: "حقًا؟".

"هو أرمل وكان يحمل تجاهى دائمًا إعزازًا خاصًا."

"هل أفترض أنك تحرمين جراهام من شىء ؟" أومأت. "و أنت لست الفتاة التى ترضى بحياة العزوبية."

"الغريب أنه رغم إعجابه بى، لا أعتقد أنه يرغب – فى ظل هذه الظروف – فى إقامة علاقة عاطفية معى. إنه يود أن أصبح السيدة هونيجير– وهو يعتبر أكثر الرجال ثراءً فى هذه المنطقة من "كان"".

"و روبيرتو؟"

لم أستطع أن أمنع نفسى من السؤال.

أجابت: "هو جذاب لا شك ، ولكن أمره واضح – كذلك يا عزيزى ليس من اللائق أن يذهب الواحد إلى الفراش مع سائقه."

أخذت سيجارة أخرى وقمت واقفًا وأشعلت عود كبريت.

"أنا آسف مارجو،" قلت وضغطت على كتفها.

قالت: "أعلم أنك آسف. جاك، أنت دائما كنت شهمًا جدًا... فى نهاية الأمر لك كل الحق أن تقول إننى استحق ما يحدث لى."

"آه، لو كنا جميعًا سننال ما نستحقه من عقوبة، كما قال أحدهما، فمن منا سيفلت من حبل المشنقة؟"

سألت: "و أنت؟ هل كتبت أية كتب جيدة مؤخراً؟"

"يقول الناس إن بداخلنا كتاب واحد جيد-ربما كتبت أنا كتابى هذا منذ خمسة عشر عاماً. وحتى هذا الكتاب لم يحقق نجاحاً يذكر."

"ماذا كان اسمه؟"

نظرت حولها كأن العنوان يحلق فى متناول يدها

أحسست بألم لعدم تذكرها.

"امرأة اسمها الغد-إنها فقرة مقتبسة من شعر الأمريكى كارل ساندبورج."

قالت

"آه نعم، كان حقًا جيداً جداً. ربما صدر فى التوقيت الخاطئ."

"على الأقل نجح فى أن يُنشر ككتاب ورقى الغلاف. تم عرضه للمراجعة مؤخراً لكن تقرر عدم إعادة طبعه." هززت كتفى.

"أكتب شيئًا الآن ولكننى مضطراً للكتابة بكثرة مقابل أجر لإبعاد الذئاب عن باب بيتى ؛ ولذلك لا يتبقى لى وقت كثير."

"و اهتماماتك الأخرى فى الحياة؟"

نظرت لها نظرة سريعة ، ورأيت أنها تعنى ما اعتقدت أنها تعنى.

"لا شىء ... لست مستعداً لمقايضته مقابل كتابة رواية مقبولة."

تنهدت بعمق وقالت:

"إنها حياة غبية. أرجو أن تصدقنى أننى لم أتزوجه من أجل أمواله."

"أنت لم تتزوجيه فحسب، أنت تركتينى من أجل ذلك- وأنا كنت مغرماً بك جداً."

"أحياناً لم تظهر ذلك بالقدر الكافى."

"أعتقد أننى لم أفكر فى جراهام باعتباره غريماً محتملاً . ربما كان على أن أفعل ذلك."

"أعطانى شعوراً بالأمان - ولا أعنى الأمان المادى فقط."

ذكرتها:

"لقد جمع الجزء الأكبر من ثروته فى واقع الأمر بعد أن تزوجك".

قالت: "هذا صحيح".

"و ترك المسكينة... ماذا كان اسمها؟"

قدمت لى الاسم "سوزان. لقد تزوجت مرة أخرى ، وفجأة بدأت فى إنجاب الأطفال ، وهو شىء لم ينجح جراهام فى تقديمه لنسائه."

"هل أنت آسفة – على نفسك أعنى؟"

"إننى لم أنجب أطفالاً؟"

بدت وكأنها تفكر مليًا فى السؤال، ثم هزت رأسها.

"لا، لقد شفيت من هذه الغريزة بعد أن أصبح لى زوج غير قادر على ضبط نفسه. على أية حال كل هذه أمور عفا عليها الزمن كما يقولون".

وجدت نفسى أسألها: "و لماذا لم ننجب نحن طفلاً؟"

"لأنك دائمًا كنت تقول إنك لا تريد أطفالاً، وكان لدى من الأمانة ما لا يسمح لى بعدم احترام رغبتك."

أشرت لها "أعتقد أننى كنت أشعر أنه لم يكن هناك ما يكفى من المال".

قالت "لا يوجد أبداً ما يكفى".

"إنه قدر معظمنا. قليل من الناس هم الذين يملكون منازل فى الجنوب الفرنسى، وسيارات مرسيديس، وكل ما يتعلق بهذا النمط من الحياة."

قالت: "و ماذا يعنى كل ذلك؟ هذا لا يمنع أن يكون المرء وحيداً كالكلب – أو الكلبة إذا أردت"

وابتسمت ابتسامة ملتوية – ابتسامة كنت أعرفها جيداً، ابتسامة

كانت تقول، "أعرف أن كل هذا يبدو كأنه تمثيل مسرحى ، ولكننى حقًا صادقة وصريحة."

وهى ترفع نظرها لى انعكس ضوء المصباح على الدموع التى ملأت عينيها. ثم، وكأنها قطرة مياه صغيرة معلقة فى صنبور سالت دمعة على خدها. كنت قد رأيت مارجو تبكى كثيراً وعادة كنت أنا السبب وكان ذلك دائمًا يشعرنى بالحزن والذنب - وأيضًا بالمحبة التى يصاحبها رغبة فى التلامس الجسدى.

مشيت ناحيتها ووضعت يدى على كتفها. هذه الحركة فجرت مزيداً من الدموع التى سالت على وجهها...

"أنا آسفة."

أعطتنى سيجارتها ، وأشارت لى أن أطفئها عندما جلست على ذراع الكرسى وضعت يدها حول رقبتى ، وأنزلت رأسى إلى أسفل لتلتقى بشفاهها. ذقت طعم الكحول و الدخان فى فمها وملح الدموع. كان طعم الدموع دائما يثيرنى. طرأت فى ذهنى فكرة أنه ليس هناك من يتعين علىّ أن أكون مخلصًا له. عندما انتهينا مررت يدها على جبهتى الرطبة فى حنان.

كنت أنا أول من لاحظ هيئة جراهام لابسًا بيجامة بيضاء واقفًا عند الباب المفتوح لغرفة المكتب ، وظلام الدهليز من ورائه. تتبعت هى اتجاه نظرتى. تحركت جانبًا ، وأسرعت بإنزال تنورتها وقامت واقفة.

"أه، أنت ولد شقى. ألا تستطيع النوم؟"

و أخذته من ذراعه وخرجت به من الغرفة.

حشوت سروالها الداخلى فى جيب سترتى ورشفت ما تبقى من الشارتوز الأخضر الذى كانت تشربه. انتظرت عشرين دقيقة ولكنـها لم تعد.

نمت مرة أخرى بشكل سيئ. كنت قلقًا حول ما قد يكون جراهام شاهده أو سمعه ، وحول ما إذا كان عقله قادراً بالفعل على استيعاب مغزى المشهد الذى شاهده. وهل كان الأمر يهم؟ ظللت أسأل نفسى. كما قالت هى بنفسها، لم تكن تحرمه من شىء . وما كنت أريده فى تلك اللحظة كان وجودها وأيضا تأكيدها - حتى وإن كان موجزاً - على أن ما حدث كان يعنى لها أكثر من مجرد إشباع رغبة جسدية. كنت أيضاً أود أن أسألها عن السبب الحقيقى وراء دعوتها لزوجها الأول لقضاء عطلة نهاية الإسبوع مع زوجته السابقة ، وزوجها المريض؟

تناولت إفطارى مرة أخرى فى حجرتى. عندما نزلت وجدت جراهام جالسًا فى كرسيه المعتاد بجوار حمام السباحة. اقتربت منه بتوجس شديد ، ولكنه كان يبدو فى حاله ودوداً ، حتى أنه قام بالإشارة إلى المياه ، وكأنه يقترح علىّ أن آخذ غطساً - أو هكذا تصورت.

"أخشى أننى راحل هذا الصباح."

"هل يجب أن ترحل؟"

"إنهم ينتظرونني في العمل."

انتظرت مارجو دون جدوى.

أخيراً جاء روبيرتو ، وأبلغني أن السيدة ديدكو تشعر ببعض التوعك وتعتذر عن الحضور. وسألني عما إذا كنت قد حزمت أمتعتي وتهيأت للذهاب إلى المطار؟

كتبت لها خطاب شكر ، وانتظرت على أمل أن ترد عليّ. مرت أربعة أشهر قبل أن أتلقى منها رسالة موجزة تخبرني بأن جراهام توفي نتيجة سكتة دماغية. كتبت لها لأقدم تعازيَّ ، وكذلك أية مساعدة قد تحتاجها. جاء ردها على هذا الخطاب بعد شهرين، وفيه أبلغتني أنها ستتزوج السيد هونيجير-"أنت تتذكر أنه حضر الغذاء يوم الأحد ذلك ." ظللت أسأل نفسي - لبعض الوقت - هل كانت الأمور ستتخذ مجرى آخر إذا كان جراهام لم يظهر عند مدخل الباب تلك الليلة. في غضون ذلك، ظللت أدخل التغييرات على روايتي ، وتأجيل إرسالها إلى الناشر.

(١٢)

ابتسامة من بعيد

كان صباحًا مشمسًا وكانت التكهنات بحالة الجو تشير إلى استمرار اعتدال الطقس طوال اليوم مع نسمة غربية خفيفة. كانت المشرفة قد طلبت منه أن يجلس - إذا أراد - فى الخارج لبعض الوقت ؛ لذلك ساعدته الممرضة الجاميكية ؛ التى كان يصر على تسميتها سارة، على نزول السلالم إلى الحديقة - حيث كان قد وضع كرسى بجوار سياج من الشجيرات تعمل كواق من الريح. غطته سارة ببطانية ، وأعلمته أن هناك موس بالشيكولاته على الغذاء.

قال:"حسنًا" ، رغم أنه أحس ببعض الغضب من نفسه لاهتمامه بمحتويات الوجبات التى كانت تمثل علامات بارزة على مدار أيامه القاحلة. كان قد حاول من قبل خلال هذا الصباح أن يمسك نفسه من التعليق على أن اللحم الذى تناوله لم يتم طهيه إلى درجة الهشاشة التى كان يحبها.

"يمكنك أن تأخذ غفوة هادئة حتى موعد القهوة،" قالت سارة وهى تميل عليه وتتحدث داخل أذنه اليسرى -أذنه السليمة.

"لا أريد أن آخذ غفوة هادئة، أو حتى غفوة مليئة بالضجيج،"

قال بفظاظة رغم أنه كان يحب سارة وأضاف: "أريد نسختى من جريدة التايمز."

قالت :"سأحضرها لك،"

و أحس بوجودها الوافر وهو يتحرك بعيداً عنه.

من الأرجح أن النعاس قد غلبه لبعض الوقت لأنه عندما أيقظه شعاع من ضوء الشمس تخلل جفونه المغلقة حتى نصفها ، وجد يديه مطوية على نسخة من جريدة التايمز. مثلما كان يحدث كثيراً، لم ينم جيداً تلك الليلة. منذ ما يقرب من السنوات العشر الماضية ، بل فى الواقع منذ أن جاء إلى الدار، كان ينام نوم الخدر حتى الفجر، ثم فجأة ينزلق فى غيبوبة تامة خلال الساعة أو الساعتين الأخيرتين. كان عادةً يستيقظ بإحساس من الصدمة قبل ثوان قليلة من الطرق على بابه، ودخول إحدى المرضات ، التى تساعده فى تعديل وسادته ، وتضع صينية الإفطار على المائدة المجاورة لفراشه. كانت الصدمة لا شك هى نفس الصدمة التى يعانى منها السجناء المحكوم عليهم بالإعدام: أناس يستيقظون كل صباح على واقع مؤلم يجب أن يتقبلوه كل يوم من جديد. فى حالته كان يستيقظ على واقع أنه رجل مسن ونزيل فى دار للمسنين. كان هذا الطوفان المفاجئ من المعرفة يملؤه دائمًا بالخوف ، ويتركه

لاهثًا. كان هذا الإحساس يزداد ألمًا ، وهو ما كان يحدث كثيراً خلال تلك الفترة من النوم العميق ، إذ حلم بنفسه وهو أصغر سنًا ويعيش حياه أكثر نشاطًا. كان عادة فى هذه الأحلام يكون فى الشامبا(*) التى يملكها فى "المرتفعات البيضاء" فى كينيا. عندما بدأت اضطرابات الماو ماو(**) أحس أنه يجب أن يفعل الصواب ويعيد زوجته جوين إلى إنجلترا. أما هو فقد ظل باقيًا وكان سعيداً رغم المصاعب والمخاطر، وعندما أرسل لها لتعود مرة ثانية لكى تلحق به كان يبدو أنها اعتادت الحياة فى إنجلترا ، أو ربما وجدت شخصًا آخر. لم يفاجأ عندما كتبت له فى آخر الأمر تطلب منه الطلاق. عندما زاد العمل فى الشامبا عن طاقته أقنعه جار له أن يبيع ويعود إلى إنجلترا، وقد عاش لبعض الوقت فى منزل صغير فى قرية جميلة فى "هامشاير"، ولكنه افتقد رحابة المدى فى كينيا ، والآن لم يتبق له ذكرى عن ذلك المنزل الصغير سوى برودة الشتاء ، والوحدة الناتجة عن الإحساس بعدم الانتماء.

فى أحلامه كثيراً ما كان يجد نفسه يتحدث بلغة الكيكيويو إلى الأولاد - رغم أنه فى أثناء يقظته لم يكن مدركًا أنه يتذكر أية كلمات من هذه اللغة. كان هناك حلم متكرر يظهر فيه واحد من الأولاد وهو يسير حاملا دبيه(***) من المياه تتخبط بشكل غير ملائم بسيقانه العارية

(*) المزرعة باللغة السواحيلية المترجم

(**) حركة التحرر الوطنى ضد الاستعمار البريطانى فى كينيا ، والتى اندلعت خلال الخمسينيات من القرن العشرين المترجم

(***) القربة باللغة السواحيلية . المترجم

المليئة بالعضلات. خلال الخطوات الأولى كانت المياه تتساقط منها تاركة بقعاً داكنة على الأرض الجافة. ثم حل محل ذلك سيل من قطرات المياه، ولإدراك أن الديبه كان بها تسرب. كان يصرخ للولد؛ والذى لم يفعل شيئاً سوى الابتسام له ، والاستمرار فى طريقه حتى حوض نباتات الزينة. بعد أن يمشى بخطى واسعة ناحية الولد كان ينتزع منه الديبة ، والتى تكون حينذاك قد أصبحت فارغة تقريباً. ثم كان يسندها على الأرض ، ويشاهد - بائساً - ما تبقى بها من مياه تتسرب منها.

أرغم نفسه على التقاط جريدة التايمز وإلقاء نظرة سريعة على الصفحة الأولى. كالعادة لم يجد ما يثير اهتمامه. رغم أنه استمر فى طلب جريدة التايمز -كان من مصادر فخره أنه الوحيد فى الدار الذى يأخذ هذه الجريدة-إلا أنه نادراً ما كان يقرأ أكثر من العناوين العريضة . أجزاء كبيرة من الجريدة الآن كانت مخصصة لمواضيع لم تكن - حتى فى أيام شبابه - تثير اهتمامه مثل الرياضة ، الشئون المالية ، ومن الأخبار العالمية كان يقرأ بالكامل فقط تلك الأخبار المتعلقة بأفريقيا وخاصة أخبار الانقلابات والاضطرابات والمجاعات . نظر إلى برامج التلفاز التى ستقدم فى المساء مع ملاحظة تلك التى يتم تزكيتها، وألقى نظرة سريعة على الوفيات، ولكنه ذكّر نفسه بحزن أن كل الناس الذين يعرفهم - ويمكن أن يظهروا فى الصفحة - قد ماتوا منذ أمد بعيد. فى أحيان قليلة جداً كان يجد خطاباً فى صفحة المراسلات يثير سخطه أو مرحه. حتى الكلمات المتقاطعة التى كان دائماً يستمتع بها، أصبحت الآن تفوق قدراته . مرّ عليه وقت كان قادراً

على إكمال الجزء الأكبر منها، دون أن يترك إلا فيما ندر ركنًا بسيطًا دون أن يكمله.

بالطبع لم يكن بالدار مكان كاف لكل مراجعه ؛ ولذلك لم يعد قادرًا على البحث عن نص من شيلى أو وردزورث. أحيانًا-منذ عام أو عامين مضيا-كان يحتفظ بالكلمات المتقاطعة ، وينظر إلى الحل فى صباح اليوم التالى، ولكنه صار يجد - بشكل متزايد - أن مفاتيح الحل أصبحت بعيدة المنال ، أو يتعذر فهمها. كان يبدو له أن الأشخاص القائمين على وضع الكلمات المتقاطعة تم تغييرهم ، وأنه لم يعد على نفس الموجة معهم.

أحيانًا كان يفتقد متعلقاته الشخصية. حَدّث سارة مرة عن مجموعة كتبه وإسطواناته الرائعة ، وظل يشعر لأيام بعدها بخواء نتيجة فقدانه لها. كانت بداية التخلص من الكتب عندما با ع الشامبا فى كينيا، كان قد ترك وراءه الكثير من أثمن الكتب والإسطوانات' حيث لم يكن لديه القوة ، أو صناديق الشاى الكافية لكى يشحنهم فيها، وإن كان- لسبب ما - قد أخذ معه كل مخزونه من البنطلونات القصيرة والقمصان الكاكى، فقط لكى يتخلص منها بعد أن استقر فى منزله الصغير. ثم، بعد أن با ع المنزل الصغير عندما أقنعته ابنته وزوجها المحامى أنه لم يعد قادرًا على رعاية نفسه، تخلص مما تبقى من الكتب-باستثناء نسخة من الإنجيل ، وقاموس إكسفورد ، وطبعة من جزء واحد لشكسبير أصبحت حروفها المطبوعة صغيرة جدًا بالنسبة له الآن. بعائدات بيع المنزل الصغير نجح زوج ابنته فى الحصول له على غرفة مدى الحياة فى "بولدينج هايتس" .

كانت الغرفة طويلة وضيقة ، وكان بها فراش ، وكرسى ذو ذراعين، ومائدة صغيرة أسفل النافذة عليها جهاز تلفزيون ٩ بوصة فى حالة عدم رغبته فى الانضمام للآخرين فى غرفة التلفزيون. كان يحتفظ على التسريحة بصورة باهتة لوالدته ووالده ، ونسخة صغيرة من بورتريه و.ج. مالير لبيتهوفن؛ أما صورة ابنته ، فكان يخرجها ويضعها بجوار بيتهوفن عندما كانت تزوره مع زوجها فى عيد ميلاده. كان يمتلك أيضاً راديو صغيراً ، وزوجاً من السماعات تمكنه من الاستماع فى أثناء فترات أرقه دون أن يزعج أحداً؛ وفى صباح أيام عديدة كان يتم اكتشافه وهو نائم بعمق ، ولا يزال يلبس السماعات مما كان يُضحك الممرضات.

و هو يمسك الجريدة بصعوبة ، وذراعاه الممدودتان تزدادان ثقلاً من المجهود ألقى نظرات سريعة على كل صفحة ، وتوقف للحظات للاستمتاع بصورة النمرة وأشبالها فى إحدى حدائق الحيوان الأوروبية، ثم طوى الجريدة ومرر عينيه على مفاتيح حل الكلمات المتقاطعة. كان سيضعها جانباً ويغفو قليلاً حتى موعد إحضار قهوة الصباح عندما قرأ "سيدة عظيمة مدشنة للسفن"(*)

واستطاع أن يكتب فوراً "هيلين". مر على كافة مفاتيح الحل مرة أخرى، وتوقف كثيراً عند كل واحد منها - خاصة تلك التى كانت تضم أحرف كلمة "هيلين"، ولكن لم يطرأ شىء آخر على ذهنه.

كان يعيد الغطاء إلى قلم البيرو عندما تدافع اسم "هيلين" تدريجياً داخل ثنايا عقله.

(*) إشارة إلى قصيدة « مارلو » حول هيلين من طروادة وتدشينها للسفن. المترجم.

مثل حبيبات الرمل الخشنة داخل قوقعة، أثار ذلك قدراً من التوتر واسترعى انتباهه. مال إلى الوراء فى الكرسى وعملاً بخبرته، ترك الاسم يطفو خفيفًا فى عقله. بعد أن ظلت مغمورة طوال ثلاثة أربا ع عمره، خرجت من وحل وعيه الباطن صورة موجزة ، ساطعة ونقية مثل اليوم الذى حدثت فيه.

فى كابينة ضيقة على مركب وقفت امرأة أمام المرآة. كانت تلف حولها بشكيراً ترك صدرها عارياً، فى حين استلقى هو على السرير خلفها ينظر إلى حلمتى ثدييها الورديتين ، والتى قاربت السواد تعلو وتهبط وهى تسرح شعرها. كانت أسنان الفرشاة من الحديد مثبتة فى قاعدة من المطاط الأحمر. وهو يمرر لسانه على شفتيه الجافتين تفوه بالاسم "هيلين" وابتسمت له فى المرآة وقالت: "سعيد؟" فى حين كانت المروحة تدور ببطء فى الجو الهادئ لميناء بورسودان.

دفعته سارة برفق وأعادته إلى الحديقة فى "بولدينج هايتس".

"القهوة،"

قالت بإشراق.

"اعتدل فى جلستك. هيا."

أخذ منها الفنجان ، وأمسكه على حجره. عندما انصرفت استطا ع أن ينثنى ويضع الفنجان على العشب بجواره. تتبع ردفها الكبير وهى تمشى عائدة إلى البيت. تذكر أنها قالت له مرة إنه على الأقل لديه ذكرياته. كان قصدها طيباً ولكنها ذكَّرته أن الوقت المخصص

له للعيش قد انتهى ، وأن كل ما تبقى له هو أن يحيا فى ذكرياته؛ وهى ذكريات بدأت تتلاشى يومًا بعد يوم. دائمًا، وبجهد واع، كان من الضرورى إنقاذ الذكريات من السجن الذى حكمت به الشيخوخة عليها ، السجن الذى لم يعد سجانى العقل يغامرون بالذهاب إليه أكثر فأكثر.

تحرك وانزلقت الجريدة من على حجره. عندما مال ليلتقطها لاحظ قهوته بجانبه ، ورأى أنها اكتسبت طبقة لا لون لها حركها بعقب قلمه، وشرب نصفها وهو يكشر.

حتى يؤكد أن "هيلين" ليست فقط دليلاً لحل الكلمات المتقاطعة كتب اسمها بحروف كبيرة وبارزة على هامش الصفحة الأخيرة: هـ ى-ل-ى-ن. أحس بالانتصار: فبمعجزة ما استطاع أن ينتزع من بين ظلمات عقله ذكرى، ذكرى ربما لواحدة من أهم لحظات حياته. كيف - من بين كافة ذكرياته - سُمح لها بأن تغوص بعيداً عن متناول الاستدعاء؟ هل كانت أهواء العقل قد أرسلتها لأسباب خاصة بها - ربما لتجنب الألم آنذاك - إلى النسيان؟

حاول تركيز ذهنه على اسم هيلين وهو يسعى بشكل يكاد يكون عضوياً لانتزاع مشاهد أخرى إلى الوجود. هل كان يعرفها قبل أن يقابلها على السفينة؟ هل لحقت بالسفينة هى أيضا عند "تيلبورى"؟ ماذا حدث بين تلك اللحظة وبورسودان؟ هل نزلت ربما بعد عدة أيام فى عدن؟ لو كانت نزلت فى مومباسا فهل كان ينتظرها زوج؟

لماذا لم تتطور علاقتهما أكثر من ذلك؟ هل لأنه فى تلك اللحظة كان خاطبًا ، وكانت خطيبته قد حجزت مقدمًا للحاق به فى كينيا؟

أحس بوجود ساره بجانبه وهى ترفع الجريدة عن حجره.

"هيلين؟"

سمعها تقول بصوتها المنغم الرتيب. وأضافت :

"هل هذا كل ما استطعت أن تنجزه؟"

أبقى عينيه مغلقتين.

"و لم تكمل قهوتك،"

قالت ، وهى ترفع نبرات صوتها عدة درجات وكأنها توبخه .

ثم تضايق عندما قرأت ببطء دليل حل الكلمة.

سألته.

"و لماذا تعتقد أن هيلين هى الكلمة الصحيحة؟"

ثم مالت ورفعت الفنجان. قبل أن تنصرف لمست كتف الرجل المسن بحنان.

بالطبع هيلين هى الكلمة الصحيحة.

خلف جفونه المغلقة امتدت الحرارة الاستوائية ورائحة الموانئ الأجنبية النفاذة . كانت امرأة نصف عارية تبتسم له فى المرآة وهى

تسرح شعرها بحركات متواترة. من وراء صوت مروحة السقف جاء الصوت الرتيب لأغاني الحمالين ، وهم يصعدون خلف بعضهم على ألواح السقالات الخشبية الضيقة والمنحنية إلى جوف السفينة. كان الحمالون السود عديمو الملامح، وظهورهم العارية تلمع، يسيرون وكأنهم على جهاز آلي لنقل البضائع. كان يكاد يسمع من خلال غنائهم الرتيب صوت هيلين وهي تسأل: "سعيد؟".

الحبيبة هيلين

(١٣)

تاكسى له وحده

يقف شاب إنجليزى ذو شعر طويل أشقر بجانب كشك للجرائد. يلبس سترة رمادية من القطيفة وبنطلونًا كاكى واسعًا ، وقميصًا مشجرًا أحمر. يقف داخل الشارع لعدّة أقدام ، فتمضى السيارات قريبة منه. وراءه على الرصيف تجلس عدة نساء ريفيات يلبسن السواد وبجوارهن السلال ، أو يحملن أطفالهن على أكتافهن؛ يتحدثن بصوت عال وخشن كأنهن يتعاركن. تجول عيون الشاب بين الحارات الأربع للمرور وهو يتقدم فى طريقه عبر شارع الجيزة الذى يبدأ على بعد عدة أميال عند الأهرامات. أغلب المرور سيعبر الجسر عند فندق الشيراتون ، ثم يعبر جسرًا ثانيًا متوجهًا إلى ميدان التحرير ووسط المدينة . البعض الآخر سيتجه إلى اليسار عند أول كوبرى ، ويسير بمحاذاة النهر فى اتجاه الزمالك.

من حين إلى آخر يندفع الشاب سريعًا إلى قلب حارات المرور وهو يصرخ "التحرير" يقولها لأى تاكسى يلمح فيه مكانًا خاليًا. بهذه

الطريقة يعرف السائق أن مقصده هو ميدان التحرير. وهم ينطلقون مارين بجواره يلتفت بعض الركاب ناحيته ، ويحدقون فيه أو يبتسمون. من حين إلى آخر يقوم بنقل الكتب الكثيرة التي يحملها من تحت إحدى ذراعيه إلى الذراع الأخرى؛ بعض هذه الكتب رفيع ويكثر انزلاقه من بين الكتب الأكبر. من حين إلى آخر يلقى نظرة سريعة على ساعته؛ وهى حركة عصبية أكثر منها رغبة حقيقية فى معرفة الوقت. يكون غير مهيأ عندما تنطلق سيارة تاكسى حاملة فتاة بمفردها فى الخلف باتجاهه مباشرة. يقفز جانبًا وفى نفس اللحظة تنطلق بعض النساء وراءه فى الضحك. تقف سيارة التاكسى وهى تحدث صوتًا حادًا؛ تميل الفتاة إلى الأمام وتدفع للسائق. وهى تغلق الباب وتدور للوراء يعتقد أنها قد تكون إحدى طالباته ، ولكنها لا تنظر إليه.

بتردد وكأنه يخشى حسن حظه يسأل السائق:

"ميدان التحرير؟"

يومئ السائق برأسه ، ويدخل الإنجليزى بجواره. يلقى الإنجليزى نظرة جانبية سريعة إلى السائق ، ويجده رجلاً له رقبة سميكة ربما فى الخمسينات من عمره ، وله ذقن تميل إلى الشيب. كانت تتدلى من المرآة أمامه نسخة مصغرة من القرآن مربوطة بسير من الجلد، فى حين كانت لوحة أجهزة القيادة عليها عدة وصايا حول إكرام الوالدين ، والتوكل على الله ، والحذر من الحاسدين.

يسند الإنجليزى الكتب على حجره ، ويحدق خارج النافذة إلى البوابة الحديدية العالية للسفارة الروسية حيث توقف التاكسى، بعد أن أخذ الحارة الداخلية وراء سيارة مرسيديس بيضاء تحمل لوحات دبلوماسية ، وبها سائق أسود يلبس قبعة. على قمة مجموعة الكتب يوجد كتاب لصامويل بيكيت قارب الإنجليزى على الانتهاء من قراءته. مشاهدة اسم الكاتب يدفعه إلى التفكير فى التوليفات العديدة التى تشكل القانون غير المكتوب للجلوس فى أحد تاكسيات القاهرة إذا كان لك الحظ فى العثور على واحد. وهو يرى الصف الطويل من السيارات أمامهم شرع الإنجليزى يعدّد فى ذهنه القواعد التى يجب اتباعها

فى حالة رجل بمفرده ، ويكون-كما فى الحالة الراهنة النادرة جداً-التاكسى خالياً، فيجب – إلا إذا كنت متكبراً، أو لا تمانع أن يراك الناس كذلك- أن تجلس فى المقعد بجوار السائق؛ بالطبع أيضاً-وحتى لو كنت متكبراً-يجب أن تجلس فى نفس هذا المكان لو أن هناك امرأة فى المقعد الخلفى. لو أن المقعد الأمامى مشغول برجل، وهناك امرأة بمفردها فى المقعد الخلفى، فعلى الرجل الجالس فى الأمام أن يقدم مقعده للمرأة ، ويجلس هو والراكب الجديد فى الخلف. لو أن هناك امرأة فى المقعد الأمامى، فستنتقل إلى الوراء مع المرأة الأخرى تاركة مقعدها بجوار السائق إلى الراكب الجديد. لو أن رجلين ركبا التاكسى وهو خالٍ فبوسعهما أن يجلسا معًا فى الخلف رغم أن أحدهما قد يجلس فى الأمام مع السائق ، ويدور حديث ثلاثى بينهم؛ لو أن هناك امرأة فى الخلف فسيتم دعوتها للجلوس فى الأمام ، وسيحتل الرجلان

المقعد الخلفي. إذا كنت امرأة والتاكسى خالٍ ، فستجلسين فى الخلف؛ لو أن هناك امرأة فى الخلف فستنضمين إليها؛ لو أن هناك رجلاً - أو رجلين - فى الخلف، فسوف تجلسين بجوار السائق. لو أن هناك امرأتين، فإنهما ستقومان بالجلوس سوياً فى الخلف لو كان التاكسى خاليًا؛ ولو أن هناك امرأة أخرى تجلس فى المكان ، فسيحشرن أنفسهن جميعا فى الخلف؛ لو أن هناك رجلاً بمفرده يجلس بجوار السائق، فهذا الوضع مناسب، ولكن إذا كان متكبراً ويجلس بمفرده ، ولا يقوم من تلقاء نفسه بالخروج والجلوس فى المقعد الأمامى، فسيطلب منه السائق أن يخلى مقعده للمرأتين.

يتساءل الإنجليزى إذا كانت هناك توليفات أخرى ، ويفكر أنه لا شك أن شخصية " مولى " لبيكيت كانت ستتكرر مرة أو أكثر . ثم يقول لنفسه إنه يجب أن يسأل أحد أصدقائه المصريين من الأدباء إذا كان أحد قد حاول ترجمة بيكيت إلى العربية.

أدرك أن التاكسى تحرك إلى الأمام ، وينتظر الآن بمحاذاة مدخل فندق الشيراتون. يشاهد ثلاثة يابانيين يرتدون بذلاً وينحنون لبعضهم البعض فى حين يفتح لهم البواب الذى يرتدى زيًا خاصًا الباب. ونظراً لأن أيًا منهم لا يريد أن يأخذ المبادرة، تقوم سيدتان أمريكيتان مسنتان ترتديان بذلات خضراء بالمرور عبر الباب معا ، وتشقان طريقهما وسط الرجال اليابانيين الثلاثة.

يهتز التاكسى وهو يعاود التحرك ، ويلاحظ الإنجليزى أن السائق قد فتح علبة سجائر مارلبورو. يكرمش الغلاف السيلوفان ويرميه من

النافذة ومن ورائه قطعة الورق الفضية السائبة. يمد العلبة باتجاه الإنجليزى.

"شكرًا، أنا لا أدخن،"

رد الإنجليزى بالعربية، بعد أن أعد العبارة فى ذهنه. يغير السائق السرعة مستخدمًا يده الحرة ، وينطلق مرة أخرى. يشعل السيجارة بحرص من آخر عود كبريت، ثم يرج العلبة مرة أخيرة ، ويرميها خارج السيارة. بعد أن أحس الإنجليزى أن إيماءة السائق الكريمة تتطلب منه أن يبقى الحوار مستمرًا، أضاف "أحاول أن أتوقف عن التدخين."

يعرب السائق عن اندهاشه وإعجابه، ثم يقول إنه هو أيضًا حاول عدة مرات أن يتوقف عن التدخين. يوضح أن عمله يتعب أعصابه ، وأن التدخين يساعده. ينظر جانبًا إلى الإنجليزى "البنزين للسيارة والسجائر لى."

يضحك الرجلان.

يعبران الآن الجسر والفندق عن يمينهم. توجد مركبتان لصيد السمك أسفل الفندق؛ فى إحداهما يرفع رجل مساحة من الشبك، يتفحصها، ثم يرفع مساحة أخرى. فى المركبة الأخرى تُرضع امرأة طفلاً فى حين تغطس فتاة صغيرة صفيحة فى النهر ، وتسكب المياه على قدميها.

تزايد زحام المرور عند عنق زجاجة الجسر. اثنان من ضباط الشرطة يجريان بين صفوف المرور ، وهما يصفران ويلوحان بأيديهما. بعض السائقين يطلقون أبواق سيارتهم من الضجر. يتوقف التاكسى وراء سيارة أوتوبيس ينبعث منها عمود من الدخان الأسود. يسرع الإنجليزى بإغلاق نافذته.

"أنت تتحدث العربية جيداً،"

يقول سائق التاكسى، ويشرح له الإنجليزى إنه درس العربية قبل أن يأتى إلى مصر. يسأله السائق عن طبيعة عمله، وعن مكان سكنه، وعما إذا كانت لديه أسرة فى القاهرة. ثم يسأل السائق إذا كان يعرف قراءة وكتابة العربية.

"قليلاً،" يقول الإنجليزى.

"هل قرأت القرآن؟"

يسأل سائق التاكسى.

يحاول الإنجليزى أن يقول إنه بدأ دراسة بعض أجزاء القرآن على يد شقيق أحد تلاميذه؛ الذى درس فى جامعة الأزهر الدينية. يومئ السائق برأسه استحساناً وفى أثناء ذلك تقترب منه إحدى فتاتين ترتديان نوعًا من أنواع الزى الخاص وقبعة ذات حافة واسعة، وتمسكان علب مناديل ورقية مصنعة محلياً.

يلوح لها بغلظة ، ويعجز الإنجليزى عن فهم ما يصرخ لها به ، أو ردها البذىء عليه.

يقول السائق: "يجب ألا تسمح الحكومة بهذا. إنهن مثل المومسات اللاتى يطفن فى الشوارع–و المناديل التى يبيعونها ليست جيدة."

" أعتقد أنهن لا يستطعن العثور على أى عمل آخر."

يقول الإنجليزى دفاعًا عنهن.

"للفروض أن يبقين فى بيوتهن ، وليس التجول فى الشوارع وهن يكشفن عن سيقانهن."

"نعم".

يقول الإنجليزى وهو يدرك من نبرة الصوت أن السائق لديه قناعات قوية إزاء هذا الموضوع. أمامهم يشاهد رجلاً، رآه فى مناسبات سابقة، وهو يقفز على ساق واحدة بين السيارات. ليس لديه أذرع. يقف بجانب سائق سيارة سوداء كبيرة ذات نوافذ خلفية داكنة . يهز السائق رأسه ويشيح جانبًا ولكن يعطيه ورقه نقدية من الخلف–يلمح الإنجليزى ذراعًا به إسورة– فيقوم بالضغط على زر وينزل الشباك، ويضع ورقة الخمسين قرشًا بين الأوراق النقدية الأخرى التى تبرز من الجيب الأمامى لقميص الرجل. ينظر الرجل فوراً من حوله وهو يقيم السيارات من حوله وركابها. عندما يرى الإنجليزى يتردد، ثم يرفضه ويقفز بين التاكسى والأتوبيس إلى سيارة بى.إم.دبليو. يقودها شاب ، وبجانبه امرأة شابة ، وامرأة أكبر سنًا فى الخلف. الركاب الثلاثة يتشاورن فيما بينهم ، ويضع الرجل ورقة نقدية فئة جنيه فى جيب الرجل.

يخشى الإنجليزى أن يكون هو الشخص التالى الذى يتم الاقتراب منه ، ويشعر بحرج من الإعاقة شبه الكاملة للشحاذ. يغير وضع الكتب قليلاً حتى يسهل لنفسه الوصول إلى جيب بنطلونه. تظهر فى الأمام علامات على تحرك المرور مرة أخرى ، ويضع السائق كف يده على البوق ويبقيه عليه. فى تلك اللحظة يظهر رجل شاب عند شباك الإنجليزى. ينظر الإنجليزى من خلال الزجاج إلى الرجل-هو فى سن مماثلة له ، بل يمكن أن يكون أحد طلابه. لديه وجه وسيم حسن التغذية، وجسم طويل قوى. يرتدى قميصًا أبيض بأكمام طويلة، وبنطلون بيج بحزام أسود وصندل؛ لا تبدو ملابسه رثة بأى شكل من الأشكال - وإن كانت غير ملائمة بعض الشيء لهذا الوقت من السنة. يلتقى الشاب بنظرة الإنجليزى العدائية ، ويحرك يده اليمنى باتجاه فمه. يهز الإنجليزى رأسه فى حين يبحث سائق التاكسى بين العملات المعدنية أمامه، ويخرج ورقة فئة خمسة وعشرين قرشاً. ينزل الإنجليزى شباكه ويمرر النقود. يأخذها الشاب دون أن ينبس بكلمة، يضعها فى جيب بنطلونه وينصرف.

يعترض الإنجليزى الذى يشعر بذنب: لأنه لم يعط شيئًا - على السائق. يشير إلى أن الرجل مازال شابًا ويبدو أنه فى صحة جيدة، والمفروض أن يكسب عيشه .

يقول السائق. "لا يعلم إلا الله ظروف مخلوقاته ، نحن نعطى لوجه الله وهو يجازينا على نوايانا."

يفهم الإنجليزى الجزء الأول فقط مما قاله السائق ، ولكنه يتأمل الكلمات. مع بدء تحرك المرور مرة أخرى يشاهد الهيئة القافزة للشحاذ الأعرج، الشاب الذى رفض إعطاءه شيئًا، وهو يبتعد هناك.

يضيف السائق وهو يزداد تحمسًا للموضوع: "ليس على الإنسان أن يحكم ، الله وحده يعلم ما فى قلوب الرجال."

"أنت على صواب،"

يقول الإنجليزى – وهو يدور فى مقعده ، ويسند كومة الكتب بيد واحدة، ويفتش جيب بنطلونه. يخرج منه عملة معدنية يتصادف أنها من فئة العشرة قروش ويمررها للسائق.

"أعطها له."

يرى السائق الشاب فى مرآته وهو يتقدم ببطء. يقوم الشاب بعمل نفس حركة وضع يده ناحية فمه لإحدى فتاتين تجلسان فى مؤخرة تاكسى تشعر الفتاة بالحرج ، وتلتفت إلى الفتاة الأخرى ، وتبدأ فى الكلام.

يسمع الإنجليزى سائق التاكسى – وهو ينادى على الشاب. تتدلى يد السائق، وهى تمسك سيجارة، وقطعة العملة المعدنية، من الشباك. من خلال الشباك الجانبى الخلفى وراء السائق يرى الإنجليزى الشاب يخرج إلى الفضاء بين التاكسى ، وسيارة لورى مفتوحة تحمل عمالاً متشبثين بأجنابها – عندما تنطلق دراجة بخارية مسرعة من خلال الفراغ وتصدم الشاب من الخلف.

يرتفع فى الهواء ، ويُقذف به إلى داخل مؤخرة شاحنة تقف أمام اللورى. يقع راكب الدراجة بعيداً ، ويضغط سائق التاكسى على الفرامل على نحو مفاجئ ، وتقع كتب الإنجليزى على الأرض. بهذه الحركة تفادى سائق التاكسى أن تسحق العجلة اليسرى الخلفية لسيارته أرجل راكب الدراجة. يرفع راكب الدراجة نفسه من على الأرض ، ويتفحص كوعًا ينزف - وقطعًا فى أرجل البنطلون - ثم يعدل دراجته ، يتأكد أنها لم تصب. ينظر الإنجليزى من حوله بحثًا عن الشاب الذى كان ينوى إعطاءه العشرة قروش والذى قُذف به إلى الهواء داخل مؤخرة شاحنة. يراه جاثمًا فى الشارع ، وكأنه ينحنى فوق مرحاض. يسعل دمًا يلطخ أحد أكمام قميصه الأبيض.

يرى الإنجليزى سائق اللورى وزميله يقفزان ويحملان الشاب من أكتافه وقدميه ، ويضعانه على الرصيف. يشعر الإنجليزى ببعض الدوار، ويبدأ فى البحث عن كتبه. تتحرك صفوف المرور إلى الأمام ببطء بعيداً عن مرأى الجسد الممدّد على الرصيف.

يعيد سائق التاكسى قطعة العشرة قروش. يتفادى الرجلان النظر فى عيون بعضهما. يستطيع الإنجليزى أن يرى أن يد السائق ترتعش، وهو يشعل سيجارة جديدة من علبة كبريت جديدة.

(١٤)

دُفلى بيضاء ووردية

كان يقود منذ الصباح الباكر. كانت الشمس ذات اللون البرتقالى المحمر حمرة الدم قد خرجت من بين رمادية الفجر، ووقفت مهيمنة وذهبية بقوة فى مهدها الأزرق الفاتح. كان يقود اللاند–روفر بسرعة وهو يتبع الآثار المدببة ، التى تركتها سيارات أخرى. أحيانًا، عندما يتاح له، كان ينحرف جانبيًا نحو مجموعة آثار أخرى كانت تشير إلى قيادة أسرع. رغم أنه لم يكن على عجلة من أمره، كان يستمتع بالقيادة السريعة عبر المساحة المفتوحة للسبخة التى تفصل سلسلة الجبال المنخفضة عن البحر ؛ الذى كان يمتزج بشكل يكاد يكون غير ملحوظ مع السماء. بيد واحدة على عجلة القيادة، وأحيانًا بإصبع واحدة فقط، كان يقود السيارة بين الصخور الضخمة، والحفر الكبيرة.

عندما شاهد شيئًا أسود وسط المناظر الطبيعية الرتيبة غير اتجاهه. وهو يجتاز الجسد المنتفخ لماعز امتلأت السيارة برائحة النتانة، ونظف حنجرته بالتنحنح ، وبصق خارج الشباك.

كان قد اغتسل فى برودة وعتمة الفجر ، وكان لا يزال يشعر بالوخز الخفيف للمياه المالحة على جسده. أعطته إحساسا بالسعادة والخفة المُسكِرة. كان قد أمضى العشرة أيام الأخيرة على الساحل الآخر، عشرة أيام وليال أمضاها فى البحر على إحدى سفن المسح التابعة للشركة. كانت فترة خالية من البيرة، وكان يشعر بفمه نظيفًا ونقيًا . لأول مرة منذ أن جاء الخليج تذوق طعم حياة المغامرة، والتى ضحى من أجلها بالحياة المريحة فى بلده، والأمسيات فى الحانة، وكل النساء اللاتى يمكن أن ينالهن. قال لنفسه إنه احتاج للشجاعة لترك ما هو مألوف ومريح. كانت الشركة قد أرسلته إلى دبى، وفوجئ عندما وجدها شبكة مربكة من الطرق السريعة ذات الست حارات أشبه بشىء من فيلم أمريكى. الآن وخلال العشرة أيام الأخيرة جاءته فرصة أن يحل مكان شخص من طاقم السفينة أصابه المرض. أخيراً ستتاح له فرصة التجربة التى كان يبحث عنها عندما تقدم للعمل مع شركة البترول.

كان قد استمتع بالعمل على سفينة المسح فى حرارة المحيط الهندى. وظيفته مع شركة البترول فى دبى كانت مساعد أمين مخزن، ولم تكن ممتعة، ولكن راتبها كان جيداً بالإضافة إلى أن المبيت والطعام كانا بالمجان؛ ولذلك ادخر مبالغ كبيرة حتى مع حجم البيرة التى كان يشربها .

المال كان يعنى الاستمتاع بوقت طيب، وكذلك الحرية. تذكر أن شاباً قال له ذلك فى حانة فى بلده، وقد ترسخت هذه الكلمات فى ذهنه بعد أن رأى الشاب لا يشرب سوى كوب واحد من الجعة المرة، ثم ينطلق فى سيارته الفيرارى.

خلال الوقت الذى أمضاه فى البحر قام بالغطس ولاحظ أحد الرجال أنه سباح قوى؛ ولذلك أعطاه عدة دروس فى الغوص باستخدام إسطوانات الأوكسجين. ثم قال أحدهما شيئاً حول أن هناك مكاناً فى إسكتلندا يقدم دروساً فى الغوص، ويؤهلك للعمل فى إحدى منصات بحر الشمال، أو مع أية شركة فى أى مكان فى العالم لديها امتيازات بترولية فى البحر . كان يبدو أن استخراج النفط من قاع البحر سيزداد انتشاراً ، وأن هناك مكاسب كبيرة للغطاسين أصحاب الخبرة. كان المدرب قد قال إنه يتقدم بشكل جيد، ولكنه حذّره من الثقة الزائدة فى النفس. كاد أن يرد عليه، ولكنه أمسك لسانه، وبدلاً من ذلك دعاه لكى يخرجا معا لتناول كأس فى المرة القادمة التى يزور فيها دبى . فلا أحد يعرف ماذا يمكن أن تفعله كلمة طيبة من رجل كهذا .

ولكن إذا كانت أيامه على المركب قد علمته شيئاً؛ فهو أن لديه شيئاً يميزه عن الآخرين، ويجعله متفوقاً عليهم. كان دائماً يحافظ على لياقته رغم أنه كان يحب شرب البيرة والنساء.

قبل أن يأتى إلى الخليج كان قد فكر فى الالتحاق بالـ أس.أى.أس، (s.i.s) أو غيرها من الفرق الخاصة التى كان يذاع عنها فى التلفزيون.

ولكنه أحس أنه لن يرتاح مع نوع الانضباط الذى تفرضه. فلن يقبل أبداً أن يقال له كل ثانية خلال اليوم إلى أين يذهب ، وماذا يفعل . لا، لا يستطيع أن يقول إنه يتمتع بثقة زائدة ، ولكنه فقط عندما يريد شيئًا ، فلديه الشجاعة على السعى وراءه . كان يعلم أن زملاءه يستشعرون هذا أيضًا ، بل إن بعضهم كان يستاء منه. فى إحدى الليالى كانوا جميعًا يشربون فى دار هيئة العاملين عندما وصفه أحدهم قائلاً: "دانى لا يكترث البتة بشىء." نعم، هذا يلخص الأمر فى إيجاز قال لنفسه، وابتسم لهذه الذكرى.

كانت أفكاره منصبة – وهو يقود – على فترة المساء القادمة. كان سيقوم بتعويض العشرة أيام التى أمضاها بدون شراب. سيخرج ليتناول وجبة فاخرة ربما فى أحد الفنادق الكبيرة الموازية للخور ، وربما يلتقط فتاة ثم ينتهى بجلسة بيرة فى دار هيئة العاملين. غداً الجمعة ويستطيع أن ينام طوال اليوم. حاول أن يتذكر عدد صناديق البيرة التى كان يحتفظ بها فى دار هيئة العاملين. لم يستهلك أياً من حصصه خلال الأيام القليلة الماضية ، وكان مخصص له كمية جديدة مع بداية الشهر مادام أحد من الرجال لم يغمس يده فى مؤنه. إن تجرأوا مرة فلن يتجرأوا الثانية–و ضحك بصوت عال. كان عظيمًا أن يكون المبيت والطعام بالمجان، وألا يكون أمامه سوى البيرة والسجائر لكى ينفق عليها، وكلاهما كان رخيصًا جدًا فى هذا المكان.

كان ينقصه شىء واحد فقط: النساء . تذكر أن أحد الرجال الأكبر سنًا قال فى إحدى المرات إن النساء لسن كل شىء، ورد هو عليه فى

سـرعـة البـرق قـائلاً: " ألسن كـذلك؟" وترنح الرجـال فـى مـقـاعـدهـم، وأمسكوا أنفسهم عن تقيؤ البيرة. بعض الأولاد كانوا يلتقون مع امرأة لبنانية تعمل فى شقة قرب برج الساعة ناحية "ديرا" ، ولكنه لم يحبذ فكرة الدفع فى هذا الأمر. "لن تجد متعة فى جسد بالإيجار"، كان قد خطر له أن يقـول ذلك مـرة عـفـو اللحظة، ومنذ ذلك الحـين، إذا رغب شخص أن يثير الضحك، كان عليه فقط أن يكرر هذه العبارة. فى خلال شهرين كان يحق له إجازة: ربما يذهب إلى قبرص، أو حتى إلى بانكوك حيث يقولون إنك يمكنك أن تجد كل النساء اللاتى تريدهن فقط مقابل دعوتهن لوجبة، وربما إعطائهن هدية صغيرة.

فى غضـون ذلك عليـه أن يسعـد بالبـيـرة، وتنوق فى ذهنه الملمس المثلج لحافة علبة البيرة الصفيح على شفتيه، والجرعات المثيرة من العلبة الأولى التى يتم شربها من فرط الظمـأ. كان أول اثنين هما الأفضل، يتبعهما مشوار طويل حتى نقطة التقاطع؛ حيث تعلم من خلال الخبرة . إما أن تكتفى بهذا القدر، أو تواصل رحلتك حتى النسيان، عندما تعلم فى صباح اليوم التالى من أصدقائك كيف وصلوا بك إلى منزلك، وكيف أدخلوك إلى الفراش، والمناقشات والعراك الذى تورطت فيه.

سار بمحاذاة الساحل وعلى يساره البحر الخالى، ماراً فى بعض الأحيان ببعض مزارع نخيل البلح الصغيرة ، أو أشجار الليم المنتشرة فى غير نظام والمحاطة بحواجز من الخيزران الخام لحمايتها من الماعز الضالة، ومن الرمال التى كانت تدفعها الرياح عبر الصحراء المفتوحة. نسمـة الصباح ، التى بدأت شديدة البرودة كانت الآن تنفخ قمـيصـه، ووضـعت يداً رطبة مـثل ورق الصنفرة على صدره. عندما اقـتـرب من

الجبال أمامه انحرف إلى الداخل، وقدمه تضغط بقوة على دواسة البنزين. هدير الموتور الذى ملأ الفضاء المحيط به قرع فى رأسه ، وغلفه داخل شرنقة من عالم يشعر أنه يسيطر عليه تماماً.

فى الأمام قطعت رتابة المنظر الطبيعى الشكل البارز لثلاثة جمال. على الجملين فى المقدمة لمح راكبين يميلان مع المشية المتبخترة. خلف الجمل الثانى كان جمل ثالث بدون راكب، وهو مسحوب بحبل من أنفه. تساءل عن وجهتهم، وطرأ فى ذهنه أنه منذ سنوات ليست بالكثيرة لم تكن هناك وسيلة أخرى للانتقال فى هذه البلاد غير الجمال. ألم يسمونها "سفن الصحراء"؟ تذكر الكتاب الذى وجده فى دار هيئة العاملين، وألَّفه شخص قام بعبور الربع الخالى: تضمن وصفاً للحر، وملمس الرمال شديدة السخونة تحت الأقدام، والحياة لأيام بدون ماء، ومباريات المصارعة مع رفاقه من البدو فى المساء . شعر بحزن لأنه لم تتح له ممارسة هذه الأشياء.

دون أن يبطئ من سرعته أدار اللاند-روفر بحدة، وانزلقت الإطارات الخلفية على قشرة السبخة؛ رفع يده عن عجلة القيادة، وتابعت السيارة حركة الانزلاق فى خط متعرج، ثم اتجهت ناحية طابور الجمال.
قاد السيارة بسرعة عبر الطريق المهترئ، وكان عليه أن يمسك عجلة القيادة بكلتا يديه، والسيارة ترتج فى احتجاج. كان أشبه بركوب حصان جامح يجب شكمه بحزم. ألقى نظرة جانبية سريعة، وشاهد الرجل على الجمل فى المقدمة يدور ويشير إلى رفيقه. لم يغيرا خطواتهما أو اتجاهما، ولكن الرجلين كانا ينظران الآن لسيارة اللاند- روفر وهى تقترب بسرعة.

هل يمكن أن أختفى؟ قال لنفسه، أن أترك اللاند-روفر فى الصحراء، وأركب الجمل الثالث، وأرافق العرب إلى أية جهة يقصدونها؟

سيعيش حياة خشنة معهم، سيقوم-مثل الرجل فى الكتاب-بالنوم إلى جانبهم داخل حفرة فى الصحراء، والعيش على حفنة من البلح، ورشفات من المياه العكرة، ثم فجأة- ربما بعدها بأسابيع- يظهر فى دار هيئة العاملين، ملتح ومرتدياً لباس العرب، وحاملاً عصاً طويلة معقوفة من ذلك النوع الذى يميزك كرجل من رجال الصحراء، رجل بدوى وطنه هو كل مكان ولا مكان .

كان يقترب منهم بزاوية قائمة، وابتسم لنفسه من نظرة الذعر على وجوه الرجلين. ضغط على الفرامل، وخفض من السرعة، وأدار اللاند-روفر فى اللحظة الأخيرة مثيراً سحابة من التراب.

"السلام عليكم،"

صاح ولوح للرجلين اللذين رفعا أيديهما رداً عليه. أخذ علبة من سجائر روثمان من الكرتونة التى بجانبه. "هيا!" صرخ وقذف بها فى الهواء ثم أدخل الدوبيرياج وأسرع عائداً إلى الطريق الذى كان قد تركه. عندما صفا الجو من التراب رأى الرجلين فى مرآته. كانا يواصلان طريقهما، وكأنهما لم يرياه وهو يقذف لهما بالعلبة. "البلهاء الحمقى!" صرخ بصوت عال. كان قد تخلى الآن تماماً عن فكرة الانضمام إليهما، والذهاب إلى الربع الخالى. كان كل ما يشعر به تجاههما هو الازدراء، والاستياء لرفضهما كرمه.

انحدر مع خط الجبال، وأشار إلى موقع الوادى الصغير؛ الذى قيل له إن عليه المرور عبره قبل أن يصل إلى الطريق المسفلت الذى سيأخذه إلى الساحل الآخر، إلى مدن الشارقة ودبى. نظر مرة أخرى فى المرآة وابتسم عندما شهد أحد الرجلين ينزل عن جمله الراكع، ويسير عائدًا لالتقاط السجائر. "ليسا بلهاء حمقى فى نهاية الأمر!" قال لنفسه وضحك بصوت عال، وهو سعيد لفكرة أنه بهذه الحركة التلقائية نجح فى خلق اتصال مع هؤلاء البسطاء من سكان الصحراء. بالنسبة لغالبية الغربيين، وللآخرين فى دار هيئة العاملين ، لا يمثل البدوى الرث سوى جزء من المناظر الطبيعية، لا يمكن الاقتراب منه مثله مثل الصخور والأشجار الخفيضة، والشجيرة الشائكة ضعيفة النمو.

و لكن بالنسبة له، كان يعلم أنه سرعان ما يستطيع أن يتحدث لغتهم ، وأن يتقبلوه كشخص قادر على تحمل مشقة ومخاطر حياتهم. ربما يومًا ما، استغرق فى التفكير، بدلاً من أن يتمدد على فراشه، ويقرأ الروايات المثيرة، سيسير إلى صف المراكب الراسية عند خليج دبى ويختار واحدة منها، ويسلك طريقه إلى زنجبار، أو أى مكان آخر، ويحيا حياة خشنة على ظهر المركب مع حفنة من العرب والبلوشيين.

بحث أسفل الكرسى، وأخرج ترموس مياه مثلجة. شرب منه دون أن يبطئ من سرعته، وتناثرت بعض المياه على صدره مما جعل قميصه يلتصق به بقوة. سكب المياه على كف يده ونثرها على رقبته من الخلف. فى نفس اللحظة بدأ العرق يسيل من على جبهته مما أضطره إلى خلع نظارات الشمس، ومسحها على بنطلونه الكاكى القصير.

سلسلة الجبال أمامه ألقت بظلال مسننة تمتد فى اتجاه البحر. فى الأعالى؛ كانت الشمس مثل البثرة الحمراء فى سماء خالية من السحب. كان المدخل إلى الوادى محجوبًا جزئيًا ببروز من الحجارة. لم يحدد موقع المدخل سوى التقاء مجموعة من آثار إطار السيارات . أبطأ من سرعته عندما اصطدمت إطارات اللاند-روفر بالأحجار الأكبر حجمًا ، التى كانت الأمطار - التى تنزل أحيانًا - تجرفها إلى أسفل. كان عليه أن يقنع بالتقدم ببطء شديد فى الطريق الضيق المكسو بالحجارة. ثم اتسع الممر الضيق إلى مجرى نهر مكسو بالحصى، وبه مجموعات من شجيرات الدفلى تنمو فى مساحة صغيرة من الرمال وسط الإطارات والعلب الصفيح المرمية. كان الوادى جافًا منذ عدة أشهر، ولكن بعض شجيرات الدفلى كانت مرصعة بزهور بيضاء، والبعض الآخر بزهور لونها وردى باهت. تحركت الأشباح القصيرة والثخينة للماعز بقلق بين الشجيرات، ثم أصابها الذعر عند اقترابه، وأسرعت تعدو صاعدة الوادى الصغير الضيق شديد الانحدار. أوقف السيارة، ومع إغلاق المحرك حدث فراغ مفاجئ من الصمت. ظل جالسًا لعدة ثوان، وأذناه تفرغان تدريجيًا من الصوت. حدق فيما حوله: إلى الماعز التى قارب عددها دزينة أو أكثر، وإلى المجرى المائى المكسو بالحصى، ومجموعات نبات الدفلى غير المتوقع وجودها ، والتى كانت تنمو بل وتُزهر فى هذه الأرض القاحلة.

وضع سيجارة بين شفتيه؛ عندما أشعل الولاعة كان يكاد لا يميز الشعلة فى وهج ضوء الشمس. قال: "يا إلهى، يا له من حر،" وتعلقت

كلماته بالدخان الذى نفثه فى الهواء الساكن. هل سيمر الرجلان وجمالهما عبر هذا الطريق؟ فى الأغلب سيتجهون عبر الداخل إلى الساحل، ويسلكان الطريق عبر الفجيرة إلى عمان. ظل ذهنه معلقًا بهما لبعض الوقت وهو ينفث مزيداً من الدخان. تصور نفسه وهو يمتطى الجمل الذى فى المقدمة والعربيان يتبعانه.

خرج من السيارة ونظر حوله، والسيجارة معلقة بارتخاء فى فمه، ويداه فى جانبيه. أخذ خطوة إلى مقدمة السيارة، وأدخل يده داخل بنطلونه القصير وجذبه .

راقب تدفق البول الذى كاد أن يكون غير مرئى وهو يضرب الإطار. بدافع مفاجئ أخذ السيجارة من فمه باليد الأخرى، وأمسك الطرف المشتعل فى مجرى القوس. انبعث صوت أزيز وترك عقب السيجارة يسقط على الأرض. تنهد برضى واستقام فى وقفته. "هذا أفضل." كسرت الكلمات الصمت، وأعطته إحساسًا بالسيطرة على الفضاء المحيط به.

وهو واقف، ويداه فى جانبيه، ينظر للحركات الآلية للماعز، أحس بالشمس تحرق قفاه. انطلق شىء بين الحصى عند قدميه، وحل محل اللهاث المفاجئ للذعر ارتخاء لعضلاته المشدودة بعد أن تبين له البريق المتقطع لسحلية وهى تسرع للوقوف وقفة تبدو كأنها بدون حياة إلى جانب قدمه (وقفة جامدة)، وعيونها اللامعة تحدق فى قرص الشمس. انتابه إحساس بالقلق يصعب تفسيره، إحساس بأنه مطوق بجدران

الوادى الصغير، وبدأ ذلك ينخر فى ثقته، ونظر تحت إلى قدمه حتى يتأكد أن ما رآه فعلاً سحلية. كان قد سمع روايات عن الثعابين التى تكثر فى الصحراء، وكانت بعض الأنواع الأصغر حجمًا هى الأكثر خطورة.

و هو يتحرك فى اتجاه باب السيارة بدأت بعض الماعز تعدو صاعدة المجرى المائى وهى تطلق ضجيجًا عاليًا وطرأ، لذهنه أن هناك شخصًا يرعاها. استدار سريعًا، ونظر إلى أعلى ومن ركن عينه رأى شكلاً بشريًا يندفع سريعًا بعيدًا عن الأنظار خلف الحجرة ، التى كانت أعلى البروز المطل على قاع الوادى فى الجانب البعيد - حيث كان قد أوقف سيارته. أيقن أنه تم مراقبته منذ لحظة مرور اللاند-روفر عبر المجرى المائى المكسو بالحصى. أحس بأنه فى وضع معرض للخطر، ولكن فى نفس الوقت أحس برغبة ملحة لرؤية الشخص الذى كان يراقبه. فتح باب السيارة وأغلقه بقوة، وفى نفس الوقت نظر لأعلى باتجاه المكان الذى كانت هيئة الشخص قد اختفت فيه. فوراً ظهر رأس كان لفتاة شابة، شعرها مربوط فى منديل داكن اللون. حدق فيها لعدة ثوان، ثم ابتسم فى ارتياح. ظلت الفتاة تحدق فيه، دون أن يتغير تعبير الشك على وجهها، ثم وقفت على قدميها بحيث أصبحت تقف أعلى منه، ويديها بجانبها. كانت ترتدى ثوبًا واسعًا أسود اللون يصل تقريبًا إلى قدميها الحافيتين. ابتسم مرة أخرى، ولكن هذه المرة لنفسه عندما تذكر أنها كانت تراقبه.

أعـاد يده على مـقـبض البـاب، وتركـهـا هناك لمدة زائدة، وأحس بالمقبض يلهب كفه. سحب يده بحدة وكان على وشك أن يلفها بطرف قميصه عندما- وبدون إنذار- رفعت الفتاة يدها، وطارت حجرة من فوقه ووقعت بين نبات الدفلى. تخبط ماعز ذكر بين كومة العلب الصفيح، وانضم إلى باقى القطيع. خلع نظارات الشمس وأحس للحظات بالعمى من قوة الضوء. والنظارات تتدلى من يده اليسرى، رفع ذراعه الأخرى فى إيماءة تقر بوجودها.

"بنت!" صاح وهو يشعر بضرورة أن يقول شيئًا . ثم - وبدافع من عفو الخاطر - أضاف كلمة واحدة ، "مياه،" ومال رأسه للوراء، وأشار بإبهامه وقبضة يده إلى فمه، موضحًا أنه يريد أن يشرب. طرأ على ذهنه أنه حتى لو كان لديها ماء، فلن يكون من شربها مأمونًا.

تعلقت بنظراته، ولكنها لم تبد أية استجابة لطلبه. نقل نظارته إلى يده اليمنى، وفتح باب السيارة بسرعة. فجأة، وبصوت حاد جعله يجفل، صاحت على الماعز، وألقت بحجر آخرى على الجانب البعيد من المجرى المائى أثارت هذه الحركة ضجيجًا حادًا بين الماعز التى تفرقت ثم تجمعت مرة أخرى فى مجموعة على مسافة أبعد داخل قاع الوادى. نظر إليها مرة أخرى، ولكن كان يبدو أنها لم تعد مكترثة بوجوده. كان يمكنه أن يجلس وراء عجلة القيادة وينطلق فى طريقه إلى دبى دون أن يكون هناك شيء يذكر حول هذا اللقاء سوى أنه التقى بفتاة بدوية ترعى أغنامها. ولكن مرة أخرى - وبدون سبب - استحضر تلك الكلمة، واحدة من بين دزينة الكلمات أو أكثر التى كان يعرفها، وكأنها تعويذة تطالبه بأن يتم النطق بها: "مياه؟" سأل.

شعر بلهاث خفيف وهو ينتظر إجابتها، وكأن حياته معلقة فى الميزان. هذه المرة هزت رأسها وأشاحت بوجهها.

كانت سلسلة الجبال تلتف من ورائها ، ولكن لم تظهر أية إشارة على وجود مساكن أو أشجار نخيل أو زراعات. ربما جاءت من مخيم للبدو. أعاد وضع النظارات ، ومد يده الطليقة ، وحرك أربعة أصابع باتجاهه، وهو يدعوها إلى المجئ بإيماءة كان قد شهد العرب يقومون بها. ردت برفع رأسها إلى الوراء فى فظاظة – بحيث أصبح يرى بروفيل وجهها، وأن الرقبة والأذن خالية من أية حلية.

تقدم إلى الأمام ، ولاحظ ضيق بنطلونه القصير فى المنطقة المحيطة بالخاصرة . تحرك عبر الحصى ناحية الطريق شديد الانحدار : الذى كان يؤدى إلى نتوء الجبل الذى كانت تقف عليه. تفوهت بكلمتين أو ثلاث ، لكنه لم يفهمها. استمر فى عملية التسلق ، والتى كانت شديدة الانحدار لدرجة أنه أضطر أحيانًا لأن ينحنى تمامًا ، وهو يمسك بكلتا يديه بالأحجار والعشب الخشن. مرة أخرى أحس بالشمس وهى تضرب رقبته من الخلف؛ مرة أخرى صاحت الفتاة، هذه المرة بنبرة صوت ينم عن الذعر.

وصل إلى النتوء وهو يلهث من المجهود. نظر من حوله ولاحظ أن النجد الصغير كان قد تم تسويته. كانت الرمال تحمل آثار قدم حافية، وفى ظلال الصخرة استند جراب من الجلد له حمالة للكتف ، وجراب من جلد الماعز مربوط عند العنق بخيط مجدول؛ كان قد تم ترتيب كومة

صغيرة من الحجارة حول هذه الأشياء. من هذا الموقع المميز كان يستطيع أن يرى بقعة داكنة تعترض سلسلة الجبال ذات اللون البنى مجموعة من الأكواخ ترابية اللون على مبعدة ميلين أو ثلاثة، يفصلها خضرة أشجار النخيل. لم يجد للفتاة أثراً ، وخطر له أنها ربما تختبئ على الجانب الآخر من الصخرة. ثم لاحظها وهى تقف فى منتصف الطريق ؛ الذى كان قد تسلقه لتوه. يبدو أنها انسلت خلف الصخرة ، وانزلقت على المنحدر إلى المكان الذى تقف فيه الآن. عندما تقابلت عيونهما تجعد وجهها فى عبوس. أشار ناحية الأرض لمكان جراب جلد الماعز ، وردت عليه بكلمات لم يفهمها.

و كأنه يقوم بحركات خاصة بطقس ما، انحنى إلى أسفل ، وأمسك بجراب جلد الماعز ثم أومأ لها. غضب عندما ظهر عليها عدم اكتراثها به. ألا تفهم أنه لن يؤذيها؟

التقت عيونها بعيونه فى نظرة عدائية قبل أن تعطى له ظهرها وتسير باتجاه قاع الوادى. عندما سمعته يتبعها، ألقت نظرة سريعة من وراء كتفها ، وشهد الخوف فى التواء فمها. ركض ولحق بها عند وصولها رقعة الرمال حيث كانت تنمو دلفى. وهى تنشب أظافر يدها فى ذراعيه التى أحاطت بخصرها، مات بداخله الأمل فى إمكانية وجود أى تفاهم بينهما. قاومت وأدارها بحيث أصبحت فى مواجهته وضمها بقوة . أحس أنها لو كفت عن محاربته سيسعد بالوقوف فقط ، والإحساس بصلابة جسده وهو يلامس جسدها.

شهد حبات العرق على جبهتها ، وعلى الشعيرات الخفيفة على شفتها العليا. رفع يده إلى رأسها ، وانتزع المنديل من عليه وأمسك بشعرها. أنزل شفاه على فمها ، ولكنها أحكمت إغلاقه ، وحركت رأسها من جانب إلى آخر وهى تغمغم ببعض الكلمات بصوت أجش. ثارت بداخله نوبة جديدة من الغضب لفشله فى التفاهم معها. أرغمها على النزول على ركبها، ثم على ظهرها. ظل للحظات ممداً عليها فى جمود وكأن هذا هو كل غرضه منها. ثم مع تجدد نشاطه بدأ حراكه لتعريتها سحب يده من أسفل وجهها ، وحاول إرغامها على النظر إليه عاريا. تنازل من هذا النوع من جانبها يمكنه أن يفك السحر . ظلت ساكنة للحظات وهى تتنفس بثقل من جراء جهودها فى صده، وعيونها مغلقة من الشمس . ثم تصلب جسدها ورأى أن عيونها كانت مفتوحة على آخرها تحدق فى اتجاه البروز الذى كانت تقف عليه. تسرب إحساس بالفزع فى أعماقه.

ألقى نظرة سريعة من وراء كتفه ولم ير أحداً وتيقن فى نفس اللحظة أن أحداً لم يكن هناك قط.

فى رعب أحس بتراخى الجزء السفلى من جسده. رجع إلى الوراء على كعبيه وبحركة يائسة أمسك نفسه ، وكأنه يحاول وقف نزيف دم الحياة من شريان مقطوع . حركات متشنجة ، بعيدة وخالية من المتعة ، لا سيطرة عليها مثل إخراج القيء من بين أصابعه.

لم يقم بأية محاولة لمنع الفتاة من أن تسرع واقفة على قدميها . ظل لبعض الوقت يشعر بوقوفها على بعد خطوات منه، وهي تحس أنها لم تعد في خطر.

و قوة أشعة الشمس تضرب رقبته من الخلف، سار الخطوات القليلة إلى اللاند-روفر. شيء لمع بين الحجارة ، ورأى نظارة الشمس ، وقد التوى إطارها ، وانكسرت إحدى عدساتها وهي واقعة بين روث الماعز . كان يعلم أنه يجب أن يلتقطها ولكنه كان فاقداً لقوة العقل والبدن . وهو يصعد إلى داخل كابينة السيارة سمع صوت الماعز وهو يتخلل الصمت.

أدار السيارة وعشّق الموتور وتحرك إلى الأمام ، ويداه تتشبث بعجلة القيادة فوق قاع الوادي المليء بالحصى. علقت بالكابينة رائحة نتنة لآثار هزة الجماع الفارغة. كان يعلم أنه يجب أن يعود لكي يستعيد نظارته المكسورة والتي يمكن أن تكون سبب فضحه. كرة من الخوف تجمعت داخل صدره ، وصعدت الدموع الحارقة إلى عينيه . ومن ورائه سمع خشخشة الحجارة وهي تضرب اللاند-روفر من الخلف.

(١٥)

عالمـــان

انطلق صـوت أمـه الرتيب بحـدة من الفيـرانده إلى مـساكن الخـدم وهى تنادى باسمه. ظل بيتر صـامتًا وألقى نظرة جانبية على مجموعة الأفارقة الجالسين القرفصاء أمامه-ولد أبيض يلبس بنطلونًا -كاكى- قصيرًا وسترة سافارى ، وصندل فى قدميه الحافيتين. كشّر ورفع إصبعًا تآمريًا إلى شفاهه، ثم ابتسم لأصدقائه. كان يعلم أن أمه تنادى عليه أحيانًا مرتين أو ثلاثًا ثم تيأس من ذلك ظنًا منها أنه ذهب إلى مكان ما مع خادمه شريف. كان يحسب. أنه يستطيع أن يبقى عشر أو خمس عشرة دقيقة أخرى قبل أن يعود إلى المنزل. لكن هذه المرة، عندما تكرر النداء، كان فى نبرته إصرارًا.

نظر إلى شريف، وسحب فمه إلى أسفل تعبيرًا عن سخطه. أشار إلى زيدولو - كبير الخدم - لكى يمرر السيجارة لأخذ نفس أخير. أحاط السيجارة بيده واستنشق الدخان من خلال الفجوة الصغيرة بين إصبع السبابة وإبهام يده. هذه كانت الطريقة التى كان قد تعلمها لتدخين

سيـــجارة مشتركة حتى لا تلامســها الشــفاه. أحس ببعض الدوار من جـراء الجـهـد الإضـافى الذى بذله لســحب الدخــان ، ثم أمـسكه لبعض الوقت داخل فمه قبل أن ينفخه فى سحابة كبيرة. كان يعلم من الخبرة أنه إذا حاول ابتلاعه - مثلما يفعلون - كان سيشعر بنفسه أكثر سوءًا. فى إحدى المرات كاد أن يلحق بنفسه الخزى بعد أن أصابه الغثيان.

أعاد السيجارة إلى زيدولو ، وقام واقفًا ، وسار ببطء بين أشجار المانجو المتربة باتجاه البيت الأبيض ذى الفيرانده المحاطة بالناموسية من ثلاثة جوانب. كان يأمل أن ترى والدته أنه يطيعها فلا تنادى مرة أخرى. كان صوتها العالى النبرة وهى تناديه ليعود إلى المنزل موضع مزاح بينه وبين الخدم. الآن، من ورائه ، كان يتصور موانزى - الطباخ الضخم - وهو يحرك فمه بدون إصدار صوت فى محاولة صامتة لتقليدها. ولكن برغم أنها رأته وهو قادم من بين الأشجار، نادت عليه مرة أخرى: "بييت...ر. بييت...ر.

رد بتذمر: "أمى، أنا قادم، لست أصم كما تعلمين."

" لا تحدِّث والدتك بهذه النبرة،" ردت عليه أمه وهو يصعد السلالم ببطء وينضم إليها فى الفيرانده. امرأة طويلة ونحيفة ذات أذرع قوية، انتظرته لكى يرفع رأسه لها قبل أن تقول:

"و لماذا تجلس دائمًا هناك مع الخدم؟ أرجو ألا يكونوا قد أطعموك من أكلهم الغريب."

"لا،" رد عليها وهو يقطب جبينه، ثم تساءل إذا كانت ستشم رائحة الدخان فى فمه.

قالت له: "اذهب لتأخذ حمامك، ثم يمكنك أن تتناول عشاءك. سنستقبل بعض الناس للعب البريدج ، وتناول العشاء هذه الليلة."

سأل بلهفة: "هل أستطيع أن العب بعض الأدوار؟"

قالت :"إذا كنت طيبًا" ، فركت شعره فى حركة كانت - دائمًا - تثير استيائه.

سأل:"من هم؟"

"الدكتور سيمسون وحرمه."

"آه،" قال فى نبرة كانت تبدو فى نظره لا مبالية.

هى لطيفة، أليست كذلك؟" قالت والدته بخبث.

"نعم،" قال موافقًا ، وحاول أن يمسك نفسه من أن يحمر وجهه خجلاً. كانت جولى سيمسون هى التى علمته سباحة الكرول فى حمام سباحة النادى. منذ ذلك الحين وجد نفسه يفكر فيها كثيرًا وهى ترتدى المايوه الأبيض وسيقانها وأذرعها بلون برونزى وصدرها كان يبرز منه لون أبيض عندما تميل إلى الأمام.

فركت والدته شعره مرة ثانية. "هيا " قالت له وهى تديره فى اتجاه الباب الجانبى.

كان يستمتع باستضافة والديه للناس على العشاء ولعب البريدج. كانت هناك دائمًا بعض الأطعمة الشهية أو "المحمصات" كما كان يطلق عليها-يتم تناولها مع الويسكى والصودا، والتى كان يقوم هو بتقديمها. كان يسمح له بأن يتناول واحدة لكنه كان ينجح عادة فى أن يتناول أربعة أو خمسة خلال المساء. كانوا يلعبون البريدج قبل وبعد تناول العشاء، وفى جلسة ما قبل العشاء كانت والدته تسمح له بلعب بعض أدوارها. وإلا لما كان يستطيع أن يتدرب على لعب البريدج ؛ لأن والده يرفض أن يكون الثالث فى طريقة اللعب ذات الثلاثة لاعبين - حيث كان كل لاعب يقدم عروضه ليقوم بدور الدمية. "هذا ليس بريدج،" كان يشتكى،"- إنه أقرب إلى القمار فى رأيى."

و هو منقوع فى الحمام كان يتساءل هل ستأتى والدته وتصر على حك ظهره، سمع صوت سيارة تصعد الطريق إلى مدخل البيت، ثم صوت الدكتور سيمسون يقول بعض الكلمات بصوت عال. "و كيف حال الابن الوريث؟ " سمع الدكتور سيمسون يسأل بينما هو زوجته يصعدان السلالم الأمامية.

رد والد بيتر ردًا مازحًا وضحك الجميع.

"هو على ما أرجو فى الحمام يفرك الطين عن ركبه ،" قالت لهم والدته ومرة أخرى صعد صوت الضحك.

ألقى بيتر نظرة خاطفة على ركبه ، وقفز خارجًا من الحمام. جفف نفسه سريعًا وارتدى بيجامته والروب دى شامبر ، الذى كانت والدته قد وضعته على الكرسى فى الحمام.

فى غرفة الطعام كان زيدولو يرتب سكاكين المائدة. إلى جانب مائدة العشاء الرئيسية كان قد تم إعداد مائدة صغيرة لعشاء بيتر. جلس بيتر وتبادل هو وزيدولو النظرات ، ورفع بيتر يديه إلى فمه فى حركة مماثلة لشرب السجائر. أمسك زيدولو نفسه من الضحك وهما يسمعان خطوات والدته السريعة وهى تقترب.

قالت له والدته: "أنت ستأكل مثلنا تماماً ، حساء الطماطم فى البداية ، ثم طبقك المفضل من السمك المقلى وصلصة الأنشوجة وبدلاً من طبق الجبن المذاب فوق خبز محمص الويلزى، فتحت لك علبة كمثرى كأكلة مميزة لك.

قال بيتر: "لذيذ!"

لم تقل له إن الكبار سيتناولون أيضا طبق لحمة: دجاج حبشى ، وهليون من المعلبات.

وهو يغرف الحساء بالملعقة، استمع بيتر إلى مقتطفات من الحوار الدائر فى الغرفة المجاورة - حيث كانوا يتناولون المشروبات - ويستعدون للانتقال إلى مائدة البريدج بسطحها ذى النسيج المخضر. أشار بيتر لزيدولو بالإسراع لإحضار السمك.

سمع الدكتور سيمسون يقول "وصلت إلى قبل النهائيات، أليس ذلك عظيماً؟"

قالت والدة بيتر: "فتاة ذكية! لا أرى ما يمنع فوزك."

"آه، لبام ضربة بداية قاتلة – أقرب لضربة رجل،" اعترضت جولى سيمسون. "أتعرفون، لقد وصلت إلى قبل النهائيات منذ عدة سنوات مضت فى نيروبى. سيكون من حظى لو نجحت فى التغلب عليها. على أية حال يجب أن أفوز على سالى أونزلو قبل ذلك..."

قال الدكتور سيمسون شيئًا بصوت خافت وضحك الجميع.

قالت والدة بيتر بصوت مازح:"لا تنسوا الذين يرمون ... ولكن سالى كما نعلم جميعًا مشغولة بأشياء أخرى هذه الأيام أكثر من التنس."

قال والد بيتر."أعتقد أنه كان من المتوقع لها ذلك".

"إنه ذنبه كما هو ذنبها،" تدخلت جولى سيمسون، واستمر الحوار بأصوات خافتة.

قطع بيتر شرائح الكمثرى بملعقته، والتى انزلقت داخل حلقه بدون طعم. سأل نفسه إذا كان فعلاً يحبها كما كان يدعى ، وتساءل حول كيفية تفادى أكلها مرة أخرى كطبق مميز. ثم سمع صوت احتكاك الكراسى وهم ينتقلون إلى مائدة البريدج.

"تقسيم الكراسى،" سمع صوت والدته.

"إنه اختيارى ، وأنا سأبقى حيث أنا،" أعلن الدكتور سيمسون وهو يضرب بكف يديه على المائدة أمامه.

قالت والدته: "تقسيم ورق اللعب".

صاحت جولي سيمسون: "ملك آخر!"

قال والد بيتر :"سأحتفظ بالورق الذي نقسم به".

مرت فترة صمت ، وكان بيتر يتصور أسلوب والده الثقيل في توزيع الورق. بعد أن ينتهي من التوزيع يقوم بترتيب ورقه، وهو ينقر عليه، في كومة أنيقة قبل أن يرفعه ، ويبدأ في ترتيبه في المجموعات ذات النقش الواحد.

دفع بيتر كرسيه إلى الوراء في صمت ، وابتسم لزيدولو ابتسامة تآمرية، وسار إلى حجرة الجلوس. أنتظر حتى لمحوا وجوده في الغرفة ، ثم ألقى عليهم تحية المساء ، وسار باتجاه كرسي والدته.

"مساء الخير بيتر،" قالت جولي سيمسون وهي تدور إلى الوراء حتى تكون في مواجهته. "و الآن تعال لكي تسلم علينا بشكل لائق."

أحس بنفسه يحمر خجلاً وهو يسير ناحيتها وشفاهها تضغط على خده.

صاحت: "آه! عد بيتر-يجب ألا تعرضني للشبهة وأنت تسير هكذا وأحمر الشفاه على خدك." أخذت منديلها ورفعته إلى فمها ، ثم مسحت به على خده وقالت: "الآن أفضل".

بدأ الدكتور سيمسون الضحك ، وحاول بيتر أن يشارك فيه رغم أنه في ذات الوقت كان يقول لنفسه إن الدكتور شخصية كريهة. كيف استطاعت أن تتزوج رجلاً كهذا؟ من الواضح أنها كانت تصغره بكثير.

كان يبدو له أيضًا، مما سمعه خلسة عندما كان والداه يتحدثان عن "جولى والطبيب"، أنها كانت متزوجة من قبل. هذا كان يجعلها أكثر إثارة.

رفع عينيه ووجد أن جولى سيمسون كانت تنظر له وتبتسم وكأنها تقرأ أفكاره.

قال لنفسه: "يا إلهى ، هى تعلم ماذا أشعر تجاهها..." ، وأسرع بتناول إحدى شطائر البيض ، التى كان زيدولو قد دخل بها لتوه.

قالت والدته: "م..م..".

قال أوتوماتيكيًا: "من فضلك".

"أين كنا؟" تدخل والده، وفمه متجعد فى استياء بسبب التقدم البطىء للعب. "لقد قلت قلب، وجولى قالت اثنين من الاسباتى ، وزميلى زادنى بقلبين".

"لا مزايدة،" قال الدكتور سيمسون فى صوت يعبر عن شخص كان يتمنى لو كان قد وزع عليه ورقًا أفضل.

"أربعة قلوب،" قال والد بيتر.

"أشعر بإغراء شديد لكى أزيدك الضعف ، ولكننى لن أفعل،" قالت جولى سيمسون، وتناولت إحدى شرائح البيض المحشو ، وهنأت والدة بيتر على الطباخ.

"كنت أتوقع شيئًا أفضل من هذا،" علق والد بيتر وزوجته تنزل أوراقها كدمية. اعتاد أن يبدى ملاحظات مماثلة ؛ حتى يمهد لنفسه فشله فى إبرام العقد. فى الواقع، نزل درجتين وعلق أن زوجته بالغت بدرجة سيئة فى تقدير أوراقها.

"نعم، هو كنز حقيقي،" ردت والدة بيتر على ملاحظة جولى، وتجاهلت نقد زوجها حول عرض أوراقها. "هو ممتاز طالما ظل بعيداً عن الخمر."

قال الدكتور سيمسون:"الجميع يشربون لو أتيحت لهم نصف فرصة".

علقت جولى سيمسون: "لو استطاعوا الحصول عليه".

علق والد بيتر. "آه، إنهم يصنعون خمرتهم الخاصة. تلك الشنجة لديهم مميتة أكثر من أى شىء لدينا".

قال الدكتور سيمسون: "مميتة هى الكلمة الصحيحة. الشنجة يمكن أن تقتلك"- وبدأ يسرد قصة حول أحد مرضاه كان لديه ولد جناينى أصابه العمى من جراًء شربها.

"الذى عليه دور الدمية يمكنه أن يملأ كؤوسنا،" قالت والدة بيتر بعد أن لاحظت أن كأس الويسكى الكبير - الذى كانت قد قدمته للدكتور سيمسون لم يتبق منه سوى بعض قطع الثلج.

فكر بيتر - الذى كان يتابع الحوار - حول مشاركته فيه. أحس أنه قد تكون هناك مخاطر إذا سمح لنفسه بالتفوه بالجملة التى كان قد

أعدها؛ كان يعلم أيضًا أن ذلك سيكون نوعًا من أنواع لفت الأنظار ، أو التباهى ؛ الذى قد يقود إلى طرح الأسئلة وربما جلب المشاكل له ولأصدقائه.

حكت لهم والدة بيتر: "ثم هناك واقعة عصابة الرجال بالقرب من "تورور و" الذين كانون يصنعون الخمر. يبدو أن شخصين توفيا ، وتم توجيه تهمة القتل للرجال".

قال الدكتور سيمسون: "هذا صحيح ، ربما يكون درسًا لغيرهم من صانعى الشنجة إذا تم شنق اثنين منهم."

أضاف والد بيتر: "المشكلة أن هؤلاء الناس يصنعون هذه الخمر منذ فجر التاريخ".

"زيدولو يشرب "الديمبل" فقط،" فجأة وجد بيتر نفسه يلقى بهذا التصريح مثل القفاز الذى يلقى به تحديًا أو دعوة للنزال.

انتاب الصمت لاعبى البريدج الأربعة.

سأل والده بفظاظة: "ما الذى تتحدث عنه بيتر؟". كان قد تلقى أوراقًا جيدة ، وكان يريد الاستمرار فى اللعبة.

قالت والدته: "نعم، ما الذى تحاول أن تقوله؟"

حدث الشىء الذى كان يريده ويخشاه فى آن واحد –أن يصبح محور الاهتمام. ألقى نظرة سريعة على جولى سيمسون ، ورآها تنظر له من وراء أوراقها.

"آه لا شيء ،" قـال وهو يسـيـر إلي كـرسي والدته من الخلف ، ويلتقط فى طريقه شريحة من الجبن. "كانوا فقط يمزحون."

قـال والده: "هـيـا يا بيـتـر نحن ننتظر أن تحكى لنا مـاذا يدبر أصدقاؤك فى أسفل الحديقة."

"فى الواقع...،" قال بيتر وهو يتحرك بارتباك ناحية كرسى جولى سيمسون من الخلف ، ويتمنى أن يلتقطوا أوراقهم ويستمروا فى اللعب.

"فى الواقع؟" أصرت والدته.

"كانوا جميعًا يشربون من إحدى زجاجات "ديمبل" الغريبة."

فى تلك اللحظة دخل زيدولو وصمت الجميع.

قالت والدة بيتر لرئيس الخدم: "قل للطباخ إن الطعام مطلوب خلال عشرين دقيقة".

عندما انصرف زيدولو قال الدكتور سيمسون: "إذن كانوا يعبون من "الديمبل هايج" يا ولدى؟ عظيم جداً!"

رأى بيتر والده وهو ينقر على أوراقه بنفاد صبر ، ويقترح أن يستكملوا اللعبة ؛ فالوقت المتبقى قبل العشاء يكاد يكفى لإكمال الفوز بلعبتين.

"أمى ، لقد وعدتنى بأن ألعب دوراً،" قال بيتر وهو يهز جسده على كرسى والدته.

قال والده: "لا تنتحب هكذا". كان قد أثاره ما كشفه ابنه حول زجاجة "الديميل" ، ولكن لم يرغب فى مناقشة الأمر أمام ضيوفه.

استمر بيتر واقفًا خلف كرسي والدته. ثم فجأة وضعت جولى سيمسون أوراقها مثل المروحة على المائدة وهى تقول: "سأعطيكم فقط دور الاثنين الأسباتى،" وسجلوا جميعًا فى دفاتر نقاط اللاعبين: أربع بستونى بـ ١٢٠ زائد ٣٠ للدور الزائد وخمسمائة للفوز بلعبتين". رأى بيتر تعبير التحديق بانشداه الذى ينتاب والده؛ فمن أكثر الأشياء التى كان يكرهها أن يخسر.

قالت له والدته: "و الآن هيا يا حبيبى".

قال محتجًا: "و لكننى لم ألعب حتى دورًا واحدًا".

"لم يكن هناك وقت-سنتناول عشاءنا الآن. قدم تحية المساء ولتكن فتى طيبًا."

قال: "تصبحون على خير،" ورد عليه الجميع تحية المساء.

قالت له أمه: "يمكنك أن تأخذ شريحة أخرى من الجبن معك".

"خذ اثنين،" قالت له جولى وهى تغمز له. ابتسم لها وأخذ اثنين، ثم ألقى عليهم تحية المساء مرة أخرى وخرج من الغرفة.

صاحت والدته من ورائه: "أنا قادمة لكى أغطيك عندما تدخل الفراش ، ولا تنس أن تنظف أسنانك عندما تنتهى من أكل شرائح الجبن."

عندما جاءت والدته لكى تقبله قبل أن ينام لم تقل شيئًا سوى: "و الآن أخلد إلى النوم ، وسنتحدث فى الصباح."

نام وهو يبكى. كان يشعر بالخجل خاصة بعد أن حاول لفت الأنظار أمام جولى سيمسون. كان أيضًا يخشى مواجهة والده فى اليوم التالى. أدرك أنه كان من الأفضل لو كان قد تم سؤاله حينذاك حول زجاجة "الديمبل" ؛ حيث كان سيوضح لهم أن الخدم كانوا يتصرفون مثل الأطفال ، ويلعبون لعبة التظاهر . ففى نهاية الأمر لم يحدث شىء باستثناء أنه رأى زيدولو والآخرون يشربون من زجاجة "الديمبل هيج". خادمه الشخصى فقط - شريف - وهو المسلم الوحيد بينهم، لم يشاركهم وظل جالسًا يراقبهم بمزيج من البهجة والازدراء. قاموا بتمرير الزجاجة بينهم - وهم يمسحون قمتها بكف أيديهم. كانوا قد قدموها لبيتر وهم يبتسمون ابتسامات عريضة ، ولكنه هز رأسه وهو يلوى وجهه للإشارة إلى أن المذاق لن يعجبه. كان قد تساءل حينذاك من أين أتوا بالزجاجة. فيما بعد، عندما ذهب هو وشريف لإطعام الطيور التى اصطادوها تلك الظهيرة ووضعوها فى أقفاص، قال له شريف إن الآخرين وضعوا خمرتهم المحلية فى الزجاجة ؛ وهى زجاجة فارغة كانت والدة بيتر قد ألقتها فى سلة القمامة منذ عدة أشهر.

قبل أن يخلد إلى النوم طمأن نفسه أن كل شىء سينتهى على ما يرام - سيقوم فقط بإضافة المعلومات حول احتواء الزجاجة على خمر محلى.

اكتشف بيتر فى صباح اليوم التالى أن مزحته الصغيرة اكتسبت أبعاداً خطيرة ؛ حيث أجل والده ذهابه إلى المكتب حتى يستطيع استجوابه. أطلق ضحكة ساخرة عندما شرح له بيتر أن زجاجة "الديمبل" كانت تحتوى على بيرة محلية، أو نوعًا من الخمر المحلى. كيف عرف ذلك؟ هل شربها؟ للحظات فكر بيتر أن يقول إنه شرب منها ، ولكنه خاف أن ينزلق فى مشكلة أعمق. الخدم، أشار والده، ليسوا أطفالاً لكى يلعبوا ألعاباً.

"و لكنهم كانوا يتظاهرون فقط يا أبى."

حدَّق بيتر فى وجه والده الصارم، وشفاهه تمتد رفيعة أسفل شاربه الكثيف. لماذا فجأة أصبح الخدم يوصفون بأنهم ليسوا مثل الأطفال؟

دخلت والدته الغرفة وأشار والده بحركة إلى أعلى من عينيه أن ابنهما لم يكن لديه شىء آخر ليضيفه. وكأن بيتر لم يكن موجوداً، سأل والداه بعضهما كيف تأتى للخدم أن يحصلوا على زجاجة "الديمبل هيج".

ألم تلاحظ والدته إذا كانت إحدى الزجاجات مفقودة من مخزن المؤن؟ هل يمكن تصور أن زيدولو سرق زجاجة من على صينية المشروبات؟

أشارت والدة بيتر: "بالطبع يمكن أن يكون واحد منهم قد أخذ زجاجة فارغة من القمامة".

صرخ بيتر بصوت حاد: "هذا هو ما حدث، كانوا يتظاهرون فقط يا أبى."

"ستثير غضبى أكثر إذا ظللت تقول لى هذا "- وكان بيتر يستطيع أن يرى والده فى حالة غضب شديد ، وكان قد استقر على رأى. "لماذا إذن - إذا كنت تعتقد أنهم يلعبون لعبة غبية - ذكرت هذا الموضوع من الأساس؟ هل لكى تورطهم فى مشكلة؟"

اخترقت هذه العبارة الأخيرة أكثر من غيرها أعماق إحساسه بالذنب. دموعه، التى كان قد امسكها حتى الآن، بدأت تخنقه ، وأخذته والدته إلى الحمام وغسلت عينيه، وقالت له إنه كان على صواب عندما أبلغهم بما رأى. ناشدها ألا تفعل شيئًا لزيدولو والآخرين ، ولكنها قالت له إن الأمر متروك لوالده لكى يقرر ماذا يفعل.

قبل أن يذهب والده إلى المكتب كان قد تم اتخاذ قرار بمعاقبة جميع الخدم بخصم أجر إسبوع من رواتبهم فى نهاية الشهر-جميعهم باستثناء شريف.

تم إبلاغ بيتر بالقرار. كان سيتم اصطفاف الخدم أمام والده وقت الغذاء عندما يعود من مكتبه. مرة أخرى حاول بيتر أن يدافع عن الخدم أمام والدته.

قال لها إنهم ليسوا من الغباء بحيث يشربوا ويسكى سرقوه من المنزل أمامه؛ كانوا سيعرفون أنه سيبلغ والديه.

"لا أعتقد أنهم سيعرفون ذلك يا ولدى الحبيب. أعتقد أنهم يعتبرونك واحداً منهم. لقد قلت لك أكثر من مرة إنك يجب ألا تجلس معهم نصف اليوم مثلما تفعل. ألم تر المشاكل التى يسببها ذلك للجميع. يجب أن تعرف أنهم يعيشون فى عالم آخر غير عالمنا."

و هو يأخذ معه أداة قذف الحصى ذهب مع شريف بحثًا عن الحمام فى الشمبات المجاورة. قال لشريف إن والدته اكتشفت فقدان زجاجة ويسكى من مخزن المؤن. فبأى شكل آخر يستطيع أن يفسر له مجرى الأحداث؟ أصر شريف أنها كانت زجاجة فارغة تم رميها، وأنه تم انتشالها وملأها بالبيرة المحلية. طلب منه بيتر أن يحذر الباقين مما حدث ، وأنه سيتم استجوابهم عندما يعود البوانا× من المكتب.

تم استدعاء الخدم للاصطفاف فى الفيرانده الأمامية، وإحضار كرسى خيزران لوالد بيتر - حيث خاطب من عليه الرجال الستة وهم واقفون؛ بحسب الأقدمية. قال لهم بإيجاز إن ابنه شاهدهم وهم يشربون من زجاجة ويسكى. من أين جاءت هذه الزجاجة إن لم يكن من المنزل الذى يعملون فيه ، ويتقاضون أجورهم منه ؟ نظر الرجال إلى أقدامهم دون أن ينبسوا بكلمة، ثم نظروا جانبًا إلى زيدولو وهو يكاد يهمس بكيفية اكتشافه للزجاجة منذ عدة أشهر فى القمامة ، وكيف أنه غسلها لكى يملأها بالبيرة المحلية.

"لا أصدقك." قال والد بيتر بجفاء ، وفرض عليهم غرامة قيمتها أجر إسبوع، يتم خصمها فى نهاية الشهر. "أنتم محظوظون لأننى

لم أقحم الشرطة فى هذا الأمر." قال وهو ينهى كلامه بنبرة تحذيرية.
لم ينبس الخدم بأية كلمة احتجاجاً.

عندما أبلغته والدته بما تم إقراره احتج بيتر قائلاً: "هذا ظلم.
لماذا لا يصدق أبى أنهم وجدوا زجاجة فارغة؟ إنه يفرض عليهم غرامة
هكذا ، وهو يعلم أنهم لا يستطيعون فعل شىء إزاء ذلك." نظر إلى أعلى
لوجهها بتحد. قال لها: "إنهم أصدقائى ، وأبى غير منصف."

" لا تتحدث هكذا عن أبيك."

قالت وهى تمسكه من كتفه وتهزه: "يمكننى إبلاغه بما قلت."

أحس أنه لم يعد هناك جدوى مما يفعل أو يقول-فلم يعد هناك ما
يمكن أن يخسره أكثر من ذلك. سيعرف أصدقاؤه أنه قد خان ثقتهم
فيه ، وسيكون رد فعلهم عدم الوثوق فيه أبداً بعد ذلك: لقد أُغلق الباب
على عالم كان قد فُتح له وحده دون غيره. من الآن فصاعداً سيكون
ممنوعاً عليه دخول هذا العالم ، وسيُجبر على الاكتفاء بذلك العالم الآخر
الذى يعيش فيه والداه وأصدقاؤهما.



المحتويات

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للتـرجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات التـرجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التـوازن بين المعـارف الإنسـانيـة فى المجـالات العلميـة والفنيـة والفكرية والإبداعية .

٣- الانحيـاز إلى كل مـا يؤسس لأفكار التـقـدم وحـضـور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجـمـة الأصـول المعـرفيـة التى أصـبـحت أقـرب إلى الإطار المرجعى فى الثـقـافـة الإنسـانيـة المعـاصـرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س جودى	ت محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لوسى سميث	ت أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج ج كراوثر	ت يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب كارس	ت بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ ج هوبكنز	ت أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر ألن	ت حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول ب ديكسون	ت خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت محمود السيد علي
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ١	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	هـ ت نوريس	ت عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١ - مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ م بينياليستي	ت محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسي التدعيمي	بيتر ن نوفاليس وستيفن ج روجسيفيتز وروجر بيل	ت لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ ف ألنجتون	ت مرسي سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح	ج مايكل والتون	ت محسن مصيلحي
٥٥ - ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت علي يوسف علي
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود علي مكي
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت صبري محمد عبد الغني
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف محمد الجوهري
٦٢ - لذّة النّص	رولان بارت	ت محمد خير البقاعي
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ٢	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت رمسيس عوض
٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت رمسيس عوض
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز — ت. س. إليوت — ت: فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ — جين ب. تومبكنز — ت: حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر — ل. ا. سيميونوفا — ت: حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية — أندريه موروا — ت: أحمد درويش
٧٦ – جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي — مجموعة من الكتاب — ت: عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣ — رينيه ويليك — ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية — رونالد روبرتسون — ت: أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف — بوريس أوسبنسكي — ت: سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع» — ألكسندر بوشكين — ت: مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة — بندكت أندرسن — ت: محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل — ميجيل دي أونامونو — ت: محمود السيد علي
٨٣ – مختارات — غوتفريد بن — ت: خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد — مجموعة من الكتاب — ت: عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية) — صلاح زكي أقطاي — ت: عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل — جمال مير صادقي — ت: أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم — جلال آل أحمد — ت: ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب — جلال آل أحمد — ت: إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث — أنتوني جيدنز — ت: أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص) — نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية — ت: محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق — باربرا لاسوتسكا — ت: محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر — كارلوس ميجيل — ت: نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة — مايك فيذرستون وسكوت لاش — ت: عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة — صمويل بيكيت — ت: فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني — أنطونيو بويرو باييخو — ت: سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة — قصص مختارة — ت: إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول) — فرنان برودل — ت: بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني — نماذج ومقالات — ت: أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية — ديفيد روبنسون — ت: إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة — بول هيرست وجراهام تومبسون — ت: إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج) — بيرنار فاليط — ت: رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح — عبد الكريم الخطيبي — ت: عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء — عبد الوهاب المؤدب — ت: محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني — برتولت بريشت — ت: عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع — جيرار جينيت — ت: عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي — د. ماريا خيسوس روبييرا متي — ت: أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر — نخبة — ت: محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت محمود علي مكي
١٠٩ - حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادي پلانت	ت أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت نسيم مجلي
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنادولينا	ت أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	چون جراي	ت أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديڤي	ت سمحه الخولي
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحي	ت بشير السباعي
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت شوقي جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق علي	ت طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	باري ج كيمب	ت أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت س إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت س إليوت	ت ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف ماري مواريه	ت كاميليا صبحي
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تاروني	ت وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت أمل الجبوري
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية تاريخ ودليل	أ م فورستر	ت حسن بيومي
١٤٣ - قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت عدلي السمري
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت على عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت على إبراهيم على منوفي
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج ليتمان	ت منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت بشير السباعي
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت محمد محمد الخطابي
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت أحمد مرسي
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جي أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت مي التلمساني
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامي الكنوجي	ت عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت بشير السباعي
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت إبراهيم فتحي
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت حسين بيومي
١٦١ - من المسرح الإسباني	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف محمد الجوهرى
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ ن أفانا سيفا	ت سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - في عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت محمد محمد الخطابي
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت ستيس	ت إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي	فنسنت ب ليتش	ت محمد يحيى

العنوان	المؤلف	المترجم
١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	ڤالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أورين	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت السيد محمد نفادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركى	ت السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - ما بعد المعلومات	توم ستينر	ت مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	آرثر هيرمان	ت طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولمة والتحرير	الانكتاد	ت ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رابوخ	ت نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتزر	ت ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكيبيل	ت نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومينيك فينك	ت ماجدة أباظة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف محمد الجوهرى
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيميونوفا	ت حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الغجر	سير أنجوس فريزر	ت عُبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف محمد الجوهرى
٢٦١ - رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت على يوسف على
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	ت لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت بدر الدين عرودكى
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى باترسون	ت شوقى جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر لوك	ت عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت محمود على مكى
٢٧٥ - ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ - الجينات الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت أحمد فورى
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت طريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت طلعت الشايب
٢٨٠ - من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت جلال الحفناوى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان رولفو	ت على البمبى
٢٨٤ - هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت أحمد عتمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائى	ديفيد لودج	ت ماهر البطوطى
٢٨٩ - ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانثيسكو رويس رامون	ت السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانثيسكو رويس رامون	ت السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربي | روجر آلان | ت نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر | بوالو | ت رحاب ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة | جوزيف كامبل | ت بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث | وليم شكسبير | ت محمد مصطفى بدوي
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية | ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهواني | ت ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد | أبو بكر تفاوابليوه | ت مصطفى حجازي السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية | جين ل. ماركس | ت هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١ | لويس عوض | ت جمال الجزيري وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢ | لويس عوض | ت جمال الجزيري ومحمد الجندي
٣٠٢ – فنجنشتين | جون هيتون وجودي جروفز | ت إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا | جين هوب وبورن فان لون | ت إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس | ريـوس | ت إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد | كروزيو مالابارته | ت صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطي للتاريخ | چان – فرانسوا ليوتار | ت نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور | ديفيد بابيتو | ت محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة | ستيف جونز | ت ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ | انجوس چيلاتي | ت جمال الجزيري
٣١٠ – يونج | ناجي هيد | ت محيي الدين محمد حسن
٣١١ – مقال في المنهج الفلسفي | كولنجوود | ت فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود | وليم دي بويز | ت أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية | خابير بيان | ت عبد الله الجعيدي
٣١٤ – الفن كعدم | جيمس مينيك | ت هويدا السباعي
٣١٥ – جرامشي في العالم العربي | ميشيل بروندينو | ت كاميليا صبحي
٣١٦ – محاكمة سقراط | أ. ف. ستون | ت نسيم مجلي
٣١٧ – بلا غد | شير لايموفا – زنيكين | ت أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة | نخبة | ت أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا | جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس | ت حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج | مؤلف مجهول | ت محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١) | ليفي برو فنسال | ت نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن العربي | دبليو. إيوجين كليتبلور | ت خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا | تراث يوناني قديم | ت هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار | أشرف أسدي | ت محمود سلامة علاوي
٣٢٥ – عالم الآثار | فيليب بوسان | ت كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة | جورجين هابرماس | ت حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة | نخبة | ت توفيق علي منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة | نور الدين عبد الرحمن بن أحمد | ت عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد | تد هيوز | ت محمد عيد إبراهيم

٢٣٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت سامي صلاح
٢٣١ - عندما جاء السردين	ستيفن جراي	ت سامية دياب
٢٣٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت علي إبراهيم علي منوفي
٢٣٣ - الإسلام في بريطانيا	نبيل مطر	ت بكر عباس
٢٣٤ - لقطات من المستقبل	آرثر س كلارك	ت مصطفى فهمي
٢٣٥ - عصر الشك	ناتالي ساروت	ت فتحي العشري
٢٣٦ - متون الأهرام	نصوص قديمة	ت حسن صابر
٢٣٧ - فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت أحمد الأنصاري
٢٣٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت جلال السعيد الحفناوي
٢٣٩ - تاريخ الأدب في إيران جـ٣	علي أصغر حكمت	ت محمد علاء الدين منصور
٢٤٠ - اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت فخري لبيب
٢٤١ - قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت حسن حلمي
٢٤٢ - سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت عبد العزيز بقوش
٢٤٣ - العالم البرجوازي الزائل	نادين جورديمر	ت سمير عبد ربه
٢٤٤ - الموت في الشمس	بيتر بلانجوه	ت سمير عبد ربه
٢٤٥ - الركض خلف الزمن	بونه ندائي	ت يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦ - سحر مصر	رشاد رشدي	ت جمال الجزيري
٢٤٧ - الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت بكر الحلو
٢٤٨ - المتصوفة الأولون في الأدب التركي جـ١	محمد فؤاد كوبريلي	ت عبد الله أحمد إبراهيم
٢٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرين	ت أحمد عمر شاهين
٢٥٠ - بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت عطية شحاتة
٢٥١ - مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت أحمد الأنصاري
٢٥٢ - قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت نعيم عطية
٢٥٣ - الفن الإسلامي في الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت علي إبراهيم علي منوفي
٢٥٤ - الفن الإسلامي في الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت علي إبراهيم علي منوفي
٢٥٥ - التيارات السياسية في إيران	حجت مرتضى	ت محمود سلامة علاوي
٢٥٦ - الميراث المر	بول سالم	ت بدر الرفاعي
٢٥٧ - متون هيرميس	نصوص قديمة	ت عمر الفاروق عمر
٢٥٨ - أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت مصطفى حجازي السيد
٢٥٩ - محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت حبيب الشاروني
٢٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا ماركان	ت ليلى الشربيني
٢٦١ - التصحر التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢ - تلميذ بابنبرج	هاينرش شبورال	ت سيد أحمد فتح الله
٢٦٣ - حركات التحرر الأفريقي	ريتشارد جيبسون	ت صبري محمد حسن
٢٦٤ - حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت نجلاء أبو عجاج
٢٦٥ - سأم باريس	شارل بودلير	ت محمد أحمد حمد
٢٦٦ - نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت مصطفى محمود محمد

٣٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت فورية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة	سميل باث	ت جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت إيرابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات	جون دن	ت بهاء چاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت نخبة
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت ماهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ت ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – رية المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت عماد حسن بكر
٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل	أندريه جيد	ت حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت جمال أحمد عبد الرحمن

٤٠٧ - الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت طلعت شاهين
٤٠٨ - معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت عنان الشهاوى
٤٠٩ - انتصار السعادة	برتراند راسل	ت إلهامى عمارة
٤١٠ - خلاصة القرن	كارل بوبر	ت الزواوى بغورة
٤١١ - همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت أحمد مستجير
٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفى بروفنسال	ت نخبة
٤١٣ - أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت محمد البخارى
٤١٤ - الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت أمل الصبان
٤١٥ - صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ - مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت مصطفى بدوى
٤١٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ - سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ - العصر الذهبى للإسكندرية	جون ماريو	ت نسيم مجلى
٤٢٠ - مكرو ميجاس	فولتير	ت الطيب بن رجب
٤٢١ - الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ - رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١	نخبة	ت عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ - إسرامات الرجل الطيف	نخبة	ت وحيد النقاش
٤٢٤ - لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامى	ت محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ - من طاووس حتى فرح	محمود طلوعى	ت محمود سلامة علاوى
٤٢٦ - الخفافيش وقصص أخرى من أفغانستان	نخبة	ت محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ - باندراس الطاغية	ماى إبكلان	ت ثريا شلبى
٤٢٨ - الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت محمد أمان صافى
٤٢٩ - هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ - كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ - فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ - ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ - جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت حمدى الجابرى
٤٣٤ - الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	ت عصام حجازى
٤٣٥ - توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت ناجى رشوان
٤٣٦ - تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ - رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ - بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت عايدة سيف الدولة
٤٣٩ - موت المرابى	صدر الدين عينى	ت محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ - قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت محمد الشرقاوى
٤٤١ - رب الأشياء الصغيرة	أروندهاتى روى	ت فخرى لبيب
٤٤٢ - حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت ماهر جويجاتى
٤٤٣ - اللغة العربية	كيس ﭬرستيغ	ت محمد الشرقاوى

٤٤٤ – أمريكا اللاتينية الثقافات القديمة   لاوريت سيجورنه   ت صالح علماني

٤٤٥ – حول وزن الشعر   پرويز ناتل خانلرى   ت محمد محمد يونس

٤٤٦ – التحالف الأسود   ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير   ت أحمد محمود

٤٤٧ – نظرية الكم   ج پ ماك ايفوى   ت ممدوح عبد المنعم

٤٤٨ – علم نفس التطور   ديلان ايفانز – أوسكار زاريت   ت ممدوح عبد المنعم

٤٤٩ – الحركة النسائية   مجموعة   ت جمال الجزيرى

٤٥٠ – ما بعد الحركة النسائية   صوفيا فوكا – ريبيكا رايت   ت جمال الجزيرى

٤٥١ – الفلسفة الشرقية   ريتشارد أوزبورن / بورن ڤان لون   ت إمام عبد الفتاح إمام

٤٥٢ – لينين والثورة الروسية   ريتشارد إبجانزى / أوسكار زاريت   ت محى الدين مزيد

٤٥٣ – القاهرة إقامة مدينة حديثة   جان لوك أرنو   ت حليم طوسون وفؤاد الدهان

٤٥٤ – خمسون عاماً من السينما الفرنسية   رينيه بريدال   ت سوزان خليل

٤٥٥ – تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)   فردريك كوبلستون   ت محمود سيد أحمد

٤٥٦ – لا تنسنى   مريم جعفرى   ت هويدا عزت محمد

٤٥٧ – النساء في الفكر السياسى الغربى   سوزان موللر اوكين   ت إمام عبد الفتاح إمام

٤٥٨ – الموريسكيون الأندلسيون   خوليو كارو باروخا   ت جمال عبد الرحمن

٤٥٩ – نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية   توم تيتنبرج   ت جلال البنا

٤٦٠ – الفاشية والنازية   ستوارت هود – ليتزا جانستز   ت إمام عبد الفتاح إمام

٤٦١ – لكان   داريان ليدر – جودى جروفز   ت إمام عبد الفتاح إمام

٤٦٢ – طه حسين من الأزهر إلى السوربون   عبد الرشيد الصادق محمودى   ت عبد الرشيد الصادق محمودى

٤٦٣ – الدولة المارقة   ويليام بلوم   ت كمال السيد

٤٦٤ – ديمقراطية القلة   ميكائيل بارنتى   ت حصة منيف

٤٦٥ – قصص اليهود   لويس جرينرج   ت جمال الرفاعى

٤٦٦ – حكايات حب وبطولات فرعونية   فيولين فانويك   ت فاطمة محمود

٤٦٧ – التفكير السياسى   ستيفين ديلو   ت ربيع وهبة

٤٦٨ – روح الفلسفة الحديثة   جورايا رويس   ت أحمد الأنصارى

٤٦٩ – جلال الملوك   نصوص حبشية قديمة   ت مجدى عبد الرازق

٤٧٠ – الأراضى والجودة البيئية   نخبة   ت محمد السيد الننة

٤٧١ – رحلة لاستكشاف أفريقيا ج٢   نخبة   ت عبد الله الرازق إبراهيم

٤٧٢ – دون كيخوتى (القسم الأول)   ميجيل دى ثربانتس سابيدرا   ت سليمان العطار

٤٧٣ – دون كيخوتى (القسم الثانى)   ميجيل دى ثربانتس سابيدرا   ت سليمان العطار

٤٧٤ – الأدب والنسوية   پام موريس   ت سهام عبد السلام

٤٧٥ – صوت مصر أم كلثوم   فرجينيا دانيلسون   ت عادل هلال عنانى

٤٧٦ – أرض الحبايب بعيدة بيرم التونسى   ماريلين بوث   ت سحر توفيق

٤٧٧ – تاريخ الصين   هيلدا هوخام   ت أشرف كيلانى

٤٧٨ – الصين والولايات المتحدة   ليوشيه شنج ولى شى دونج   ت عبد العزيز حمدى

٤٧٩ – المقهى (مسرحية صينية)   لاوشه   ت عبد العزيز حمدى

٤٨٠ – تساى ون جى (مسرحية صينية)   كو مو روا   ت عبد العزيز حمدى

٤٨١ – عباءة النبي — روى متحدة — ت رضوان السيد

٤٨٢ – موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية — روبير جاك تيبو — ت فاطمة محمود

٤٨٣ – النسوية وما بعد النسوية — سارة جامبل — ت أحمد الشامى

٤٨٤ – جمالية التلقى — هانس روبيرت ياوس — ت رشيد بنحدو

٤٨٥ – التوبة (رواية) — نذير أحمد الدهلوى — ت سمير عبد الحميد إبراهيم

٤٨٦ – الذاكرة الحضارية — يان أسمن — ت عبد الحليم عبد الغنى رجب

٤٨٧ – الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية — رفيع الدين المراد آبادى — ت سمير عبد الحميد إبراهيم

٤٨٨ – الحب الذى كان وقصائد أخرى — نخبة — ت سمير عبد الحميد إبراهيم

٤٨٩ – هُسِّرل الفلسفة علمًا دقيقًا — هُسِّرل — ت محمود رجب

٤٩٠ – أسمار البيغاء — محمد قدرى — ت عبد الوهاب علوب

٤٩١ – نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى — نخبة — ت سمير عبد ربه

٤٩٢ – محمد على مؤسس مصر الحديثة — جى فارجيت — ت محمد رفعت عواد

٤٩٣ – خطابات إلى طالب الصوتيات — هارولد بالمر — ت محمد صالح الضالع

٤٩٤ – كتاب الموتى (الخروج فى النهار) — نصوص مصرية قديمة — ت شريف الصيفى

٤٩٥ – اللوبى — إدوارد تيفان — ت حسن عبد ربه المصرى

٤٩٦ – الحكم والسياسة فى أفريقيا — إكوادو ماولى — ت مجموعة من المترجمين

٤٩٧ – العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط — نادية العلىّ — ت مصطفى رياض

٤٩٨ – النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث — جوديث تاكر ومارجريت مريودز — ت أحمد على بدوى

٤٩٩ – تقاطعات الأمة والمجتمع والجنس — نخبة — ت فيصل بن خضراء

٥٠٠ – فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية) — تيتز رووكى — ت طلعت الشايب

٥٠١ – تاريخ النساء فى الغرب — آرثر جولد هامر — ت سحر فراج

٥٠٢ – أصوات بديلة — هدى الصدّة — ت هالة كمال

٥٠٣ – مختارات من الشعر الفارسى الحديث — نخبة — ت محمد نور الدين عبد المنعم

٥٠٤ – كتابات أساسية ج١ — مارتن هايدجر — ت إسماعيل المصدق

٥٠٥ – كتابات أساسية ج٢ — مارتن هايدجر — ت إسماعيل المصدق

٥٠٦ – ربما كان قديسًا — آن تيلر — ت عبد الحميد فهمى الجمال

٥٠٧ – سيدة الماضى الجميل — بيتر شيفر — ت شوقى فهيم

٥٠٨ – المولوية بعد جلال الدين الرومى — عبد الباقى جلبنارلى — ت عبد الله أحمد إبراهيم

٥٠٩ – الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك — آدم صبرة — ت قاسم عبده قاسم

٥١٠ – الأرملة الماكرة — كارلو جولدونى — ت عبد الرازق عيد

٥١١ – كوكب مرقَّع — آن تيلر — ت عبد الحميد فهمى الجمال

٥١٢ – كتابة النقد السينمائى — تيموثى كوريجان — ت جمال عبد الناصر

٥١٣ – العلم الجسور — تيد أنتون — ت مصطفى إبراهيم فهمى

٥١٤ – مدخل إلى النظرية الأدبية — جونثان كولر — ت مصطفى بيومى عبد السلام

٥١٥ – من التقليد إلى ما بعد الحداثة — فدوى مالطى دوجلاس — ت فدوى مالطى دوجلاس

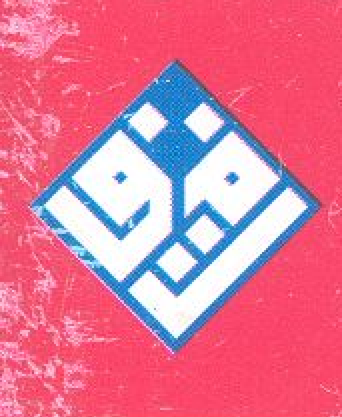
٥١٦ – إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان — أرنولد واشنطون – ودونا باوندى — ت صبرى محمد حسن

٥١٧ – نقش على الماء وقصص أخرى — نخبة — ت سمير عبد الحميد إبراهيم

٥١٨ – استكشاف الأرض والكون — إسحق عظيموف — ت هاشم أحمد محمد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
رقم الإيداع ٢٣٠٢١ / ٢٠٠٢





هذه المجموعة القصصية ذات الانسياب السردى الهادئ، والدراما غير المولعة بالصخب، والحبكات الناعمة الذكية، إنما ترسم صورة لعالم مجهول لدينا برغم قربه منا، فنحن نعرف أن الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية عندما غربت عنها الشمس تركت عالم المستعمرات - بعد التحرُّر - ممزق الأوصال على خرائط مزروعة بالألغام ومنذورة للحروب الأهلية والحدودية وآلام الشعوب. أما الذى لا نعرفه وتقودنا هذه القصص إلى معرفته فهو ذلك العالم الداخلى لفئة من أبناء الإمبراطورية الآفلة نفسها، قادتهم قلوبهم إلى الجانب الآخر المجروح بسكين هذه الإمبراطورية، وكان نصيبهم من الإرث: خرائط أخرى ملتبسة فى دواخلهم، معذبة بالحيرة بين عالمين ومثقلة بالشجن، وهو عند «دينيس چونسون» شجن عذب وموجع فى آنٍ.

